ما هو التاريخ ؟

باشراف
الإدارة العامة للثقافة
بوزارة التعليم العالى

تصدر هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

ما هو التاريخ ؟

تأليف : إدوارد كار

ترجمه
أحمد حمدي محمود

راجعه
علي أدهم

الناشر

مؤسسة سجل العرب

بإشراف الأستاذ الدكتور ابراهيم عبده

٢٦ شارع شريف باشا - القاهرة
تليفون ٤٩٩٩٩

١٩٦٢

هذه ترجمة كتاب :

W hat is History

تأليف

Edward Hallett Carr

محتويات الكتاب

١ - المؤرخ ووقائعه

ما هو التاريخ ؟ .. حتى لا يظن أحد أن السؤال بلامعنى ، أو لا لزوم له ، فإننى سوف أستشهد بفقرتين تنتسبان على التوالى إلى تاريخى كامبردج الحديث Cambridge Modern History الأول والثانى. وها هو ما ذكره « أكتون » فى تقريره إلى المشرف على مطبعة جامعة كامبردج عن المؤلف الذى تعهد بالإشراف عليه ، وذلك فى أكتوبر سنة ١٨٩٦ :

« إنها لفرصة فريدة أن يتم تسجيل المعرفة بأكملها التى أوشك القرن التاسع عشر أن يخلفها ، بأفضل طريقة تفيد العدد الأكبر من الناس . . . وسوف يتسنى لنا عن طريق تقسيم العمل بحكمة أن نقوم بذلك ، وأن نثبت آخر الوثائق ، وأنضج نتائج البحث الدولى إثباتاً قاطعا .

ولن نستطيع أن نحصل على تاريخ نهائى فى هذا الجيل ،ولكننا الآن بعد أن أصبحت المعلومات كافة فى متناول أيدينا ، وأصبح بالإمكان حل كل مشكلة (١) ــ قادرون على الاستغناء عن التاريخ "تقليدى ،وأن نوضح النقطة التى اهتدينا إليها فى الطريق من إحداها إلى أخرى . »

وبعد ما يقرب من الستين سنة تماما ، عقب « سير جورج كلارك » فى مقدمته العامة «لتاريخ كامبردج الحديث» الثانى Cambridge Modern History على اعتقاد « أكتون » ومعاونيه بأنه من المستطاع كتابة تاريخ نهائى يوما ما ذاكراً :

---

(١) تاريخ كامبردج الحديث ــ أصله وتأليفه وإنتاجه (١٩٠٧) صفحات ١٠ ــ ١٢

The Cambridge Modern History its Origin, Authorship & Production.

« إن مؤرخى الجيل الذى جاء بعد ذلك يتطلعون إلى تحقيق مثل هذا المطمع ، ويتوقعون أن يحل شيء آخر محل مؤلفهم مرة بعد أخرى ، وهم يرون أن معرفة الماضى قد جاءت عن طريق عقل إنسانى أو أكثر ، وأنهم يتابعون هذه المعرفة . ولذا فإنها لا يمكن أن تتكون من ذرات أولية ولا شخصية ، لا يستطيع شيء أن يغيرها ... ويبدو الاستقصاء وكأنه بغير نهاية ، ويلجأ بعض الباحثين القليلى الصبر إلى الشك ، أو إلى الفكرة القائلة : إنه بالنظر إلى تضمن جميع الأحكام التاريخية أشخاصاً ووجهات نظر ، فإن كل حكم تاريخى لا يختلف من حيث قيمته عن الآخر ، وإنه لا وجود لحقيقة تاريخية موضوعية (١) ».

وعندما يتناقض العلامتان تناقضا واضحا ، فإن المجال يتسع للبحث ، وإننى آمل أن أكون مسايراً للزمن بالقدر الكافى الذى يسمح لى بإدراك أن أى شيء كتب فى تسعينات القرن الماضى يجب أن يكون هراء ، ولكننى لست متقدماً بما فيه الكفاية ، لكى أقترف خطأ القول بأن أى شيء كتب فى خمسينات هذا القرن يكون بالضرورة معقولا . وبحق ، ربما خطر لكم فعلا أن هذا البحث سوف يشط إلى شيء آخر أكثر اتساعا من طبيعة التاريخ . إن التناقض بين « أكتون » و « سير جورج كلارك » ، هو انعكاس للتغير فى نظرتنا الشاملة للمجتمع فى الفترة بين بيانيهما . « فأكتون » يتكلم متأثراً بالاعتقاد الإيجابى والثقة الخالصة لعصر الملكة فيكتوريا الأخير ، ويردد « سير جورج كلارك » حيرة الجيل المقهور وشكه المذهل . وعندما نحاول أن نجيب عن السؤال « ما هو التاريخ؟ » فإن إجابتنا تعكس شعورياً أو لاشعورياً موقفنا فى الزمن ، وتؤلف جانبا من إجابتنا عن السؤال الكبير الخاص بما هى النظرة التى ننظر بها إلى

---

(١) التاريخ الحديث لتاريخ كامبردج الحديث (١٩٥٧)
صفحات ٧ — ١٧

The New Cambridge Modern History.

المجتمع الذى نعيش فيه . وإننى لا أخشى أن يبدو موضوعى، بالبحث الدقيق، هيناً ، ولكننى أخشى فقط أن أبدو دعياً لاقتحامى مسألة متسعة وهامة للغاية .

كان القرن التاسع عشر عصراً عظيما فى بحثه عن الوقائع . قال « جراد جرايند Grad grind فى كتابه « الأوقات العصيبة » Hard Times : « إن ما أبغيه هو الوقائع ... فإن الوقائع وحدها هى الشىء المطلوب فى الحياة ». وقد اتفق معه فى الرأى بصفة عامة جميع مؤرخى القرن التاسع عشر . وعندما لاحظ « رانكه » فى ثلاثينات القرن الماضى فى احتجاج محق على تفسير التاريخ تفسيرا أخلاقياً ، أن مهمة المؤرخ هى « ببساطة أن يبين كيف كانت الحال فعلا » Wie es eigentlich gewesen ، صادف هذا القول المأثور الذى ليس له حظ موفور من العمق نجاحا مذهلا ، فقد سار ثلاثة أجيال من المؤرخين الألمان والإنجليز، وحتى الفرنسيين، إلى المعمعة مرددين الكلمات السحرية مثل التعويذة : Wie es eigentlich gewesen : لأنها قد أنشئت مثل أغلب التعويذات لإنقاذهم من الالتزام المرهق ، وهو التفكير لأنفسهم، فالوضعيون فى حرصهم على التمسك بمطلبهم الخاص بالتاريخ علماً ، قد جعلوا تأثيرهم يرتكز على تعويذة الوقائع هذه . قال الوضعيون : تحقق أولا من الوقائع ثم استخلص منها النتائج بعد ذلك . وقد لاءمت هذه النظرة إلى التاريخ فى بريطانيا التقليد التجريبي الذى كان الاتجاه السائد فى الفلسفة البريطانية من « لوك » إلى « برتراند رسل » ملاءمة تامة . وتفترض النظرية التجريبية للمعرفة افتراضاً سابقاً الفصل التام بين الذات والموضوع. فالوقائع تصدم المشاهد من الخارج مثل التأثيرات الحسية ، وهى مستقلة عن وعيه. وعملية الاستقبال سلبية ، فبعد أن يتلقى المشاهد المادة الأولية ، يتفاعل معها . ويحدد قاموس أكسفورد Qxford Shorter English Dictionary - وهو قاموس مفيد ، ولكنه منحاز إلى المذهب التجريبي - انفصال العمليتين ،

عندما يعرف الواقعة بأنها «مادة أولية للتجربة متمايزة عما يستنتج منها» وهذا مايمكن أن يسمى بالنظرة البديهية إلى التاريخ. فالتاريخ يتكون من مجموعة من الوقائع المحققة، وتتيسر للمؤرخ فى وثائق ومخطوطات.. إلخ، مثل السمك فى إناء بائعه — والمؤرخ يجمعها ويأخذها إلى داره حيث يقوم بطهوها ثم تقديمها فى الأسلوب الذى يرتضيه. وكانت رغبة «أكتون» الذى يعتمد ذوقه فى الطهى على التقشف ، أن تقدم الوقائع كما هى . فقد ذكر فى تعليماته إلى المشتركين فى كتاب « تاريخ كامبردج الحديث الأول » Cambirdge Modern History المطلب الخاص بأن تكون كتابتنا عن «واترلو» مرضية للفرنسيين والإنجليز والألمان والهولانديين على حد سواء ، وذلك حتى لا يستطيع أحد أن يذكر دون بحث فى قائمة المؤلفين : أين ألقى أسقف أكسفورد بقلمه ؟ وهل تناوله فاير بيرن Fair bairn أو جاسكويه Jasquet أو ليبرمان Liebrmann أو هاريسون(١) . وبالمثل « سير جورج كلارك » ، فإنه بالرغم من نقده اتجاه أكتون ، قارن بين « اللب الجامد للوقائع » واللباب المحيط به من التفسيرات المتنازع عليها (٢) وربما كان متناسيا أن الأجزاء اللبابية للفاكهة أعظم فائدة من الباطن الصلب — إن الحكمة النهائية لمذهب الداهة التجريبى هى حصّل أولا بطريقة مباشرة وقائعك ، ثم خاطر بالغوص فى الرمال المتنقلة للتفسيرات . وهى تذكر بالحكمة التى كان يؤثرها « س . ب . سكوت » ، الصحفى العظيم من حزب الأحرار « الوقائع مقدسة ، والرأى حر » .

والآن : إن هذا بوضوح لن يعود بالنفع ، وإننى لن أشرع فى مناقشة

---

(١) أكتون « محاضرات فى التاريخ الحديث » (١٩٠٦) ص ٣١٨

Acton : Lectures on Modern History.

(٢) اقتبست من مجلة « الليسنر فى ١٩ يونيه ١٩٥٢ ص ٩٩٢

The Listener.

فلسفية عن طبيعة معرفتنا بالماضى . فلنفترض لغايتنا الحاضرة أن الواقعة الخاصة بأن قيصر قد عبر نهر الروبيكون ، والواقعة الخاصة بوجود منضدة فى وسط الحجرة هما واقعتان تتبعان نظاما واحداً . . . أو نظامين يمكن الموازنة بينهما .. وأن كلتا الواقعتين تدخل وعينا بطريقة واحدة أو بطريقتين يمكن الموازنة بينهما ، وأن لكلتيهما نفس الطابع الموضوعى فى صلتهما بالشخص الذى يعرفهما . ولكن حتى إذا اعتمدنا على هذا الافتراض الجرىء وإن يكن افتراضا مستصوبا إلى حد ما ، فإن برهاننا يتعرض للصعوبة الخاصة بأن وقائع الماضى ليست كلها وقائع تاريخية ، أو أن المؤرخ ينظر إليها هذه النظرة . فما هو المحك الذى يميز وقائع التاريخ عن أى وقائع أخرى خاصة بالماضى ؟ .

ما هى الواقعة التاريخية ؟ . هذه مسألة دقيقة ينبغى أن نبحثها بعناية . ووفقاً لنظرة البداهة ، هناك وقائع أساسية واحدة بالنسبة لجميع المؤرخين. وهى تكون — كما يقال — العمود الفقارى للتاريخ . على سبيل المثال الواقعة الخاصة بأن معركة هاستنج Hastings قد حدثت سنة ١٠٦٦ ، ولكن هذه النظرة تدعو إلى ملاحظتين. فمن ناحية: إن المؤرخ لا يهتم — بصفة أولية — بوقائع مثل هذه . فمن المهم بغير شك أن يعرف أن المعركة العظيمة قد حدثت ١٠٦٦ ، وليست سنة ١٠٦٥ أو ١٠٦٧ ، وأنها قد حدثت فى هاستنج وليس فى Eastbourne أو Brighton . ومن الواجب ألا يخطىء المؤرخ فى مثل هذه الأشياء . ولكن عندما تثار هذه الملحوظات ، فإننى أتذكر ملاحظة لهوسمان Housman « بأن الدقة واجب ، لا فضيلة »(١) . وامتداح مؤرخ لدقته يماثل امتداح مهندس لاستخدامه فى مبناه أخشاب قد أعدت بعناية ، أو خرسانة قد أحسن خلطها . إنها شرط ضرورى

---

(١) «مانيلى» M.Manilli فى كتاب Liber Primus (الطبعة الثانية ١٩٣٧) ص ٨٧

لعمله ، ولكنها ليست مهمته الأساسية . ويخول للمؤرخ الاعتماد على ما يسمى « بالعلوم المساعدة للتاريخ » — الآثار وقراءة النقوش — وعلم النقود — والتقويم — لغايات من هذا النوع تماما . والمؤرخ ليس مطالبا بالإلمام بالمهارات المعينة التى تمكن المتخصص من تقرير أصل أى كسرة من إناء أو رخامة ، أو أن يحل رموز كتابات غامضة ، أو أن يقوم بعملية حسابية فلكية معقدة ضرورية لتحديد تاريخ معين بدقة . وتتبع هذه الأشياء المسماة بالوقائع الأساسية ، والتى تعد واحدة لدى جميع المؤرخين مجموعة المواد الأولية للمؤرخ أكثر من تبعيتها للتاريخ ذاته . والملحوظة الثانية هى عدم اعتماد ضرورة تقرير هذه الوقائع الأساسية على أى خصائص لهذه الوقائع ذاتها ، بل على قرار قبلى apriori من المؤرخ . وبالرغم من شعار « س . ب سكوت » بأن أى صحفى اليوم يعلم أن أفضل السبل للتأثير فى الرأى هو انتقاء الوقائع المناسبة وتنظيمها ، فقد جرت العادة على القول بأن الوقائع تتحدث عن نفسها . وهذا بالطبع غير صحيح ، فإن الوقائع تتكلم فقط عندما يدعوها المؤرخ لذلك . فهو الذى يقرر أى وقائع يعتمد عليها أساساً لعمله ، وبأى نظام . . أو سياق . لقد ذكرت إحدى شخصيات روايات « بيراندلو » Pirandello أن الواقعة مثل الجوالق — فهى غير قادرة على النهوض إلى أن تضع شيئاً ما بداخلها . والسبب الوحيد لاهتمامنا بمعرفة أن المعركة قد حدثت فى « هاستنج » Hastings سنة ١٠٦٦ هو أن المؤرخين يعدونها حادثة تاريخية عظمى . والمؤرخ هو الذى يقرر لأسبابه الخاصة أن عبور قيصر لهذه القناة الصغيرة « الروبيكون » هى واقعة للتاريخ ، بينما لا يثير عبور ملايين الناس « للروبيكون » قبل ذلك أو بعده اهتمام أحد ، وإن الواقعة الخاصة بوصولك إلى هذا البناء منذ نصف ساعة ماشياً أو راكباً دراجة أو فى سيارة لهى واقعة مماثلة لواقعة عبور قيصر « للروبيكون » ، ولكن من المحتمل أن يتجاهلها المؤرخون . وقد وصف الأستاذ « تالكوت بارسون Talcott Parsons » العلم بأنه « نسق انتقائى

من الواقع من أجل المعرفة (١) ، وربما كان بالإمكان التعبير عن ذلك تعبيراً أكثر بساطة . ولكن التاريخ يقوم بذلك إلى جانب أشياء أخرى . والمؤرخ بالضرورة انتقائى . والاعتقاد فى لب جامد من الوقائع التاريخية الموجودة وجوداً موضوعياً ومستقلا عن تفسير المؤرخ باطل ومناقض للعقل .وإن كان اعتقاداً من الصعب للغاية إزالته .

فلننظر إلى العملية التى يتم بمقتضاها تحويل أى واقعة ما من الماضى إلى واقعة للتاريخ. فى «ستالى بريدج ويكز» Staley Bridge Wakes سنة ١٨٥٠ ، قام جمهور غاضب بضرب أحد باعة الفطير نتيجة لمشاجرة صغيرة حتى مات ، هل تعد هذه الواقعة تاريخية ؟ منذ سنة كنت سأقول بلا تردد «لا» فقد سجلها شاهد عيان فى مذكرات معروفة معرفة هينة (٢) ، ولكننى لم أصادف أحداً من المؤرخين يعتقد أنها جديرة بالذكر . وقد ذكرها دكتور «كيتسون كلارك» Kitson Clark فى محاضرات «فورد» فى أكسفورد (٣) منذ سنة ، فهل أصبحت من أجل ذلك واقعة تاريخية ؟ . لا أظن أنها قد غدت ذلك بعد . إن موقفها الحالى كما أرى هو أنها قد رشحت لعضوية نادى الوقائع التاريخية المنتقاة ، وهى الآن بحاجة إلى مؤازرين وضامنين . وربما رأينا هذه الواقعة فى خلال السنوات القليلة القادمة ، وهى تظهر أولا فى الحواشى ، وبعد ذلك فى مقالات وكتب عن

---

(١) تالكوت بارسون T.Parson — شيلز E. Shils «نحو نظرية عامة للعمل (الطبعة الثالثة ١٩٥٤) ص ١٦٧

Towards A General Theory of Action.

(٢) لورد جورج سانجر George Sanger الطبعة الثانية (١٩٢٦) من كتاب Seventy Years ashowman سبعون سنة كعارض-صفحات ١٨٨-١٨٩

(٣) سوف تنشر فى القريب العاجل تحت عنوان :

The making of Victorian England تكون بريطانيا فى عصر فكتوريا

بريطانيا فى القرن التاسع عشر . وقد تصبح فى خلال عشرين أو ثلاثين سنة واقعة تاريخية مدعمة تدعيما تاماً . أما النتيجة البديلة لذلك فهى ألا يلتفت إليها أحد ، وفى هذه الحالة فإنها سترتد إلى مستودع حقائق الماضى غير التاريخية ، التى حاول دكتور « كيتسون كلارك » بشهامة أن ينقذها منه . فما الذى سوف يقرر أى الشيئين سيحدث؟ إن هذا سيعتمد فى ظنى على مدى قبول المؤرخين للموضوع ، أو التفسير الذى اعتمد فيه دكتور « كيتسون » على هذه الحادثة لتدعيمه ، بوصفها صحيحة وهامة . إن قيمتها بوصفها واقعة تاريخية تعتمد على مسألة التفسير . وهذا العنصر التفسيرى يدخل فى كل واقعة فى التاريخ .

هل يسمح لى بذكرى شخصية ؟ . عندما كنت أدرس التاريخ القديم فى هذه الجامعة منذ عدة سنوات مضت ، كان لدى موضوع خاص « اليونان فى عصر الحرب الفارسية » ، وقد جمعت فى مكتبتى خمسة عشر أو عشرين مجلداً . وسلمت بأن لدى فى هذه المجلدات جميع الوقائع المتصلة بموضوعى — فلنفترض — وكان هذا صحيحاً لدرجة كبيرة — أن هذه المجلدات تحتوى كافة الوقائع الخاصة بالموضوع ، التى كانت معروفة حينئذ ، أو التى كان بالإمكان معرفتها . ولم يحل بخاطرى أن أبحث نتيجة لأى شيء عرضى ، أو وفقاً لأى عملية من عمليات التآكل بقيت هذه النخبة الدقيقة من الوقائع من بين هذا الجمع الوافر من الوقائع ، التى كانت ولابد معروفة لبعض الناس لكى تصبح وقائع تاريخية . إننى أشك فى أن أحد أسباب سحر التاريخ القديم وتاريخ العصور الوسطى حتى الآن ، هو أنه يوهمنا بأن كل الوقائع متوافرة لدينا ، وأنها خاضعة لتوجيهنا ، ومعنى هذا هو اختفاء التفرقة التى تبعث على الضيق بين وقائع التاريخ ووقائع الماضى الأخرى ، لأن الوقائع القليلة المعروفة هى كل وقائع التاريخ . وقد قال « بيورى » الذى عمل فى كلا العصرين : « إن سجلات التاريخ القديم وتاريخ

العصور الوسطى موصومة بالنقص (١) . لقد وصف التاريخ بأنه منشار دائرى فيه كثير من الأجزاء الناقصـــة ، ولكن المتاعب الحقيقية لا تتوقف على الأجزاء الناقصة ، فإن الصورة التى لدينا عن اليونان فى القرن الخامس (ق . م) ليست ناقصة لأن أجزاء كثيرة منها قد فقدت عرضاً ، ولكن لأن الذين كوّنوا هذه الصورة هم بصفة عامة نخبة ضئيلة من الناس فى مدينة أثينا . فنحن نعرف الكثير عن الصورة التى بدت بها يونان القرن الخامس للمواطن الأثينى، ولكننا لا نكاد نعرف شيئا عن الصور التى بدت بها الإسبرطى أو الكورينثى أو الطيبى ، ولا نذكر الفارسى أو العبد أو أى شخص من غير المواطنين الذين يقطنون أثينا . لقد انتقيت لنا صورتنا انتقاء سابقاً وتقررت ، لا عرضاً ، بل بوساطة أناس كانوا مشبعين شعورياً أولا شعوريا بفكرة معينة ، وظنوا أن الوقائع المؤيدة لهذه الفكرة جديرة بالبقاء ، وبالمثل ، فإننى عندما أقرأ فى تاريخ حديث للقرون الوسطى أن الناس فى هذه القرون كانوا شديدى الاهتمام بالدين ، فإننى أعجب كيف عرفنا ذلك ،وهل هذا صحيح؟ إن ما نعرفه من وقائع تاريخ العصور الوسطى قد قام بانتقائه لنا كله تقريباً أجيال من الإخباريين ، الذين كانوا يحترفون الدين من الناحية النظرية والعملية . ومن ثم رأوا أن له أهمية بالغة ، وسجلوا كل شى متصل به ، ولم يسجلوا أى شىء آخر . لقد قضت ثورة سنة ١٩١٧ (الثورة الروسية) على صورة الفلاح الروسى بوصفه متديناً مخلصاً لعقيدته ، أما صورة الإنسان فى العصور الوسطى ، التى تمثله ديناً ورعا ، سواء أكان هذا صحيحاً أم باطلا ، فلا يمكن القضاء عليها ، لأن كل الوقائع تقريبا قد سبق انتقاؤها لنا بوساطة أناس قد آمنوا بها ، وأرادوا من الآخرين أن يعتقدوا بها كذلك . وقد فقدت

---

(١) بيورى « مقالات مختارة » ١٩٣٠ — ص ٥٢

J. B. Bury, Selected Essays.

طائفة من الوقائع الأخرى ، التى ربما كنا نعثر فيها على دليل ، يثبت عكس ذلك ، ولا أمل فى استعادتها. لقد قرر الموتى من الأجيال الزائلة من المؤرخين والنساخين والإخباريين شكل الماضى ، وأصبح من المستحيل إرجاعه . لقد كتب الأستاذ براكلاو « Barraclough » وهو من المتخصصين فى العصور الوسطى : «إن التاريخ الذى نقرأه ، وإن كان يعتمد على حقائق — إذا تكلمنا بدقة — ليس حقيقياً على الإطلاق ، بل هو سلسلة من الأحكام المقبولة(١)».

ولكن لننتقل إلى محنة المؤرخ الحديث المختلفة ، وإن كانت مساوية فى أهميتها . إن مؤرخ العصر القديم أو العصور الوسطى قد يسدى الشكر من أجل عملية الغربلة التى تمت عبر السنين ، ووضعت بين يديه طائفة من الوقائع التاريخية التى يمكن معالجتها . وكما قال « ليتون ستراتشى » Lytton Strachey بطريقته الخبيثة : «إن الجهل هو أول مطلب للمؤرخ — إنه الجهل الذى يبسط ويوضح ، الذى ينتقى ويحذف (٢) .» وعندما أشعر بإغراء ، كما يحدث أحياناً ، لأن أحسد زملائى المشتغلين بكتابة التاريخ القديم، أو تاريخ العصور الوسطى لبراعتهم ، فإن عزائى هو أن أتذكر أن براعتهم ترجع غالبا إلى جهلهم بموضوعهم. والمؤرخ الحديث لا يتمتع بأية مزية من هذا الجهل المدعم الراسخ ، فلذا يجب أن ينمى هذا الجهل الضرورى لنفسه، وكلما فعل ذلك، كلما اقترب من عصره . فأمامه المهمة المزدوجة ، وهى مهمة اكتشاف الوقائع القليلة الهامة ، وتحويلها إلى وقائع تاريخية ، واستبعاد الوقائع الكثيرة غير الهامة بوصفها غير تاريخية . ولكن هذا هو عكس فكرة القرن التاسع عشر

---

(١) B.Barraclough فى كتاب History in a Changing World
براكلاو « التاريخ فى عالم متغير » . ص ١٤ (١٩٥٥)

(٢) L.Stratchey فى كتاب Preface to Eminent Victorians ليتون ستراتشى « مقدمة لعظماء من عصر فكتوريا ».

الضالة القاضية بأن التاريخ يتكون من تجميع أقصى عـــدد من الوقائع الموضوعية التي لا تدحض . ويجب على أى انسان يخضع لهذه الفكرة الضالة إما أن يهجر التاريخ بوصفه عملا رديئاً ، وأن يقوم بجمع الطوابع أو أى نوع آخر من الآثار ، أو أن ينتهى إلى مستشفى المجاذيب . إن هذه الفكرة الضالة هى التى كانت ذات تأثير مهلك خلال المائة السنة الماضية على المؤرخين المحدثين ، فقد تمخضت فى ألمانيا وبريطانيا والولايات المتحدة عن جمع كبير متكاثر من التواريخ العقيمة المعتمدة على الوقائع من المونوجرافات الدقيقة المتخصصة للمؤرخين الأدعياء ، الذين كلما ازدادوا معرفة ازدادوا جهلا بالموضوع ، والذين غرقوا فى محيط الوقائع دون أن يتركوا أثراً . إن هذه الفكرة الضالة كما أشك — وليس الصراع المزعوم بين الولاء للأحرار والكاثوليك — هى التى أحبطت آمال أكتون بوصفه مؤرخاً ، فقال فى مقال مبكر عن أستاذه «دالينجر » Döllinger إنه لا يستطيع الكتابة اعتماداً على مادة تاريخية ناقصة ، وكان يرى المادة التاريخية دائماً ناقصة(١). وكان أكتون المؤرخ ، أعجوبة الدهر الذى يعده الكثيرون أبرز من شغل كرسى «رجيوس(٢)» فى التاريخ الحديث فى هذه الكلية . وإن كان لم يكتب تاريخا يردد حكماً متوقعاً عن نفسه . وقد كتب لنفسه لوحته التذكارية فى تمهيد للمجلد الأول من Cambridge modern History التاريخ الحديث الذى قامت بتأليفه

---

(١) اقتبست من كتاب جوش Gooch ص٣٨٥ « التاريخ والمؤرخون فى القرن التاسع عشر» History & Historians in the Nineteenth Century ولقد قال أكتون عن دالينجر « لقد كان عليه أن يؤلف فلسفة للتاريخ اعتماداً على أكبر قدر من الاستقراء الذى توافر لإنسان — فى كتاب (تاريخ الحرية ومقالات أخرى) History of Freedom & Other Essays

(٢) خصص الملك هنرى الثامن بعض الكراسى الجامعية فى جامعتى أكسفورد وكامبردج سميت بكراسى « رجيوس » ومضناها الملكى .

جامعة كمبردج ، والذى نشر بعد وفاته مباشرة ، وذلك عندما أعلن حزنه لأن المطالب الملحة المطلوبة من المؤرخ ، تهدد بأن تجعله يتحول من أديب إلى جامع موسوعة».(١) ونرى هنا أن شيئا خاطئا قد حدث. والشيء الخاطىء الذى حدث هو الاعتقاد بأن أساس التاريخ هو التكديس المتواصل الذى لا ينتهى للوقائع الجامدة ، والاعتقاد بأن الوقائع تتحدث عن نفسها ، وأننا لا نستطيع أن نحصل على وقائع تزيد عن الحاجة .. وهو اعتقاد كان غير قابل للمناقشة فى ذلك الوقت ، حتى ظن قليل من المؤرخين حينئذ أنه من الضرورى — ومازال البعض فى الوقت الحالى يظنون أنه ليس من الضرورى — أن يسألوا أنفسهم هذا السؤال : ما هو التاريخ ؟ .

لقد أتمت عبادة القرن التاسع عشر السحرية للوقائع عبادته للوثائق ودفاعه عنها . كانت الوثائق تابوت العهد فى معبد الوقائع . وكان المؤرخ الموقر يقترب منها ، وهو يحنى رأسه ويتكلم عنها فى صوت يدل على الخشوع والرهبة . . فالشيء صحيح ما دمت قد عثرت عليه فى الوثائق ، ولكن ما الذى تذكره لنا هذه الوثائق — القوانين والمعاهدات والقوائم والكتب الزرقاء والمراسلات الرسمية ، والخطابات الشخصية واليوميات — عندما تقع بين أيدينا ؟ لا تستطيع الوثيقة أن تذكر لنا شيئاً أكثر مما اعتقده مؤلف الوثيقة — أى ما اعتقد أنه حدث وما اعتقد أنه ينبغى أن يحدث أو قد يحدث . . أو ربما فقط ما أراد أن يعتقد الناس أنه اعتقده ، أو الذى اعتقد أنه اعتقده فقط . ولا يعنى أى شيء من كل هذا شيئا ، حتى يبدأ المؤرخ فى عمله ، ويحاول حل رموز الوثيقة. إن الوقائع سواء أكانت موجودة فى وثائق أم لا ، يجب أن يرتبها المؤرخ

---

(١) تاريخ كامبردج الحديث Cambridge Modern History ١٩٠٢ ص ٤

فى سياق قبل أن يستفيد منها . والفائدة التى يجنيها منها ، هى إذا أمكننى القول ، هى عملية الترتيب السياقى .

ولأحاول أن أصور ما أود قوله فى مثال ، تصادف أننى أعرفه معرفة جيدة : عندما مات جوستاف شترسمان Stressmann وزير خارجية جمهورية « فيمار » سنة ١٩٢٩ ، ترك وراءه مجموعة كبيرة من الصناديق (ثلاثمائة صندوق) ممتلئة بالأوراق الرسمية والشبيهة بالرسمية والخاصة ، وكلها تقريباً خاص بالسنوات الست التى شغل فيها وزارة الخارجية . وقد رأى بالطبع أصدقاؤه وأقاربه أنه ينبغى القيام بعمل لتخليد ذكرى رجل عظيم مثله . وبدأ سكرتيره الأمين برنهارت Bernhart فى العمل ، وبعد ثلاث سنوات ظهرت ثلاثة أجزاء كبيرة ، كل منها فى ٦٠٠ صفحة ، تتضمن وثائق منتقاة من الصناديق الثلاثمائة ، وعليها العنوان الجذاب « تركة شترسمان » وقد كان من المستطاع وفقاً لما جرت عليه العادة أن تبلى الوثائق وتتحول إلى رماد فى أحد الأقبية ، وأن تختفى إلى الأبد ، أو ربما يصادفها بعد مائة سنة أو ما يقارب ذلك باحث محب للاستطلاع ويشرع فى مقارنتها برواية « برنهارت » . وما حدث كان أكثر إثارة ، فقد وقعت الوثائق سنة ١٩٤٥ فى يد الحكومتين البريطانية والأمريكية اللتين قامتا بتصويرها ، ووضعتا الصور فى أيدى الباحثين فى إدارة الوثائق العامة فى لندن وفى المحفوظات القومية فى واشنجطن . وإذا توافر لدينا الصبر وحب الاستطلاع أمكننا أن نكتشف تماما ما قام به برنهارت ، وماقام به لم يكن شيئاً مذهلا أو غير مألوف . فعندما مات «شترسمان» بدت سياسته الغربية ، وقد توجت بسلسلة من التوفيقات اللامعة : معاهدة لوكارنو ، السماح لألمانيا بدخول عصبة الأمم ، مشروع داوز Dawes ويونج ، والقروض الأمريكية ، وانسحاب قوات الحلفاء المحتلة من منطقة الراين . وبدا أن هذا هو الجانب الهام المثمر فى سياسة شترسمان الخارجية ، ولم يكن من غير الطبيعى أن يكون ممثلا — إلى درجة كبيرة — فى المختارات التى انتقاها

برنهارت من الوثائق . ومن ناحية أخرى بدت سياسة شترسمان الشرقية وعلاقته بالاتحاد السوفيتي ، وكأنها لم تؤد إلى نتيجة بصفة خاصة . وبالنظر إلى أن مجموعات الوثائق الخاصة بالمحادثات التي لم تؤد إلا إلى نتائج تافهة ، غير مثيرة للاهتمام ، ولا تضيف إلى سمعته شيئاً ، فإن عملية الانتقاء قد بدت أكثر تزمتا . والواقع أن شترسمان قد اهتم اهتماما متواصلا بالعلاقات مع الاتحاد السوفيتي وعني بها ، وقد لعبت هذه العلاقات في سياسته الخارجية بصفة عامة دوراً أكبر بكثير مما قد يظن قارىء مختارات برنهارت . ولكني أميل إلى الاعتقاد بأن مجلدات برنهارت يمكن أن تقارن بكثير من مجموعات الوثائق التي نشرت ، والتي يعتمد عليها المؤرخ العادي اعتماداً بيناً ، مقارنة ترفع من شأنها .

وليست هذه نهاية قصتي . فبعد نشر مجلدات برنهارت بفترة قصيرة ، أصبحت السلطة في يد هتلر ، واختفى اسم « شترسمان » في زوايا النسيان في ألمانيا ، واختفت المجلدات من السوق . ولابد أن الكثير من النسخ وربما أغلبها قد تم إعدامه ، واليوم غدا كتاب تركه شترسمان كتابا نادراً ، ولكن لشترسمان في الغرب شهرة عظيمة . ففي سنة ١٩٣٥ حصل ناشر إنجليزي على ترجمة مختصرة من مختارات برنهارت ، عبارة عن مختارات من مختارات برنهارت من الأصل ، ربما حذف منها ثلث ماجاء في الأصل . وقام « ساتون » Sutton ، وهو مترجم معروف تماماً بترجمته من اللغة الألمانية بواجبه خير قيام . وأوضح في المقدمة أن الترجمة الإنجليزية مختصرة اختصاراً ضئيلا ، وذلك بعد حذف ما شعر بأنه أمور عابرة ذات أهمية ضئيلة للقراء أو الباحثين الإنجليز .(١)

---

(١) G. Stressmann, His Diaries, Letters· & Papers· مذكرات جوستاف شترسمان — خطاباته وأوراقه — الجزء الأول سنة ١٩٣٥ — أنظر ملحوظة المؤلف .

وهذا كذلك أمر طبيعى للغاية . ولكن النتيجة هى أن سياسة شترسمان الشرقية التى لم تعرض عرضاً وافياً فى كتاب « برنهارت » قد غابت عن الأنظار إلى حد أكبر ، وبدا الاتحاد السوفيتى فى مجلدات « ساتون » مجرد شىء دخيل عرضى غير مستحب فى سياسة شترسمان الغالب عليها الاهتمام بالغرب . ولكن من الممكن القول بكل اطمئنان للجميع ، إلا بعض المتخصصين ، إن الذى يمثل الصوت الحقيق « لشترسمان » عند العالم الغربى هو « ساتون » وليس « برنهارت » . وأما الوثائق فإنها أقل تمثيلا للصوت الحقيق لشترسمان عند العالم الغربى. ولو أن الوثائق تلاشت سنة ١٩٤٥ أثناء إلقاء القنابل ، واختفت مجلدات « برنهارت» الباقية ، ما استطاع أحد أن ينازع « ساتون » فى صحته ، وفى الثقة بروايته ، إن كثيراً من مجموعات الوثائق التى يتقبلها المؤرخون بالثناء بسبب الافتقار إلى الأصول لا تعتمد على أسس أسلم من هذا الأساس .

ولكننى أود أن أنقل القصة خطوة أخرى إلى الأمام . فلنحاول أن ننسى « برنهارت » و « ساتون » وأن نكون شاكرين، لأننا قادرون، إذا أردنا، أن نرجع إلى الأوراق الحقيقية لشخصية رئيسية ، شاركت فى بعض الأحداث الهامة للتاريخ الأوربى الحديث ، فما هو الذى تذكره لنا الأوراق؟ إنها تحتوى ـ من بين أشياء كثيرة ـ على مستندات لما يقرب من مائة محادثة « لشترسمان » مع السفير السوفيتى فى برلين ، وعشرين أو نحو ذلك مع شيشرين « Chicherin ولهذه المستندات سمة واحدة مشتركة . . إنها تصور شترسمان ، وكأن له نصيب الأسد فى المحادثات ، وتبين حججه على الدوام محكمة مفحمة ، بينما تبدو حجج محادثه فى أغلب أجزائها شحيحة ومضطربة وغير مقنعة . إن هذه سمة مألوفة لجميع مستندات المحادثات الدبلوماسية . فالوثائق لا تخبرنا بما حدث ولكنها تخبرنا فقط عن: ما الذى ظن شترسمان أنه حدث ؟ أو ما الذى أراد أن يظنه الآخرون ؟ أو ربما ما الذى أراد هو

نفسه أن يظن أنه حدث ؟ إن الذى بدأ عملية الانتقاء ليس « ساتون » أو برنهارت ، « بل » شترسمان » نفسه . ولو تيسرت لدينا فعلا سجلات « شيشرين » لهذه المحادثات نفسها ، لأمكننا أن نعرف ما الذى ظنه « شيشرين » ؟ والذى حدث فعلا كان لابد أن يعاد بناؤه فى ذهن المؤرخ . إن الوقائع والوثائق ضرورية بالطبع للمؤرخ ، ولكن لا تجعل لها قيمة سحرية ، لأنها وحدها لا تكون تاريخاً ، إنها فى ذاتها لا تأتى بإجابة معدّة لهذا السؤال الشاق ، ما هو التاريخ ؟ .

فى هذه النقطة أود أن أقول بضع كلمات عن السؤال : لماذا لم يبال مؤرخو القرن التاسع عشر بصفة عامة بفلسفة التاريخ ؟ إن الكلمة من اختراع « فولتير » واستخدمت منذ ذلك الوقت بمعان مختلفة ، ولكننى سأستعملها ، إذا كنت أنوى ذلك ، إجابة لنا عن السؤال ما هو التاريخ ؟ . كان القرن التاسع عشر فى نظر النابهين من أوربا الغربية عصراً مطمئناً يفيض ثقة وتفاؤلا . كانت الوقائع بصفة عامة باعثة على الرضا ، وكان الميل لتوجيه أسئلة محرجة عنها ، والإجابة عليها تبعاً لذلك ضعيفاً . واعتقد « رانكه » بورع ، أن العناية الإلهية المقدسة سوف تعنى بمعنى التاريخ ، إذا عنى هو بالوقائع . ولاحظ « بوركهارت » Burckhardt بلمسة استخفافية حديثة « أنه غير مباح لنا معرفة غايات العناية الإلهية » . ولاحظ الأستاذ « بترفيلد » فى سنة ١٩٣١ فقط ، بارتياح وأضح أن « المؤرخين قد تأملوا قليلا طبيعة الأشياء ، وكذلك طبيعة موضوعهم(١) » ولكن الدكتور Rowse « راوز » ، الذى سبقنى فى هذه المحاضرات ، وهو أكثر إنصافاً فى نقده ؛ قد كتب عن كتاب سير ونستون تشرشل « الأزمة العالمية » «World Crisis»

---

(١) بترفيلد « تفسير الأحرار الهويج للتاريخ » (١٩٣١) ص ٦٧

The Whig Interpretation of History — H. Butterfield

وهو كتابه عن الحرب العالمية الأولى — أنه بينما يفوق كتاب تروتسكى «تاريخ الثورة الروسية» فى الشخصية والوضوح والحيوية ، فإنه كان أقل منه فى خاصية واحدة ، فلم يكن لديه أى فلسفة للتاريخ (١). لقد رفض المؤرخون البريطانيون الانسياق لا لأنهم كانوا يعتقدون أن التاريخ ليس له معنى بل لأنهم يعتقدون أن معناه مضمر أو بيِّن فى ذاته . وقد كان لنظرة القرن التاسع عشر الحرة فى التاريخ صلة وثيقة بالفكرة الاقتصادية الداعية إلى الاقتصاد الحر Laissez faire — وهى كذلك نتيجة لنظرة صادقة واثقة إلى العالم . فليقم كل إنسان بواجبه المعين ، وستتولى العناية الإلهية أمر التوافق العالمى . ووقائع التاريخ نفسها كانت برهاناً للحقيقة العليا الخاصة بالخير والتقدم اللانهائى الواضح نحو أشياء أعظم . كان هذا هو عصر البراءة ، وقد سار المؤرخون فى جنة عدن بغير أن تسترهم أية قصاصة فلسفية عرايا وبلا خجل أمام إله التاريخ . ومنذ ذلك الوقت عرفنا الخطيئة وقاسينا السقوط ، وأولئك المؤرخون الذين يدعون اليوم الاستغناء عن فلسفة التاريخ يحاولون عبثاً إعادة جنة عدن كما يفعل أعضاء مستعمرة للعرايا فى حدائق الضواحى . ولم يعد ممكناً اليوم تجنب هذا السؤال المحرج .

فى خلال الأعوام الخمسين الماضية أجريت بحوث كثيرة جدية ، حول مسألة ما هو التاريخ ؟ ومن ألمانيا ، الدولة التى قامت بالكثير من أجل إزعاج السيادة المطمئنة للمذهب الحر فى القرن التاسع عشر ، جاء التحدى الأول فى الثمانينات والتسعينات لفكرة أفضلية وقائع التاريخ واستقلالها . والفلاسفة الذين قاموا بالتحدى ليسوا اليوم سوى أكثر قليلا من مجرد أسماء . والوحيد منهم الذى لقى حديثاً — بعض الاعتراف المتأخر ببريطانيا — هو

---

(١) راوز A.L.Rowse فى كتاب نهاية عصر The End of an Epoch (١٩٤٧) صفحات ٢٨٢ — ٢٨٣

« دلتاى » Dilthey . وقبل نهاية القرن الماضى كان الرخاء والثقة مازالا عظيمين فى بريطانيا ، فحال ذلك دون توجيه أية عناية إلى المارقين الذين هاجموا الوقائع المقدسة ، ولكن فى بداية القرن الجديد انتقلت الشعلة إلى إيطاليا حيث بدأ « كروتشه » Croce يقدم فلسفة التاريخ . . كانت بكل وضوح مدينة بالكثير للأساتذة الألمان . وقد ذكر « كروتشه » « أن كل التاريخ تاريخ معاصر »(١) ، وكان يعنى بذلك أن التاريخ يتكون من رؤية الماضى من خلال عيون الحاضر وعلى ضوء مشاكله ، وأن الواجب الأساسى للمؤرخ ليس التسجيل بل التقويم . فإذا لم يقوم المؤرخ ، فكيف يتسنى له معرفة ما يستحق التسجيل ؟ وفى سنة ١٩١٠ ذكر المؤرخ الأمريكى كارل بيكر Carl Becker فى لهجة استفزازية متعمدة ، أن « وقائع التاريخ ليست أمام أى مؤرخ ، إلى أن يخلقها (٢) » . ولم تصادف هذه التحديات إلا عناية ضئيلة فى ذلك الوقت . فلم يلق « كروتشه » شيوعا ملحوظاً فى فرنسا وإنجلترا إلا بعد سنة ١٩٢٠ فقط . وربما لم يكن هذا لأن كروتشه أكثر ذكاء ، أو أن أسلوبه كان أفضل ممن سبقوه من الألمان ، ولكن لأن الوقائع بعد الحرب العالمية الأولى بدت وكأنها تبتسم لنا أقل مما كانت فى السنوات السابقة لسنة ١٩١٤ ، ولذا أصبحنا أكثر ترحيباً بفلسفة تسعى للإقلال من هيبتها ، وكان « لكروتشه » تأثير هام على فيلسوف ومؤرخ أكسفورد « كولنجوود » : Collingwood : » ، وهو المفكر البريطانى الوحيد فى

---

(١) إن السياق الذى ظهرت فيه هذه العبارة الشهيرة هو كما يلى « إن المطالب العملية الكامنة وراء كل حكم تاريخى تجعل للتاريخ سمة (التاريخ المعاصر) فمهما بدا بعد الأحداث عند القيام بحسابها فى الزمن فإن التاريخ فى الواقع يرجع إلى حاجات الحاضر والمواقف الحاضرة التى دارت فيها هذه الأحداث (الترجمة الإنجليزية ١٩٤٨ لكتاب كروتشه « التاريخ بوصفه قصة الحرية »

History As The Story of Liberty.

(٢) مجلة الأتلانتيك الشهرية Atlantic أكتوبر ١٩١٠ ص ٥٢٨

القرن الحالى الذى أسهم مساهمة فعالة فى فلسفة التاريخ. إنه لم يعش ليكتب البحث النسقى الذى وضع تصميمه ، ولكن أوراقه التى نشرت ، والتى لم تنشر فى هذا الموضوع قد جمعت بعد وفاته فى كتاب يدعى « فكرة التاريخ» The Idea of History ظهر سنة ١٩٤٥ (١) .

ويمكن تلخيص آراء كولنجوود على الوجه الآتى : إن فلسفة التاريخ لا تعنى « بالماضى فى ذاته » أو « بفكر المؤرخ عنه فى ذاته » ولكنها تعنى بالشيئين فى صلتهما المتبادلة — (إن هذه العبارة تعكس المعنيين الشائعين لكلمة « تاريخ » — البحث الذى يقوم به المؤرخ وسلسلة أحداث الماضى التى يبحث فيها) ، «إن الماضى الذى يدرسه المؤرخ ليس ماضياً ميتاً ، بل هو ماض بمعنى ما ما زال يحيا فى الحاضر» ، ولكن أى فعل ماض «ميت» ، أى أنه لا يعنى شيئاً للمؤرخ حتى يتسنى له فهم الفكر الكامن وراءه . . ومن ثم « فإن كل التاريخ تاريخ فكر» ، والتاريخ هو إعادة تمثل re - enactment فى عقل المؤرخ لفكر التاريخ الذى يقوم بدراسته» . إن إعادة بناء الماضى فى ذهن المؤرخ تعتمد على البينة التجريبية evidence . ولكنها ليست فى ذاتها عملية تجريبية . ولا يمكن أن تتكون من مجرد استعادة للوقائع . والأمر على العكس فإن عملية إعادة البناء تتحكم فى انتقاء الوقائع وتفسيرها . وهذا بحق هو الذى يجعلها وقائع تاريخية . ويقول الأستاذ « أوكيشوت » Oakeshott » الذى يقف قريباً من كولنجوود فى هذه النقطة « التاريخ هو تجربة المؤرخ ، فلا أحد يصنعه خلاف المؤرخ . إن كتابة التاريخ هى الطريقة الوحيدة لإنشائه (٢)» .

---

(١) ظهر هذا الكتاب فى مشروع الترجمة والألف كتاب .

(٢) أوكيشوت فى كتاب التجربة وأحوالها ص ٩٩ سنة ١٩٣٣ .

Experience & its Modes

إن هذا النقد الاستقصائى ، وإن كان قد يستوجب بعض التحفظات الهامة ، يلقى ضوءا على بعض الحقائق المنسية .

فمن ناحية : إن وقائع التاريخ لا تأتى لنا أبداً « خالصة» لأنها لا توجد ، ولا يمكن أن توجد فى صورة خالصة . إنها دائماً منعكسة فى عقل من قام بتسجيلها . ويتبع ذلك أننا عندما ننظر إلى أى عمل من أعمال التاريخ ، فإن أول ما يهمنا يجب ألا ينصب على الوقائع التى تحتويه ، بل على المؤرخ الذى قام بكتابته . فلأذكر مثلا المؤرخ العظيم الذى تتشرف هذه المحاضرات بالانتساب إليه . إن « ترفليان » Trevelyan كما يذكر لنا فى ترجمته الذاتية قد نشأ فى بيت يتبع بعض التطرف تقاليد حزب الأحرار القديم (الهويج) « Whig » (١) ولا أظنه يرفض، كما آمل، الوصف ، إذا وصفته بأنه آخر المؤرخين الكبار الأحرار البريطانيين الذين يتبعون تقاليد حزب الأحرار ، وليس أقلهم . وهل لم يتتبع عبثاً شجرة عائلته من المؤرخ الحر العظيم George Otto Trevelyan إلى ماكولى Macaulay الذى يعد أعظم المؤرخين الأحرار الهويج غير مدافع . لقد كتب أفضل كتب دكتور « ترفليان » وأعظمها « إنجلترا فى ظل حكم الملكة آن » England Under Queen Ann وفقا لهذه النشأة وسيفهمه القارىء فهماً كاملا، ويعرف أهميته إذا قرأه بعد علمه بهذه النشأة . والحق أن المؤلف لم يترك للقارىء عذراً للإخفاق فى القيام بذلك . فأنت إذا اتبعت فن خبراء القصص البوليسية ، وقرأت النهاية فى البداية . فإنك ستصادف فى الصفحات القليلة الأخيرة من المجلد الثالث أفضل تلخيص معروف لى عما يسمى فى يومنا هذا بتفسير الأحرار (الهويج) للتاريخ . . وسترى أن ما يحاول « ترفليان »

---

(١) ترفليان — ترجمة ذاتية سنة ١٩٤٩ ص ١١
Trevelyan — an Autobiography

أن يفعله هو البحث عن أصل تقليد الأحرار (الهويج) وتطوره ، وهو يتتبع جذوره بإنصاف وعدل فى السنوات التى أعقبت موت منشئه « وليم الثالث » ، وهذا التفسير وإن لم يكن التفسير الأوحد الذى يمكن تصوره لأحداث حكم الملكة آن ، فإنه قد أصبح على يد «ترفليان» تفسيراً صحيحاً ومثمراً . ولكن لكى تقدره تقديراً كاملا عليك أن تفهم ما الذى يقوم به المؤرخ . فإذا كان من الواجب على المؤرخ كما يقول « كولنجوود » أن يعيد تمثل الفكر الذى جرى فى ذهن شخصياته التاريخية، Dramatis Personae فكذلك يجب على القارىء بدوره أن يعيد تمثل ما جرى فى ذهن المؤرخ ، فعليك بدراسة المؤرخ قبل أن تشرع فى دراسة الوقائع . إن هذا قبل كل شىء ليس بالشىء المستغلق . إن ما يقوم به طالب الجامعة الذكى ، إذا نصح بقراءة مؤلف للعلامة العظيم « جونز» Jones من أساتذة سان جود St Judes ، هو أن يذهب إلى صديق فى « سان جود » ويسأله عن «جونز» ونواحى شذوذه . فمن الواجب عليك عند قراءة مؤلف فى التاريخ أن تصغى جيداً لهذه الناحية ، فإذا لم تقدر على اكتشاف شىء ، فإما أنك عاجز عن تمييز الأنغام، أو أن مؤرخك غبى عمل . والوقائع فى الحقيقة ليست على الإطلاق مثل السمك فى إناء بائعه . إنها مثل السمك السابح فى محيط فسيح الأرجاء ، لا يسهل الوصول إليه فى بعض الأحيان . ويتوقف ما يصطاده المؤرخ ، من ناحية ، على المصادر، ولكنه يتوقف بصفة رئيسية على المكان الذى اختاره للصيد فى المحيط ، وعلى أدوات الصيد التى يزمع استخدامها . ويقرر هذان العاملان ـ بالطبع ـ نوع السمك الذى يود أن يصطاده وعلى العموم فإن المؤرخ سوف يحصل على نوع الوقائع التى يريدها . والتاريخ يعنى التفسير . وإننى محق إذا عكست تعريف سير جورج كلارك ، ودعوت التاريخ « بلب جامد من التفسير يحيط لباباً من الوقائع المتنازع عليها » فإن عبارتى سوف تكون بغير شك من جانب واحد ومضللة، ولكنها لن تكون أكثر تضليلا ، كما أجسر على القول ، من العبارة الأصلية .

النقطة الثانية هى النقطة المألوفة عن حاجة المؤرخ إلى الفهم التخيلى لعقول الناس الذين يتعامل معهم ، أو الفكر الكامن من وراء أفعالهم ، وإننى أقول « الفهم التخيلى » ، وليس « التعاطفى » حتى لا يفترض أن التعاطف يتضمن الاتفاق . لقد كان القرن التاسع عشر ضعيفاً فى تاريخ القرون الوسطى . لأنه كان ينفر من المعتقدات الخرافية للقرون الوسطى ، ومن الأحوال الهمجية التى ألهمتها ، فحال ذلك دون الفهم التخيلى لشعوب القرون الوسطى . أو تأمل الملاحظة التهكمية ، « لبوركار »عن حرب الثلاثين عاما : « ، إنها لشىء فاضح بوصفها عقيدة ، بغض النظر هل هى بروتستنتية أو كاثوليكية ، أن تجعل فكرتها عن الخلاص فوق تماسك الأمة » (١) لقد كان من العسير للغاية لمؤرخ حر من القرن التاسع عشر ، نشأ يعتقد أنه من الصواب ، ومما يستحق الثناء أن يقتل فى سبيل الدفاع عن بلده ، ولكن من الشر ومن الخبل أن يقتل فى سبيل الدفاع عن دينه ، النفاذ إلى الموقف العقلى لأولئك الذين حاربوا فى حرب الثلاثين عاما . إن هذه الصعوبة عسيرة بصفة خاصة فى المجال الذى أعمل فيه الآن. فإن الكثير مما كتب فى البلاد الناطقة بالإنجليزية عن الاتحاد السوفيتى ومما كتب فى الاتحاد السوفيتى عن البلاد الناطقة بالإنجليزية قد تلوث بهذا العجز عن تحقيق أقل قدر ممكن من الفهم التخيلى لما يجرى فى عقول الطرف الآخر ، حتى إن أعمال الآخرين وأفعالهم تبدو دائماً خبيثة وبلا معنى أو منافقة . والتاريخ لا يمكن أن يكتب إلا إذا تسنى للمؤرخ أن يحقق نوعاً من الاتصال بذهن أولئك الذين يكتب عنهم .

النقطة الثالثة هى أننا نستطيع أن نرى الماضى وأن نحقق فهمنا له عن طريق عيون الحاضر فقط . إن المؤرخ يتبع عصره ،وهو مرتبط به بواسطة ظروف الوجود الإنسانى ، فإن للكلمات التى يستخدمها — مثل ديمقراطية

---

(١) بوركهارت J.Burkhardt أحكام عن التاريخ والمؤرخين (١٩٥٩) ص ١٧٩ Judgments on History & Historians.

وإمبراطورية وحرب وثورة — مفاهيم شائعة لا يستطيع أن يتخلص منها. لقد اعتاد المؤرخون القدامى أن يستخدموا الكلمات كما كانت مستعملة فى الأصل مثل « polis » (١) « plebis » لكى يظهروا أنهم لم يقعوا فى هذا الفخ . ولكن هذا كان بغير طائل ، لأنهم كذلك كانوا يعيشون فى الحاضر، ولا يستطيعون أن يخدعوا أنفسهم بأنهم فى الماضى باستخدام كلمات غير مألوفة أو بطل استعمالها ، كما أنهم بالمثل لن يصبحوا مؤرخين أفضل لليونان أو الرومان ، إذا قاموا بإلقاء محاضراتهم ، وهم يرتدون الكلاميس chlamys أو التوجا .

إن الأسماء التى استخدمها المؤرخون الفرنسيون المتعاقبون فى وصف الجموع الباريسية التى لعبت دوراً بارزاً فى الثورة الفرنسية. مثل sans culottes « اللامسرواليين » أو الدهماء Le Peuple « النصابون la canaille « أو » Les bras nus » ذوى الأذرع العارية — هى بالنسبة لمن يعرفون أصول اللعبة نشرات دالة على الانحياز السياسى ، وتبين تفسيراً معيناً إلا أن المؤرخ مرغم على الاختيار . واستخدام اللغة يحول دون أن يكون محايداً ، والمسألة ليست كذلك مسألة كلمات فحسب. فقد عكس تغير توازن القوى والاتجاه فى أوربا فى المائة سنة الماضية موقف المؤرخين البريطانيين من فردريك الأكبر ، كما أن تغير توازن القوى فى الكنائس المسيحية بين الكاثوليكية والبروتستانتية قد غير من موقفهما من شخصيات مثل « لويولا » Loyola ، ولوثر و « كرمويل » تغيراً عميقاً . ومن يعرف مؤلفات المؤرخين الفرنسيين فى الأربعين سنة الماضية ولو معرفة سطحية ، يستطيع أن يدرك كيف أثرت الثورة الروسية

---

(١) الكلاميس رداء يونانى قديم والتوجا ثوب خارجى فضفاض كان يرتديه المواطن الرومانى — Polis المدينة عند اليونانيين — Plebis مأخوذة عن Plépés بمعنى الشعب .

سنة ١٩١٧ فى كتاباتهم عن الثورة الفرنسية ؛ فالمؤرخ لا يتبع الماضى ، بل الحاضر . لقد ذكر لنا الأستاذ « تريفور روبر » Trevor Roper ، أنه ينبغى على المؤرخ أن يحب الماضى » (١) ، وهذه نصيحة مشكوك فيها . إن حب الماضى قد يكون بكل بساطة تعبيراً عن الرمانتيكية المنبعثة من التعلق بالوطن عند العجزة والمجتمعات القديمة . إنها عرض من أعراض فقد الإيمان وعدم الاهتمام بالحاضر أو المستقبل (٢). وإذا أردنا أن نستبدل هذه النصيحة بنصيحة أخرى cliché for cliché ، فإننى أفضل القول بضرورة التحرر من « اليد الميتة للماضى». إن مهمة المؤرخ ليست أن يعشق الماضى أو أن يتحرر منه، بل أن يلم به ويفهمه باعتباره مفتاحاً لفهم الحاضر .

إن كانت هذه هى بعض النواحى النفاذة لما أستطيع أن أسميه نظرة كولنجوود إلى التاريخ ، فإن الوقت قد حان للنظر ، فى بعض أخطارها . إن تأكيد دور المؤرخ فى صنع التاريخ يؤدى — فى حالة دفعه إلى نهايته المنطقية — إلى استبعاد أى تاريخ موضوعى على الإطلاق . إن التاريخ هو ما يصنعه المؤرخ، ويبدو أن كولنجوود بحق فى إحدى اللحظات قد انتهى فى ملحوظة لم تنشر قام باقتباسها مصنف الكتاب إلى هذه النتيجة فيقول :

« ان القديس أغسطين قد نظر إلى التاريخ من وجهة نظر المسيحيين الأوائل , ونظر «تيلامون» Tillamont من وجهة نظر فرنسي القرن السابع عشر ، وجيبون من وجهة نظر إنجليزى القرن الثامن عشر ، و « مومسن »

---

(١) مقدمة كتاب بوركهارت Burekhardt أحكام عن التاريخ والمؤرخين سنة ١٩٥٩ — ص ١٧

(٢) قارن رأى نيتشه فى التاريخ — إن ما يقوم به العواجيز من نظر إلى ما وراءهم وتقدير لحساب ما فات بحثاً عن عزاء فى ذكريات الماضى فى الحضارة التاريخية لعلامة من علامات التقدم فى السن (أفكار فى غير أوانها ص ٦٥ و ٦٦ الترجمة الإنجليزية) .

من وجهة نظر ألماني القرن التاسع عشر ، فلا مجال للسؤال أية وجهة نظر هي الصحيحة ؟ فكل وجهة نظر كانت هي الممكنة بالنسبة للرجل الذى اتبعها (١) » .

إن هذا يعادل الشك الكامل ، ويماثل ملاحظة « فرود » Froude إن التاريخ « يشبه صندوق الحروف الهجائية للأطفال الذى نستطيع بواسطته أن نتهجى أى كلمة نريدها »(٢) . لقد اقترب كولنجوود فى رد فعله ضد تاريخ « القص واللصق » « Scissors & Paste » ، أى التاريخ الذى هو مجرد تجميع للوقائع من خطر النظر إلى التاريخ بوصفه شيئاً من نسج الخيال الإنسانى ، وأدى به ذلك إلى النتيجة التى أشار لها سير جورج كلارك ، فى الفقرة التى سبق لى اقتباسها ، الخاصـــة بأنه لا وجود لحقيقة تاريخية « موضوعية » ، فقد قدمت لنا بدلا من نظرية أن التاريخ بلا معنى ، نظرية خاصة بمعان لا نهائية ، ليس بينها واحدة أصوب من الأخرى — وهذا يؤدى إلى نفس الشيء . إن النظرية الثانية لا يمكن الأخذ بها بالتأكيد مثل الأولى . فلا يتبع القول بأنه ما دام الجبل يظهر فى أشكال مختلفة من مختلف زوايا البصر ، أنه من الناحية الموضوعية لا شكل له على الإطلاق ، أو أن له عدداً لا نهائياً من الأشكال ، ولا يتبع القول أنه ما دام التفسير يلعب دوراً جوهرياً فى تقرير وقائع التاريخ ، وأنه لا وجود لتفسير موضوعى تماما ، أن أى تفسير يصلح مثل باقى التفسيرات ، وأن وقائع التاريخ هى من حيث المبدأ غير صالحة للتفسير الموضوعى . وفى مرحلة قادمة سوف أنظر ما الذى يعنى تماماً بالموضوعية فى التاريخ .

---

(١) كولنجوود Collingwood فى كتاب فكرة التاريخ : TheIdea of Hitory (١٩٤٦) — ص xii

(٢) « فرود » Froude — دراسة قصيرة لموضوعات عظمى ص ٢١ سنة ١٨٩٤

Short Studies on Great Subjects.

ولكن مازال هناك خطر آخر أعظم شأناً ، يكمن وراء فرض كولنجوود. فإذا كان المؤرخ ينظر بالضرورة إلى عصره التاريخى من خلال عيون زمانه ، ويدرس مشكلات الماضى باعتبارها مفتاحاً لمشكلات الحاضر . ألا يؤدى به هـــذا إلى الزلل إلى نظرة براجماتيقية إلى الوقائع ، وإلى الإصرار على أن محك التفسير الصحيح هو ملاءمته لبعض الغايات الحاضرة ؟ ووفقاً لهذا الغرض تصبح وقائع التاريخ لا شيء ، والتفسير هو كل شيء ، وقد عبر « نيتشه » فعلا عن هـذا المبدأ بقوله: «إن بطلان أى رأى لا يعد بالنسبة لنا اعتراضاً عليه . فالمسألة هى إلى أى حد يؤدى إلى النهوض بالحياة ، والمحافظة عليها ، وعلى الأنواع ، وربما خلق أنواع جديدة (١) » . ويتبع البراجماتيقيون الأمريكيون نفس الاتجــــاه بأقل صراحة وبأقل إكباب . إن المعرفة هى معرفة لغاية ما . وتتوقف صحة المعرفة على صحة الغاية ، ولكن حتى فى حالة عدم الاعتراف بمثل هـذه النظرية ، فإن الممارسة العملية لم تكن أقل إزعاجاً . فقد صادفت فى مجال دراستى العديد من أمثلة التفسيرات التى نظرت إلى الوقائع نظرة تعنتيه دون أن تتأثر بحقيقة هـذا الخطر ، ولا يدعو إلى الدهشة أن يولد تصفح بعض المؤلفات المتطرفة للمدارس المناصرة للسوفييت والمناهضة لها فى الكتابة التاريخية حنيناً معيناً يؤدى إلى السعى وراء تاريخ القرن التاسع عشر الوهمى الذى يعتمد على الوقائع اعتماداً خالصاً .

كيف إذن نستطيع فى منتصف القرن العشرين أن نحدد التزام المؤرخ نحو وقائعه . إنى واثق أننى قضيت عدداً كافياً من الساعات فى السنين الأخيرة أتعقب الوثائق وأتصفحها مضيفاً الهوامش التى تتضمن الوقائع

---

(١) « نيتشه » ما وراء الخير والشر ــ الفصل الأول ــ

Beyond Good & Evil

المناسبة لروايتى التاريخية ، لكى أتجنب الاتهام بالتعالى فى النظر إلى الوقائع والوثائق . وواجب المؤرخ الخاص باحترام الوقائع لا ينتهى بمجرد الالتزام بالتأكد من دقتها ، فيجب أن يسعى إلى إضافة كل الوقائع المتيسرة المدونة ، أو التى يمكن معرفتها بمعنى أو آخر إلى موضوع بحثه ، وإلى التفسير الذى يرمى إليه . فإذا أراد أن يصور الإنجليزى فى عصر الملكة فيكتوريا شخصاً أخلاقياً وعاقلا فيجب عليه ألا ينسى ما حدث فى Stalybridge Wakes سنة ١٨٥٠ ، ولا يعنى هذا بالتالى أنه قادر على استبعاد التفسير الذى هو مبعث حياة التاريخ . ويسألنى أحياناً الغرباء عن مهمة الكتابة التاريخية — أى الأصدقاء من غير الباحثين ، أو الباحثون فى مجالات أكاديمية علمية أخرى — كيف يشرع المؤرخ فى العمل عندما يكتب التاريخ ؟ يبدو أن أكثر الافتراضات شيوعاً هو أن المؤرخ يقسم عمله إلى مرحلتين أو طورين متمايزين . أولا — يقضى فترة تحضيرية طويلة فى قراءة المصادر وملء مذكراته بالوقائع . وبعد ذلك عندما ينتهى من المرحلة الأولى فإنه يستبعد مصادره ومذكراته ، ويكتب مؤلفه من البداية إلى النهاية . إننى أرى هذه الصورة غير مقنعة ، وغير مستصوبة ، وفيما يتعلق بى فإننى بمجرد أن أطلع على بعض ما أعتقـــد أنه مراجعى الرئيسية تزداد لهفتى إلى الكتابة ، وأشرع فيها — ليس ضرورياً من البدء بل ابدأ من أى موضع — وعقب ذلك تستمر القراءة والكتابة فى نفس الوقت . فيضاف إلى الكتابة أو يحذف منها ، أو يعاد تنظيمها ، أو تستبعد فى نفس الوقت الذى أقرأ فيه . وتسير الكتابة القراءة وتوجهها ، وتجعلها مثمرة . وكلما استمرت الكتابة ازدادت معرفتى عما أبحث عنه ، وازددت فهماً لأهمية ما اهتديت إليه ومدى ارتباطه . ومن المحتمل أن يقوم بعض المؤرخين بهذه الكتابة التحضيرية فى أذهانهم ، دون استخدام القلم والورق أو الآلة الكاتبة . . تماما كما يلعب بعض الناس الشطرنج فى رءوسهم دون رجوع إلى اللوحة والقطع الخشبية . إنها لموهبة أحسدهم عليها ، ولكننى لا أستطيع أن أجاريهم فيها ، ولكننى

على يقين أن العمليتين اللتين يسميهما الاقتصاديون (وارد) و (منصرف) يتمان فى نفس الوقت عند أى مؤرخ جدير بهذا الاسم ، وأنهما من الناحية العملية جزءان من عملية واحـــدة مفردة . وأنت إذا حاولت فصلهما أو جعلت لواحدة منهما الأفضلية على الأخرى ، فإنك ستهوى إلى أحد ضلالين . . فإما أن تكتب تاريخ « قص ولصق » بغير معنى أو أهمية ، أو تكتب تاريخاً للدعاية أو روائيا ، وتستخدم وقائع الماضى لمجرد تزيين نوع من الكتابة لا يمت بأية صلة إلى التاريخ .

إن بحثنا للصلة بين المؤرخ ووقائع التاريخ ، قد وضعنا فى موقف واضح التزلقل ، نتردد فيه بين شرين . الشر الأول Scylia وهى نظرية لا يمكن الزود عنها . عن التجميع الموضوعى للوقائع ، والأفضلية غير الصالحة للوقائع على التفسير . والشر الآخر ـخاريبدس- Charybdis (١) هو نظرية للتاريخ لا يمكن الذود عنها كذلك ، لانها تراه من إنتاج عقل المؤرخ الذى يؤسس وقائع التاريخ ويتحكم فيها عن طريق التفسير ، أى بين نظرية للتاريخ مركز ثقلها فى الماضى ، ونظرية أخرى مركز ثقلها فى الحاضر ولكن موقفنا أقل خطورة مما يبدو . وإننا سنصادف مرة أخرى فى هذه المحاضرات نفس القسمة الثنائية للواقعة والتفسير فى صور أخرى — الجزئى والكلى ، التجريبى والنظرى الموضوعى والذاتى . إن مقولات المؤرخ تعكس طبيعة الإنسان . والإنسان — ربما فيما عدا الطفولة المبكرة والشيخوخة المفرطة — ليس تابعاً تبعية كاملة لبيئته ، ولا يخضع لها خضوعا غير مشروط . ومن ناحية أخرى ، فإنه لا يمكن أن يكون مستقلا عنها تمام الاستقلال ، وأن يكون سيدها دون قيد أو شرط . وصلة الإنسان ببيئته هى صلة المؤرخ بموضوعه .

---

(١) : « سقيلا » هى صخرة على الساحل الإيطالى لمضيق سينا تواجه « خاربيدس» وقد وصفها هوميروس كوحش يبتلع النوتية — تذكر للدلالة على الاختيار بين شرين (المترجم)

فالمؤرخ ليس العبد الذليل لوقائعه ، أو سيدها الطاغية . إن صلة المؤرخ بوقائعه هي صلة مساواة وصلة أخذ وعطاء ، وكما يعرف أي مؤرخ من العاملين في هذا المجال ، إذا توقف لكي يتأمل ما يفعله عندما يفكر ويكتب ، إنه يقوم بعملية مستمرة من المزج بين وقائعه وتفسيراته ، وبين تفسيراته ووقائعه . . ومن المستحيل تحديد افضلية لأيهما على الأخرى .

والمؤرخ يبدأ بطائفة منتقاه مؤقتة من الوقائع ، وبتفسير مؤقت . وقد تم الانتقاء على ضوء هذا التفسير — بواسطته وكذلك بواسطة الآخرين — وبتقدم البحث يصادف كل من التفسير والانتقاء وترتيب الوقائع تغييرات خفية ، وربما كان بها جانب لا شعوري ، وذلك من التأثير المتبادل لعامل أو آخر . ويتضمن هذا الفعل المتبادل كذلك التأثير المتبادل بين الحاضر والماضي ، لأن المؤرخ جزء من الحاضر والوقائع تنتمي إلى الماضي . والمؤرخ ضروري لوقائع التاريخ ، كما أنها ضرورية له . وهو بغير وقائعه فاقد الجذر عديم الجدوى . والوقائع بغير مؤرخها ميتة وبلا معنى . ومن ثم فإن إجابتي الأولى على السؤال ما هو التاريخ ؟ إنه عملية مستمرة من التفاعل المتبادل بين المؤرخ ووقائعه ، وحوار لا ينتهي بين الحاضر والماضي .

٢– المجتمع والفرد

إن السؤال: أيهما يسبق الآخر – المجتمع أم الفرد – لشبيه بالسؤال عن الدجاجة والبيضة. فسواء نظرت إليه على أنه مسألة منطقية أو تاريخية فأنت لن تستطيع بطريقة أو بأخرى، أن تقرر شيئاً بخصوصه، ولن تستطيع أن تصححه باتباع رأى مقابل من جانب واحد كذلك. إن المجتمع والفرد لا ينفصلان، إنهما ضروريان ويكمل كل منهما الآخر، ولا تعارض بينهما «فالإنسان ليس جزيرة كاملة فى ذاتها» كما يقول «دون» Donne فى كلماته المشهورة «إن كل إنسان جزء من القارة وجانب من المحيط (١)».. وهذا الكلام هو أحد جوانب الحقيقة. ومن ناحية أخرى لنتأمل القول المأثور لجون ستوارت ميل الفيلسوف الكلاسيكى للمذهب الفردى «إن الناس لا يتحولون عندما ينشأون سوياً إلى نوع آخر من الجوهر (٢)». بالطبع لا. ولكن المغالطة هى أن تفترض أنه قد كان للناس قبل أن ينشأوا سوياً كيان، أو كان لهم أى نوع من الجوهر. فبمجرد مولدنا يبدأ تأثير العالم فينا وتحويلنا من وحدات بيولوجية خالصة إلى وحدات اجتماعية. وكل كائن إنسانى فى كل طور من أطوار التاريخ أو ما قبله يولد فى مجتمع ويتشكل بواسطته من بدء سنواته الأولى. فاللغة التى يتكلمها ليست تراثاً فردياً، بل جاءت اكتساباً من الجماعة التى نشأ فيها، ويساعد كل من اللغة والبيئة على تقرير طابع فكره. وأفكاره الأولى مستمدة من الآخرين. ووفقاً للقول المأثور – إن الفرد بمعزل عن المجتمع – سوف يكون عاجزاً عن الكلام وبلا عقل. ويرجع السحر الخالد لأسطورة «روبنسون كروزو» إلى

(١): Devotions Upon Emergent Occassions رقم xvii

(٢): ميل J.S mill فى كتاب A System of Logic (نسق للنطق)

محاولتها تخيل فرد مستقل عن المجتمع ، ولكن المحاولة قد اخفقت لأن روبنسون كروزو ليس فرداً مجرداً ، بل إنجليزياً من « يورك الجديدة » ، ويحمل كتابه المقدس ويصلى لرب قبيلته . وقد أنزلت الأسطورة عليه فى أسرع وقت رجله « فرايداى Friday وبدأ بناء مجتمع جديد . والأسطورة الأخرى التى ترتبط بذلك هى أسطورة كريلوف « Kirillov » فى كتاب دوستوفيسكى « الشياطين » الذى قتل نفسه لكى يثبت حريته المطلقة . إن الانتحار هو الفعل الوحيد الحر المباح للإنسان الفرد ، وكل فعل آخر يعنى بوسيلة أو بأخرى انتماءه إلى مجتمع (١) .

ويقول علماء الأنثروبولوجى عادة إن الإنسان البدائى أقل فردية وأكثر تشكلا بوساطة المجتمع من الإنسان المتحضر ، وهذا الكلام يحتوى على جانب من الحقيقة . فإن الشعوب الأكثر بساطة أكثر إطرادا ، بمعنى أنهـــا تدعو وتهيء الفرص لعدد من المهارات الفردية والمهن المختلفة أقل من المجتمعات المتقدمة الأكثر تعقيداً . بهذا المعنى يكون التفرد المتزايد individualization قد صدر بالضرورة عن المجتمع الحديث المتقدم ، ويتخلل جميع أفعاله من أعظمها إلى أقلها شأناً . ولكن قد يكون من الخطأ البالغ إقامة تعارض بين هذا التفرد وبين القوة النامية للمجتمع وتماسكه . فإن تطور المجتمع وتطور الفرد يسيران جنباً إلى جنب . ويؤثر كل منهما فى الآخر .. ومن الحقيق أننا نعنى بالمجتمع المعقد أو المتقدم ، المجتمع الذى اتخذ فيه اعتماد الأفراد بعضهم على بعض صوراً متقدمة ومعقدة . وقد يكون من الخطر افتراض أن قدرة أى مجتمع قومى حديث على تشكيل سلوك أفراده وتفكيرهم ، وبعث درجة معينة من المطابقة والاطراد بينهم ، أقل من أى ناحية ، عن قدرة المجتمع البدائى القبلى ،

(١) : صاك دوركيم فى دراسته المعروفة عن الانتحار الكلمة anomie ليبين بها حالة الفرد المنعزل عن مجتمعه ، وهى حالة تؤدى بصفة خاصة إلى الاضطراب العاطفى والانتحار . ولكنه بين كذلك أن الانتحار ليس بحال مستقلا عن الأحوال الاجتماعية .

فقد تم منذ أمد بعيد نبذ التصور القديم القائل بتوقف السلوك القومى على اختلافات بيولوجية . ولكن من الصعب إنكار اختلافات السلوك القومى المنبعثة من اختلاف الأسس القومية للمجتمع والتعليم . فقد اختلفت الحقيقة الجوهرية الخداعة المسماة « بالطبيعة الإنسانية » كثيراً من بلد لآخر ، ومن قرن إلى آخر ، حتى إنه يتعذر عدم النظر إليها كظاهرة تاريخية ، تتشكل بفعل الأحوال والتقاليد الاجتماعية السائدة . وهناك اختلافات كبيرة بين الأمريكيين والروس والإيطاليين كما يقال ، ولكن بعض هذا الاختلاف، وربما كان أكثره أهمية ، ما يبدو فى صورة اتجاهات مختلفة نحو الروابط الاجتماعية بين الأفراد ، أو بعبارة أخرى، إلى الطريقة التى ينبغى أن يتكون بها المجتمع، حتى أصبحت أفضل وسيلة لدراسة الاختلافات بين الأفراد الأمريكيين والروس والهنود هى دراسة الاختلاف بين المجتمعات الأمريكية والروسية والهندية . إن الإنسان المتحضر مثل البدائى يتأثر بالمجتمع كما يتأثر به المجتمع . وأنت لن تستطيع الحصول على البيضة بغير الدجاجة ، أكثر من استطاعتك الحصول على دجاجة بغير بيضة .

قد كان من غير الضرورى إضاعة الوقت فى سرد هذه الحقائق الواضحة للغاية ، لولا حقيقة أنها قد غدت غامضة بفعل فترة التاريخ الاستثنائية والآخاذة التى انبعث منها العالم الغربى منذ أمد قصير . وعقيدة التفردية من أشد الأساطير التاريخية الحديثة نفاذاً . ووفقاً للرواية المألوفة فى كتاب بوركار « حضارة عصر النهضة فى إيطاليا » : (Civilization of the Renaissance in Italy) ، الذى أسمى الجزء الثانى « تقدم الفرد » قد بدأت عقيدة الفرد مع عصر النهضة، عندما أصبح الإنسان، الذى كان إلى ذلك الوقت يعى نفسه فقط، عضواً وفرداً روحياً فى سلالة وشعب وجماعة وعائلة وطائفة ، وأدرك نفسه بهذه الصفة ، ثم ارتبط الاعتقاد بعد ذلك ببزوغ الرأسمالية والبروتستانتية، وبدء الثورة الصناعية وفكرة حرية العمل Laissez faire ، ولقد كانت حقوق الإنسان والمواطن التى نادت بها الثورة الفرنسية هى حقوق الفرد . وكانت الفردية هى أساس فلسفة القرن التاسع عشر

الكبرى الخاصة بالمذهب النفعى. وأسمى مقال «مورلى On Compromise – Morley «الحل الوسط» ـ وهو وثيقة تبين خصائص المذهب الحر فى عصر الملكة فيكتوريا ـ المذهب الفردى، والمذهب النفعى «بالدين الخاص بالسعادة الإنسانية ورفاهيتها». لقد كانت «الفردية الخشنة» هى مفتاح التقدم الإنسانى. وربما كان هذا تحليلا أمينا وصحيحا لأيديولوجية فترة تاريخية معينة، ولكن ما أود أن أوضحه هو التفردية المتزايدة التى صاحبت بزوغ العالم الحديث، التى كانت عملية طبيعية فى تقدم الحضارة. لقد دفعت الثورة الاجتماعية بطوائف اجتماعية جديدة إلى مراكز السلطة، فقد قامت بعملها كما هى الحال دائما عن طريق الأفراد، وبتقديم فرص جديدة للتقدم الفردى. ولما كانت وحدات الإنتاج والتوزيع فى المراحل الأولى للرأسمالية غالبا فى أيدى أفراد منفردين، فقد أكدت الأيديولوجية الخاصة بالنظام الاجتماعى الجديد دور المبادرة الفردية فى النظام الاجتماعى، ولكن العملية بأسرها كانت عملية اجتماعية تمثل مرحلة فاصلة فى التطور التاريخى، ولا يمكن أن تفسر بأنها ثورة أفراد على المجتمع أو تحرر أفراد من القيود الاجتماعية.

وتوحى دلائل كثيرة بأن هذا التطور التاريخى قد بلغ منتهاه؛ حتى فى العالم الغربى الذى كان مركز هذا التطور وهذه الأيديولوجية، وإننى لا أود الإصرار هنا على بزوغ ما يسمى بديمقراطية الكتل، أو الحلول التدريجى لصور جماعية سائدة للإنتاج والتنظيم الاقتصادى محل الصور الفردية. ولكن ما زالت الأيديولوجية المنبعثة بفعل هذه الفترة الطويلة المثمرة هى السلطة المهيمنة فى أوربا الغربية وفى البلاد الناطقة بالإنجليزية. وعندما نتكلم بعبارات مجردة عن التوتر بين الحرية والمساواة، أو بين الحرية الفردية والعدالة الاجتماعية، فإننا نميل إلى تناسى أن الصراع لا يحدث بين أفكار مجردة. إنها ليست صراعات بين أفراد بصفتهم أفراداً وبين مجتمعات باعتبارها مجتمعات، بل بين طوائف من الأفراد فى المجتمع.

وكل طائفة تبغى تدعيم السياسات الاجتماعية الملائمة لها ، وإحباط السياسات الاجتماعية المناوئة لها . إن المذهب الفردى الذى لم يعد يعنى حركة اجتماعية عظمى ، بل التعارض الباطل بين الفرد والمجتمع ، قد أصبح الآن صيحة طائفة من أصحاب المصالح التى تعوق فهمنا لما يجرى فى العالم بسبب سلوكها الجدلى . وليس لدى ما أقوله ضد العقيدة الخاصة بالفرد ، التى تصد احتجاجاً على الفكرة المنحرفة التى تنظر إلى الفرد بوصفه وسيلة ، وإلى المجتمع أو الدولة بوصفها غاية . ولكننا لن نهتدى إلى أى فهم حقيقى سواء للماضى أو الحاضر ، إذا حاولنا استخدام تصور خاص بفرد مجرد يقف خارج المجتمع .

بهذا أكون قد اهتديت فى النهاية إلى النقطة التى قمت بالاستطراد طويلا من أجلها . إن نظرة البداهة للتاريخ قد اعتبرته شيئاً قام بكتابته أفراد عن أفراد . واتبع المؤرخون الأحرار فى القرن التاسع عشر هذه النظرة وشجعوها بصورة مؤكدة ، وهى نظرية ليست غير صائبة فى جوهرها ، ولكنها الآن تبدو مبسطة أكثر من اللازم وغير كافية ونحن نود أن نغوص لأعماق أبعد . إن معرفة المؤرخ ليست وقفاً عليه لقد اشترك أناس من عدة أجيال ومن عدة دول فى تجميع هذه المعرفة . ولم يكن الناس الذين يدرس المؤرخ أفعالهم أفراداً منعزلين يعملون فى فراغ ، بل كانوا يعملون فى سياق مجتمع سالف خضعوا لتأثيره . وقد وصفت التاريخ فى محاضرتى الأخيرة بأنه عملية تفاعل أو حوار بين المؤرخ فى الحاضر والوقائع فى الماضى ، وإننى الآن أود أن أبحث فى التأثير النسبى للعنصرين الفردى والاجتماعى على كل من طرفى المعادلة . إلى أى حد يعد المؤرخون أفراداً مفردين ، وإلى أى حد هم حصيلة لمجتمعهم وعصرهم ؟ . إلى أى حد تعد وقائع التاريخ عن أفراد مفردين ؟ وإلى أى حد هى وقائع اجتماعية ؟

المؤرخ إذن هو كائن إنسانى فرد ، وهو كذلك مثل الأفراد الآخرين ظاهرة اجتماعية ، فهو حصيلة المجتمع الذى ينتمى إليه ، والناطق الشعورى أو اللاشعورى باسمه ، وهو يتناول وقائع الماضى التاريخى وفقاً لهذه القدرة . ونحن نتكلم أحياناً عن مجرى التاريخ وكأنه « موكب متحرك » . وهذا المجاز جد حسن على شريطة ألا يغرى المؤرخ بأن يظن نفسه نسراً يشرف على المشهد من صخرة شامخة منعزلة ، أو شخصية ذات حيثية فى منصة رئيسية . إنه ليس شيئاً من هذا القبيل ! ، فالمؤرخ لايزيد عن شخص باحث ، يكدح فى طرف آخر من الموكب ، وعندما يتحرك الموكب ويميل مرة إلى اليمين وأخرى إلى اليسار ، ويدور على أعقابه أحياناً ، تتغير باستمرار المواضع النسبية للجوانب المختلفة من الموكب ، حتى إنه قد يكون من الصواب على سبيل المثال القول بأننا قريبون من القرون الوسطى أكثر من جدودنا منذ قرن ، أو أن عصر قيصر أقرب إلينا من عصر دانتى ، وتظهر على الدوام مشاهد جديدة وزوايا جديدة للرؤيا ، عندما يتحرك الموكب والمؤرخ معه . فالمؤرخ جزء من التاريخ ، وتقرر النقطة التى يجد نفسه فيها فى الموكب زاوية رؤيته للماضى .

هذه الحقيقة المطلقة ليست أقل صدقاً عند ما يكون العصر الذى يدرسه المؤرخ بعيداً عن عصره . فعندما كنت أدرس التاريخ القديم ، كانت الكتب الكلاسيكية الخاصة بالموضوع هى كتاب « Grote » ، « جروت » « تاريخ اليونان » « History of Greece » ، وكتاب « مومسن » ، « تاريخ روما » « History of Rome » ، ومن المحتمل ألا تكون قد تغيرت . وقد صور « جروت » ، وهو صاحب مصرف متطرف ومتنور ، عندما كتب فى سنة ١٨٤٠ ، آمال الطبقة المتوسطة الصاعدة ذات التقدمية السياسية فى صورة مثالية لديمقراطية أثينا ، بدا فيها « بركليس » مصلحاً من أتباع « بنتام » ، وجعل أثينا تحصل على إمبراطورية فى نوبة من نوبات الغفلة . وربما

لا يكون من الوهم القول بأن إغفال «جروت» لمشكلة الرق فى أثينا يعكس إخفاق الطائفة التى كان ينتمى إليها فى مواجهة المشكلة الجديدة للطبقه العاملة الحديثة فى المصانع البريطانية. وكان «مومسن» ألمانياً حراً، متحرراً من أوهام بلبلة الثورة الألمانية (١٨٤٨ — ١٨٤٩)، وإذلالها. وقد كتب فى الخمسينات وهى الفترة التى رأت ميلاد كلمة السياسة الواقعية وتصورها، وكان مشبعاً بالشعور بالحاجة إلى رجل قوى يقضى على المأزق الذى جاء نتيجة إخفاق الشعب الألمانى فى إدراك مطامحه السياسية. ولن نستطيع تقدير قيمة تاريخه تقديراً صحيحاً، إلا إذا أدركنا أن تمجيده المعروف تماماً لقيصر هو نتيجة حنينه إلى الرجل القوى الذى ينقذ ألمانيا من الدمار، وأن شيشرون هذا المحامى السياسى، والثرثار الذى لا نفع له والمعوق المتقلب، قد خرج تواً من مناقشات الـ Paulikirche فى فرانكفورت عام ١٨٤٨. ويحق لن أراها مبالغة محيرة، لو أن أحداً قال إن تاريخ «جروت» لليونان يذكر لنا اليوم الكثير عن أفكار الفلاسفة الإنجليز المتطرفين سنة ١٨٤٠، مثلما يذكر عن الديمقراطية فى أثينا فى القرن الخامس قبل الميلاد، أو أن من يرغب فهم ما أحدثته سنة ١٨٤٨ للألمان الأحرار، فعليه الرجوع إلى تاريخ «مومسن» عن روما بوصفه أحد مراجعه. ولن يقلل هذا من مكانة هذين المرجعين باعتبارهما مؤلفين تاريخيين عظيمين.

وإننى لا أستطيع الصبر على البدعة التى ابتدعها «بيورى» فى محاضرته الافتتاحية بادعائه أن عظمة «مومسن» لا ترتكن إلى تاريخه لروما، بل إلى مجموعة مخطوطاته ومؤلفه عن القانون الدستورى الرومانى: إن معنى هذا هو الهبوط بالتاريخ إلى مستوى التجميع، فالكتابة القيمة للتاريخ تتم عندما تضىء استبصارات مشكلات الحاضر رؤيا المؤرخ للماضى. وطالما عبر الكثيرون عن الدهشة لأن مومسن قد أخفق فى متابعة تاريخه بعد

سقوط الجمهورية ، فهو لم يفتقر إلى الوقت أو الفرصة أو العلم ، غير أنه عند ما كتب « مومسن » تاريخه ، لم يكن الرجل القوى قد ظهر فى ألمانيا بعد ، ففى خلال حياته الحافلة لم تكن مشكلة مايحدث عند ما يحكم الرجل القوى قد أصبحت فعلية بعد ، ولم يكن ثمة ما يلهم « مومسن » لإبراز هذه المشكلة على المسرح الرومانى ، وظل تاريخ الإمبراطورية دون أن يكتب .

من السهل تعديد أمثلة لهذه المظاهر بين المؤرخين المحترفين. ففى محاضرتى الأخيرة أشدت بمؤلف دكتور «تريفليان»— «إنجلترا أثناء حكم الملكة آن». England Under Queen Anne بوصفه عملا عظيما لتقليد الأحرار الذى نشأ فيه . فلنحاول الآن النظر فى مؤلف هام ومهيب لرجل قد يعده الكثيرون منا أعظم المؤرخين البريطانيين الذين ظهروا فى المسرح الأكاديمى منذ الحرب العالمية الأولى وهو سير لويس نامييه « Namier » . كان « نامييه » مؤرخا محافظا حقاً — وليس من طراز المحافظين الإنجليز الذين إذا تعرضوا للخدش تبين أن ثلاثة أرباعهم من الأحرار ، بل كان محافظاً لم نر من يماثله من المؤرخين الإنجليز منذ أكثر من مائة عام . وقد ندر بين منتصف القرن الماضى وسنة ١٩١٤ أن تصور أى مؤرخ بريطانى التغير التاريخى إلا بوصفه تغيرا للحالة أفضل ، وفى العشرينات انتقلنا إلى فترة بدا فيها التغير مصحوبا بالخوف من المستقبل ، وأعتقد أنه تغير لأسوأ — هذه هى فترة عودة ظهور التفكير المحافظ . واتبـــاع نامييه المحافظين مثل تحررية « اكتون » ، كلاهما استمد قوته وعمقه من جذوره الأوربية ، ولم تكن لنامييه جذور ممتدة إلى المذهب الحر للقرن التاسع عشر مثل « فيشر » أو

« توينبي » ولم يشعر بأى حنين أو شوق إليه (١) . وبعد الحرب العالمية الأولى ، وبعد أن كشف السلام العقيم إفلاس المذهب الحر ، كان من المتوقع أن يأتى رد الفعل فى إحدى صورتين فقط : المذهب الاشتراكى أو المذهب المحافظ . وبدا « ناميه » مؤرخاً محافظاً ، وقد عمل فى مجالين مختارين وكان اختيار كليهما ذا أهمية . ففى التاريخ البريطانى لجأ إلى الفترة الماضية عندما كانت الطبقة الحاكمة قادرة على ممارسة سلطتها ، وتدعيم مكانتها بطريقة رشيدة فى مجتمع منظم يغلب عليه الثبات . وقد اتهم أحدهم « ناميه » بأنه انتزع العقل من التاريخ (٢) . ربما لم تكن العبارة موفقة . ولكن من المستطاع إدراك النقطة التى أراد الناقد ذكرها ، لقد كانت السياسة عند ارتقاء الملك جورج الثالث العرش ما زالت آمنة من تأثير تعصب الأفكار ومن الاعتقاد العاطفى فى التقدم ، اللذين حلا بالعالم بعد الثورة الفرنسية التى أعلنت قدومهما فى قرن المذهب الحر المنتصر . واختار ناميه أن يعرض لنا صورة براقة لعصر ما زال آمنا — حيث لا أفكار ولا ثورة ولا مذهب حر . ولكن هذا العصر لم يقدر له البقاء طويلا آمنا من كل هذه الأخطار .

---

(١) : لعله مما يستحق الملاحظة أن الكاتب المحافظ البريطانى المهم الآخر الوحيد فى فترة ما بين الحربين مستر إليوت T.S.Eliot قد تمتع كذلك بميزة انتسابه لأصل غير بريطانى ولم يستطع أى إنسان نشأ فى بريطانيا قبل سنة ١٩١٤ الإفلات من التأثيرات التحريمية للتقاليد الحرة .

(٢) : ظهر النقد الأصلى فى مقال دون توقيع فى جريدة The Times Literary Supplement فى ٢٨ أغسطس سنة ١٩٥٣ تحت عنوان The Namier View of History «حول رأى ناميه فى التاريخ» وتضمن الآتى: إن « داروين » قد اتهم بأنه انتزع العقل من العالم . وقد كان سير لويس « هو داروين » التاريخ السياسى فى أكثر من معنى .

واختار «ناميه» موضوعاً آخر لا يقل عن ذلك أهمية ، فقد مر مرور الكرام على الثورات الحديثة الثلاث — الإنجليزية والفرنسية والروسية — ولم يكتب شيئا ذا أهمية عن أى منها ، واختار القيام بدراسة نفاذة للثورة الأوربية سنة ١٨٤٨ — وهى ثورة أخفقت ، وتعد صدمة لأمانى الحرية الصاعدة لأوربا بأسرها ، وبرهاناً على ضعف الأفكار فى مواجهة القوى المسلحة ، وعلى عجز الديمقراطيين عن مواجهة الجنود ، كما أنها تبين أن تدخل الأفكار فى الأمور السياسية الهامة غير مجد وله خطره . وقد قام « ناميه » بتأكيد هذا المغزى ، عندما أسمى هذا الإخفاق المذل« ثورة المفكرين » واستنتاجنا ليس مسألة استدلالية فقط ، فبالرغم من أن «ناميه» لم يكتب أى شىء نسقى مذهبى عن فلسفة التاريخ ، فإنه قد عبر عن اتجاهه فى مقال نشر منذ سنوات قليلة، وامتاز بوضوحه المعتاد ولوذعيته وقد قال فيه: « كلما قل خضوع الإنسان لعبث عقله الحر بالمعتقدات السياسية والدجماطيقية ، كلما كان هذا لصالح تفكيره » وبعد أن ذكر الاتهام بأنه قد انتزع العقل من التاريخ دون أن ينكره قال :

« يشكو بعض الفلاسفة السياسيين من فترة ركود مجهدة، وعدم وجود منافشات فى الحاضر فى هذه البلاد فى السياسة العامة . فهناك سعى لإيجاد حلول عملية للمشكلات المعينة فى الوقت الذى نسى فيه كل من الحزبين البرامج والمثل . ولكن هذا الاتجاه فى رأيى يدل على نضج قومى عظيم . وكل ما أبتغيه هو أن يستمر طويلا دون أية عرقلة من تأثير الفلسفة السياسية (١) » .

وإننى لا أود الآن أن أناقش هذا الرأى بل سأؤجل ذلك إلى محاضرة قادمة . وغايتى هنا هى أن أصور حقيقتين هامتين: الأولى ـ أنك لا تستطيع أن تفهم تماما عمل المؤرخ أو تقدره إلا إذا أدركت أولا وجهة النظر التى

---

(١) شخصيات وسلطات « تأليف ناميه » ١٩٥٥ (ص٥ — ٧)
Personalities & Powers

اعتمد عليها فى تناوله الموضوع .ثانياً - إن وجهة النظر نفسها تنتمى إلى أساس اجتماعى وتاريخى ، فلا تنس أنه كما قال « ماركس » مرة « إن المعلم ذاته ينبغى أن يعلم(*)». وفى اللغو الحديث The brain of the brainwasher has itself been washed . فالمؤرخ قبل أن يبدأ كتابة التاريخ ، هو نفسه من صنعه .

لقد تم كما يقال صب كل من المؤرخين الذين تكلمت عنهم — « جروت » و « مومسن » ، « ترفليان » و « ناميه » فى قالب سياسى واجتماعى واحد ، ولا تختلف نظرتهم فى مؤلفاتهم المبكرة عن نظرتهم فى مؤلفاتهم الأخيرة اختلافا يذكر . ولكن بعض المؤرخين فى فترات التغير السريع قد عكسوا فى كتاباتهم مجموعة من النظم المتعاقبة المختلفة، وليس مجتمعاً واحداً ونظاماً اجتماعياً واحداً . وأفضل مثال أعرفه فى هذا السبيل هو المؤرخ الألمانى الكبير « ماينكه » ، الذى عاش فترة زمنية طويلة ، كما كتب لمدة طويلة ، وأحاط بسلسلة من التغيرات الثورية المحطمة فى أحداث بلاده ، وفى الواقع لدينا ثلاثة « ماينكه » مختلفين . كل منهم يعبر عن عصر تاريخى مختلف . وكل منهم يتكلم من خلال أحد مؤلفاته الثلاثة الكبيرة، فماينكه « كتاب العالمية والدولة القومية» Weltbürgerthum und Nationalstaat الذى نشر سنة ١٩٠٧ يرى بإخلاص أن الرايخ البسماركى قد حقق المثل الألمانية القومية ، وهو مثل أغلب مفكرى القرن التاسع عشر- من متزينى فصاعداً — يسوى بين القومية وبين أعلى صور العالمية . هذه هى نتيجة باروك عصر « غليوم » الذى أعقب عصر «بسمارك» و « ماينكه » الثانى الذى نشر كتاب Die Idee der Staatsräson « فكرة منطق الدولة» سنة ١٩٢٥ ، يتكلم بعقل جمهورية فيمار الممزق الحائر . لقد

(*) عبر الشاعر العربى عن هذا المعنى بقوله :

يا أيها الرجل المعلم غيره ∴ هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنا ∴ كيما يصح به وأنت سقيم

أصبح عالم السياسة حلبة لصراعات لم تحل بين منطق الدولة ، وأخـــلاق خارجية عن السياسة ، وإن كانت لا تستطيع فى نهاية المطاف أن تتناسى حياة الدولة وسلامتها . وأخيراً ماينكه مؤلف كتاب بزوغ النزعة التاريخية Die Entstehung des Historismus الذى كتب سنة ١٩٣٦ ، عندما جرفه التيار النازى من وظيفته العلمية الأكاديمية ، وهو يتأوه ويصيح صيحة يأس رافضاً أية نزعة تاريخية ، يبدو أنها تعترف بأن كل ما هو كائن حق ، وتتأرجح بقلق بين النسبية التاريخية ، ومطلق فوق العقل . وأخيراً عندما رأى « ماينكه » فى شيخوخته بلاده وهى تخضع لهزيمة عسكرية أكثر سحقا من هزيمة سنة ١٩١٨ ، انتكس يائسا ـ فى كتاب Die deutsche Katastrophe (الكارثة الألمانية) سنة ١٩٤٦ ـ إلى الاعتقاد فى تاريخ يخضع لرحمة المصادفة الصارمة العمياء (١) ، وقد يهتم عالم النفس أو كاتب السير هنا بتطور « ماينكه » بوصفه فرداً . وما يهم المؤرخ هو الطريقة التى عكس بها « ماينكه » ثلاث فترات متعاقبة ، أو ربما أربع فترات من الماضى التاريخى ، تباين الوقت الحاضر تبايناً حاداً .

أو لنحاول أن نذكر مثلا مميزاً من انجلترا . لقد كتب الأستاذ بترفيلد عند نبذ عبادة الأصنام فى الثلاثينات ، بعد أن انتهى تأثير حزب الأحرار فى السياسة البريطانية بفترة قصيرة ، كتابا يدعى The Whig Interpretation of Histoy (التفسير الحربى للتاريخ) ، تمتع بنجاح كبير يستحقه ، لقد كان ملفتا للنظر فى جملة نواح — ليس أقلها أنه بالرغم من هجومه على

---

(١) : إننى مدين هنا إلى التحليل الممتاز للدكتور « شتارك » Stark لتطور « ماينكه » فى مقدمة للترجمة الإنجليزية لكتاب Die Idee der Staaträson (فكرة منطق الدولة) الذى نشر تحت اسم الماكيفالية Machiavellism سنة ١٩٥٧ . وربما أسرف الدكتور شتارك فى تقدير عنصر ما فوق العقل فى فترة ماينكه الثالثة .

التفسير الحرى للتاريخ Whig فى أكثر من ١٣٠ صفحة ، فإنه لم يذكر -بقدر ما استطعت أن اكتشف دون رجوع إلى الفهرس- اسم شخصية من الأحرار واحدة باستثناء « فوكس » Fox الذى لم يكن مؤرخا ، ولا مؤرخا واحداً سوى « أكتون » الذى لم يكن من الأحرار (١) ولكن ما افتقر إليه الكتاب فى التفاصيل والدقة ، قد استعيض عنه بالتعبير الساخر البراق ، ولم يترك القارىء يشك فى أن تفسير الأحرار للتاريخ شىء كريه . وكان من بين الاتهامات التى وجهت إلى هذا التفسير أنه « قد درس الماضى بالرجوع إلى الحاضر » وفى هذه المسألة كان الأستاذ « باترفيلد » حاسماً وقاسياً . فقد قال :

«إن دراسة الماضى مع النظر بإحدى العينين- كما يقال- إلى الحاضر ، هو منبع جميع الخطايا والمغالطات والاضطراب فى التاريخ . . إنه جوهر ما نعنيه بالكلمة (لا تاريخى) (٢) » .

وانقضت اثنتا عشرة سنة ، وانقضى عهد تحطيم الأوثان ، واشتبكت دولة الأستاذ بترفيلد فى حرب يقال عنها عادة إنها حرب للدفاع عن الحريات الدستورية المتمثلة فى تقليد الأحرار (٣) تحت زعامة زعيم طالما لمح بإحدى

---

(١) : باترفيلد فى كتاب (تفسير الأحرار الهويج للتاريخ) The Whig Interpretaton of History ١٩٣١ ص٦٧ يعترف المؤلف بنوع مفيد من عدم الثقة فى الاستدلال المجرد .

(٢) المرجع السابق .

(٣) باترفيلد . The Whig Interpretation of History صفحات ١١ — ٣١ — ٣٢

عينيه إلى الماضى لكى يتحدث عن الحاضر . وفى كتيب صغير يدعى (الإنجليزى وتاريخه) The Englishman & his History نشر سنة ١٩٤٤ ، لم يكتف الأستاذ باترفيلد بالقول إن تفسير الأحرار للتاريخ هو التفسير الإنجليزى له ، بل تكلم بحماسة عن « تحالف الإنجليزى مع تاريخه » ، وعن « الزواج بين الحاضر والماضى » . ولفت النظر إلى هـــذا الانقلاب فى وجهة النظر لا يعد نقداً معاديا ، فإن غايتى ليست أن أدحض ما ذكره باترفيلد الأول بالرجوع إلى ما ذكره باترفيلد الثانى ، أو أن أواجه الأستاذ باترفيلد المخمور بالأستاذ باترفيلد الوقور . فأنا واثق تماما أنه إذا تكبد أحد مشقة تصفح بعض الأشياء التى كتبتها من قبل أثناء الحرب وبعدها فإنه لن يصادف أية صعوبة على الإطلاق فى إقناعى بوجود تناقض وعدم توافق واضح جلى مثل الذى اكتشفته عند الآخرين . والحق أنى لست واثقاً أنى سوف أحسد أى مؤرخ يستطيع الادعاء بإخلاص أنه قد عاش الأحداث المزلزلة فى السنوات الخمسين الأخيرة دون أن تتبدل نظرته تبدلا أساسيا . إن غايتى فقط هى أن أبين كيف يعكس عمل المؤرخ عن كثب المجتمع الذى يعمل فيه . فالأحداث ليست وحدها التى تتغير ، إن المؤرخ نفسه فى تغير . . وعندما تتناول مؤلفا تاريخيا ، فلا يكفى أن تنظر إلى اسم المؤلف فى الصفحة الأولى . انظر كذلك إلى تاريخ النشر أو الكتابة ، فأحيانا يكون أكثر دلالة . فإذا كان الفيلسوف على حق عندما يذكر لنا أننا لن نستطيع أن نخطو فى نفس النهر مرتين ، فربما كان من الصحيح أيضا ولنفس السبب ألا يقدر نفس المؤرخ على كتابة كتابين متماثلين .

وإذا انتقلنا لحظة من المؤرخ الفرد إلى ما يمكن تسميته بالاتجاهات العريضة فى الكتابة التاريخية ، فإنه سيبدو أكثر وضوحا إلى أى حد يعد المؤرخ من إنتاج مجتمعه . ففى القرن التاســـع عشر اعتبر المؤرخون

البريطانيون بغير استثناء تقريبا التاريخ دليلا على مبدأ التقدم . . لقد عبروا عن أيديولوجية مجتمع فى حالة تقدم سريع ملحوظ . فقد كان التاريخ حافلا بالمعانى عند المؤرخين البريطانيين ، عندما كان يبدو فى صالحنا ، والآن بعد أن اتخذ طريقا مخالفا ، أصبح الاعتقاد فى معنى التاريخ ضلالا . وبعد الحرب العالمية الأولى ، قام « توينبى » بمحاولة يائسة لاستبدال النظرية المتجهة للأمام فى التاريخ بنظرية دائرية ـ وهى السمة الأيديولوجية لمجتمع فى حالة تدهور (١) وعندما أخفق توينبى اكتفى المؤرخون البريطانيون فى أغلب الأحيان بالاستسلام لليأس ، والقول بأنه لا وجود لنمط عام فى التاريخ على الإطلاق . لقد حققت ملاحظة تافهة « لفيشر » بهذا المعنى (٢) نجاحا واسعا يماثل تقريبا كلمة رانكه المأثورة فى القرن الماضى . ولو أن أحداً ذكر لى أن المؤرخين البريطانيين فى السنوات الثلاثين الماضية قد انتهوا إلى هذا التغير فى العقيدة ، نتيجة لتأمل فردى عميق بعد سهر ليال طويلة فى البحث فى أبراجهم العاجية المفردة ، فإننى سوف لا أرى داعيا للخلاف حول هذه الحقيقة ، ولكننى سوف أستمر فى الاعتقاد بأن كل هذا التفكير الفردى والسهر الطويل للدراسة ظاهرة اجتماعية نتيجة لتغيير رئيسى فى طابع مجتمعنا منذ ١٩١٤ ونظرته وتعبيراً عنه . وليس هناك دليل هام يبين طابع المجتمع أكثر من نوع التاريخ الذى يكتبه أو الذى يفشل فى كتابته . لقد بين « جيل » Geyl المؤرخ الهولاندى فى بحث مونوجرافى شائق ترجم إلى اللغة الإنجليزية تحت عنوان Napoleon

---

(١) : لقد واسى «ماركوس أوريلوس» فى غسق الإمبراطورية الرومانية نفسه ذاكراً كيف أن كل الأشياء التى تحدث الآن قد حدثت فى الماضى وسوف تحدث فى المستقبل (مناجاةمع نفسه ⨯ ٢٧) — كما هو معروف قد نقل «توينبى» الفكرة عن شبنجلر فى كتابه «تدهور الغرب» .

(٢) : مقدمة لكتاب تاريخ أوربا A History of Europe فى ٤ ديسمبر سنة ١٩٣٤

For and Against «نابليون ما له وما عليه» كيف عبرت أحكام المؤرخين الفرنسيين فى القرن التاسع عشر المتعاقبة عن نابليون ، عن الأوضاع المتغيرة والمتصارعة للحياة السياسية الفرنسية ، والأفكار خلال القرن . إن أفكار المؤرخين مثل باقى الكائنات الإنسانية تتأثر ببيئتهم فى الزمان والمكان . وقد سعى « أكتون » الذى كان قد أدرك هذه الحقيقة إلى مهرب من ذلك ، فلجأ إلى التاريخ نفسه وكتب :

« يجب أن يقوم التاريخ بتحريرنا ، ليس فقط من التأثير غير الملائم للأزمنة الأخرى ، بل من التأثير غير المناسب لزماننا ، أى من طغيان البيئة ، وضغط الهواء الذى نستنشقه . (١) » .

قد يبدو هذا الكلام تقديراً متفائلا لدور التاريخ ، ولكننى سأخاطر بالاعتقاد بأن المؤرخ الذى يعى تماما موقفه ، يستطيع كذلك أن يتجاوزه ، ويستطيع أكثر من ذلك أن يقـــدر طبيعة الاختلافات الضرورية بين مجتمعنا ونظرته ، وبين مجتمعات العصور الأخرى والدول الأخرى ، أكثر من المؤرخ الذى يرفع صوته عاليا محتجا بأنه فرد وليس ظاهرة اجتماعية .وتبدو قدرة الإنسان على التسامى فوق موقفه الاجتماعى والتاريخى مرتبطة بالحساسية التى يدرك بها مدى ارتباطه به .

لقد ذكرت فى محاضرتى الأولى : « قبل أن تدرس التاريخ عليك بدراسة المؤرخ . والآن أستطيع أن أضيف ، قبل أن تدرس المؤرخ عليك بدراسة بيئته التاريخية والاجتماعية . فالمؤرخ بوصفه فرداً هو من نتاج التاريخ والمجتمع . وعلى دارس التاريخ أن يتعلم النظر إليه على هدى هذا الضوء المزدوج .

---

(١) : Acton : Lectures on Mdern History (١٩٠٦) ص ٣٣
محاضرات أكتون عن التاريخ الحديث .

فلنترك الآن المؤرخ ، ولننظر على ضوء نفس المشكلة إلى الطرف الآخر من المعادلة — أى إلى وقائع التاريخ — هل يرى بحث المؤرخ إلى دراسة سلوك الأفراد أو إلى فعل القوى الاجتماعية ؟ هنا أسير فوق أرض قد سبق طرقها بعناية . عندما نشر «سير إيزيا برلين» Sir Isaiah Berlin مقالا شائقا مشهوراً صادف قبولا طيبا تحت عنوان «الحتمية التاريخية Historical Inevitability» ، وسأعود إلى الموضوع الرئيسى لهذا المقال فى هذه المحاضرات فيما بعد ، اتخذ له شعاراً فقرة منتقاة من مؤلف مستر T . S . Eliot «القوى اللاشخصية الهائلة» ، وسخر خلال المقال من أولئك الذين يعتقدون فى «قوى لا شخصية هائلة» ، أكثر من اعتقادهم فى الأفراد بوصفهم العامل الحاسم فى التاريخ . وسوف أدعو الرأى القائل بأن مايهم فى التاريخ هو طباع الأفراد وسلوكهم بنظرية الملك جون الشرير فى التاريخ . ولهذا الرأى أصل بعيد . فالرغبة فى التسليم بالعبقرية الفردية بوصفها القوة الخلاقة فى التاريخ هى من سمات المراحل البدائية للوعى التاريخى ، وكان اليونانيون القدماء يميلون لتسمية ما تم إنجازه فى الماضى بأسماء أبطال يفترض أنهم مسئولون عنها . فقد نسبوا ملاحمهم إلى شاعر يدعى «هوميروس» وقوانينهم ونظمهم إلى ليكرجوس «Lycurgus» أو «سولون» . وظهر نفس الاتجاه مرة ثانية فى عصر النهضة ، عندما كان «بلوتارك» ، كاتب السير والأخلاق ، أعظم شعبية وتأثيراً فى الإحياء الكلاسيكى من مؤرخى القديم . ويمكن القول إننا قد تعلمنا هذه النظرية فى إنجلترا بصفة خاصة ونحن فى أحضان أمهاتنا ، واليوم من المحتمل أن ندرك أن هناك شيئاً ما صبيانيا أو مشابها على أى حال للصبيانى مرتبطا بهذه النظرية . لقد كان لها ما يبررها فى الأيام التى كان فيها المجتمع أكثر بساطة ، وعندما بدت المسائل العامة وكأنها مسيرة بوساطة حفنة من الأفراد المعروفين . ومن الواضح أنها لم تعد تناسب المجتمعات الأكثر تعقيداً فى زماننا . وقد كان ظهور علم جديد للاجتماع نتيجة لهذا التعقيد المستمر . غير أن

العقيدة القديمة تموت بصعوبة . فى بداية هذا القرن كان القول « التاريخ هو سيرة عظماء الرجال ، حكمة مأثورة . ومنذ عشر سنوات فقط اتهم مؤرخ أمريكى معروف زملاءه ، وربما لم يكن الاتهام جديا تماماً ، بقتلهم الشخصيات التاريخية قتلا جماعيا، عندما نظروا إليهم « دمى للقوى الاجتماعية والاقتصادية» (١) . ويميل المولعون بهذه النظرية هذه الأيام إلى الخجل منها ، ولكننى بعد تنقيب ضئيل صادفت قولا معاصراً ممتازا عنها فى مقدمة كتاب كتبته الآنسة ود جوود Wedgewood . لقد كتبت: «إن سلوك الناس بوصفهم أفرادا أكثر طرافة عندى من سلوكهم باعتبارهم جماعات أو طبقات : أنه من الممكن كتابة التاريخ وفقا لهذا الانحياز ، كما يمكن كتابته وفقاً لانحياز آخر . فهو لن يكون أكثر أو أقل تضليلا .. وهذا الكتاب .. محاولة لفهم كيف شعر هؤلاء الناس ، ولماذا قاموا فى تقديرهم بأفعالهم باتباع الطريقة التى اتبعوها (٢) » .

إن هذا القول يمتاز بالدقة، ولما كانت الآنسة ود جوود» Wedgewood كاتبة معروفة ، فأنا أوافق على أن كثيرا من الناس يظنون مثلها . ويذكر لنا دكتور راوز Rowse على سبيل المثال أن نظام الملكة اليزابث قد انهار لأن الملك جيمس الأول لم يتمكن من فهمه ، وأن الثورة البريطانية فى القرن السابع عشر كانت حادثا عرضيا يرجع إلى حماقة الملكين الأولين من أسرة

---

(١) : المجلة التاريخية الأمريكية American Historical Review يناير سنة ١٩٥١ ص ٢٧١

(٢) : ود جوود Wedgwood فى كتاب سلام الملك The King's Peace ص ١٧

ستيوارت (١) . وبالمثل سير جونز نيل Sir Jones Neale وهو مؤرخ أكثر تشددا من الدكتور « راوز » ، فإنه يبدو أحيانا تواقا للتعبير عن إعجابه بالملكة اليزابث أكثر من اهتمامه بتفسير ما الذى قامت الملكة التيودورية بمناصرته . وفى المقال الذى سبق لى الاقتباس منه يبدى « سير إيزيا برلين » قلقا مزعجا لفكرة أن المؤرخين قد يفشلون فى نعت جنكيز خان ، وهتلر بأنهم رجال أشرار (٢) . ونظرية الملك جون الشرير والملكة الطيبة « بس» Bess الحافلة بالأمثلة وبصفة خاصة عندما نأتى إلى أزمنة أكثر حداثة . فمن السهل أن تصف الشيوعية بأنها (من تفكير عقل كارل ماركس الطفل) بدلا من أن تحلل أصلها وطابعها (لقد اقتطفت هذا التشبيه الذى يشبه الزهرة من منشور دورى لبعض المضاربين على البورصة) ، وأن ترجع الثورة البلشفية إلى عناد الملك نيقولا الثانى ، أو إلى الذهب الألمانى ، بدلا من أن تدرس أسبابها الاجتماعية العميقة ، وأن ترى أن الحربين العالميتين لهذا القرن قد نجمتا عن خبث الإمبراطور غليوم وخبث هتلر بدلا من نجومها عن انهيار بعيد الجذور فى العلاقات الدولية .

إن قولمس ودجورود يشتمل إذن على قضيتين القضية ، الأولى — هى أن سلوك الناس بوصفهم أفرادا يتمايز عن سلوكهم باعتبارهم أفرادا فى طوائف

---

(١) : راوز A.L.Rowse فى كتاب The Englnd of Elizabeth أنجلترا فى عصر الملكة اليزابيث ١٩٥٠ صفحات ٢٦١ — ٢٦٢ — ٣٨٢ — من الإنصاف الإشارة إلى أن مستر راوز قد اتهم فى مقال مبكر المؤرخين الذين يظنون أن البوربون قد أخفقوا فى إعادة تدعيم الملكية فى فرنسا بعد سنة ١٨٧٠ ، بسبب تعلق الملك جون الخامس بعلم أبيض صغير فى كتاب The End of an Epoch (نهاية عصر) سنة ١٩٤٩ — ص ٢٧٥ — وربما احتفظ بمثل هذه التفسيرات الشخصية للتاريخ البريطانى .

(٢) « الحتمية التاريخية Historical Inevitability سنة ١٩٥٤ ص ٤٢

أو طبقات ، وأنه يحق للمؤرخ اختيار أحد السلوكين ، واستبعاد الآخر . والقضية الثانية هى أن دراسة سلوك الناس بحكم كونهم أفراداً تعتمد على دراسة الدوافع الواعية لأفعالهم .

وبعد ما انتهيت إلى قوله ، فإننى لست بحاجة للاهتمام بالنقطة الأولى ، وليس ذلك لأن النظرة إلى الإنسان فردا أكثر أو أقل تضليلا من النظرة إليه بوصفه أحد أفراد طائفة ، بل لأن محاولة إقامة حد بين النظرتين هو المضلل،فإن الفرد وفقاً للتعريف ينتمى إلى مجتمع أو من المحتمل إلى أكثر من مجتمع، ويمكنك أن تسميه طائفة أو طبقة أو قبيلة أو وطناً أو ماتريد.ولقد كان البيولوجيون الأوائل يقنعون بتصنيف أنواع الطيور والوحوش والأسماك فى أقفاص أو أحواض سمك أو معارض زجاجية ، دون محاولة دراسة الكائن الحى فى صلته ببيئته . وربما لم تتخلص العلوم الاجتماعيه تماما من هذه المرحلة البدائية . فهناك بعض الناس الذين يميزون بين علم النفس الذى يقوم بدراسة الفرد ، وبين علم الاجتماع الذى يدرس المجتمع . وقد أطلقت الكلمة « النزعة السيكلوجية » Psychologism على النظرة القائلة أن المشكلات الاجتماعية كافة يمكن إرجاعها إلى تحليل سلوك الإنسان الفرد . ولكن السيكلوجيين الذين فشلوا فى دراسة البيئة الاجتماعية للفرد لا يستطيعون الذهاب بعيدا (١) فمن المغرى إقامة حد بين السير التى تنظر إلى الإنسان

---

(١) : لقد أدين السيكلوجيون المحدثون لحد كبير أو يسير بهذا الخطأ ، فالسيكلوجيون باعتبارهم طائفة ، لم ينظروا إلى الفرد بوصفه وحدة فى نظام اجتماعى فعال ، بل بالأحرى بوصفه كائناً إنسانياً مشخصاً ، أدرك حينئذ باعتباره يعمل على إقامة نظم اجتماعية . ومن هذا يتضح أنهم لم ينتبهوا انتباهاً كافياً إلى مدى تجريد مقولاتهم — الأستاذ تالكوت بارسون Talcott Parsons فى مقدمه كتاب ماكس فيبر Ma Weber (نظرية التنظيم الاجتماعى والاقتصادى) The Theory of Social and Economic Organization ٢٧ — أنظر كذلك ملاحظات عن « فرويد » فى الفصل السادس .

فردا ، والتاريخ الذى يدرس جزءا من كل، والايحاء بأن الكتابة الطيبة للسير تصنع تاريخا رديئاً . لقد كتب « اكتون » مرة « ليس هناك مايحدث خطأ وجورا لنظرة الإنسان إلى التاريخ أكثر من الشغف المنبعث من الشخصيات الفردية » (١) ولكن هذه التفرقة أيضاً ليست حقيقية، وانى لا أود كذلك أن أحتمى بالمثل الذى ذكره « يونج » G. M. Young فى الصفحة الافتتاحية لكتابه « انجلترا فى عصر فيكتوريا » Victorian England بقوله « إن الخدم يتحدثون عن الناس، أما أفاضل الناس فإنهم يتحدثون عن الأشياء (٢) » . لقد أسهمت بعض السير مساهمة جدية فى التاريخ . وقد صادفت فى مجال أبحاثى سيرتى Issac Deutscher عن «ستالين» و «تروتسكى» ، وهما مثلان بارزان . وتتبع بعض السير الأخرى الأدب ، مثل الرواية التاريخية . ولقد كتب الأستاذ تريفور روبر Trevor Roper «كانت المشكلات التاريخية لدى (ليتون ستراتسى) مشكلات سلوك فردى .. وشذوذ فردى فقط ، ولم يعمل للإجابة ولا حتى للسؤال عن مشكلات السياسة والاجتماع (٣) » . وليس هناك أحد مرغما على كتابة التاريخ أو قراءته . ومن المستطاع كتابة كتب جيدة

---

(١) ص ٢١٩ عدد يناير سنه ١٨٦٣ من مجلة Home and Foreign Review

(٢) لقد اهتم بهذه الفكرة هربرت سبنسر « بأسلوبه الوقور للغاية فى كتابه «دراسة علم الاجتماع » The Study of Sociology. الفصل الثانى ، وقال: «إذا أردت أن تقدر مدى عقل أى إنسان ، فإنك لن تستطيع أن تفعل ذلك بطريقة أفضل من ملاحظة النسبة بين الأمور العامة والأمور الشخصية فى حديثه. وإلى أى قدر تحل الحقائق المجردة من عديد من تجارب الناس والأشياء محل الحقائق البسيطة عن الأفراد، وإنك بعد أن تفرغ هكذا من النظر فى الكثير منها سترى أن عدداً قليلا متناثراً هو الذى قد يصلح لأن لا يكون أكثر من نظرة بيوجرافية إلى الأمور الإنسانية .

(٣) ص ٢٨١ من كتاب تريفور روبر Trevor Roper « مقالات تاريخية » (Historical Essay.s) سنة ١٩٥٧

عن الماضى، دون أن تكون تاريخا — ولكننا بحكم العادة كما أرى فى هذه المحاضرات نحتفظ بكلمة « تاريخ » لعملية البحث فى ماضى الإنسان فى المجتمع .

النقطة الثانية — على سبيل المثال، إن التاريخ يهتم بالبحث « لماذا قام الناس بأفعالهم وفقاً لتقديرهم » تبدو للوهلة الأولى مستهجنة، وإننى أشك فى أن الآنسة « ودجوود » لا تمارس ما تنصح به، مثل أغلب العقلاء من الناس . . فإذا كانت تفعل ذلك، فلا بد أنها تكتب تاريخاً غريباً للغاية . فكل إنسان يعرف اليوم أن الناس لا يقومون بأفعالهم على الدوام ، أو ربما عادة وفقاً لدوافع يدركونها إدراكا واعياً ، أو يرغبون فى المجاهرة بها . وأن استبعاد النفاذ إلى الدوافع اللاشعورية ، التى لم يجاهر بها ، لهو بالتأكيد إقدام على عمل مع إغماض إحدى العينين عنه . وأن هذا مع ذلك، وفقاً لما يراه بعض الناس هو ما يجب أن يقوم به المؤرخون . والمسألة هى الآتى ، ما دمت قانعاً بالقول بأن رداءة الملك جون ترجع إلى طمعه أو غبائه أو طموحه للقيام بدور الطاغية ، فأنت تتكلم بلغة الخصائص الفردية المفهومة حتى فى مستوى تاريخ رياض الأطفال ، ولكنك إذا بادرت بالقول بأن الملك جون كان الأداة غير الواعية للمصالح المدبرة، المعارضة لبزوغ سلطة البارونات الإقطاعيين ، فإنك لن تقدم نظرة أكثر تعقيداً وتكلفاً عن رداءة الملك جون فحسب ، بل سيبدو أنك توحى بأن الذى يقرر الأحداث التاريخية ليس فقط الأفعال الواعية للأفراد، بل قوى عرضية قوية توجه رغباتهم اللاواعية . وهذا بالطبع هراء . وبالنسبة لى ، فإننى لا أعتقد فى وجود عناية إلهية مقدسة أو روح للعالم ، ومصير واضح للعين ، أو تاريخ بالحرف الكبير ، أو أى شىء من التجريدات التى افترض فى وقت ما أنها توجه مجرى الأحداث ، وإننى سوف أقر دون تحفظ تعقيب ماركس القائل :

« إن التاريخ لا يصنع شيئاً ، فليس لديه ثروة طائلة ، وهو لا يحارب أى معارك . فالواقع أن الذى يفعل كل شىء هو الإنسان الذى يحيا حقاً والذى يملك والذى يحارب » (١) .

إن الملاحظتين اللتين سأذكرهما عن هذه المسألة لا تمتان بصلة إلى أية نظرة مجردة إلى التاريخ ، وهما ترتكنان إلى مشاهدات تجريبية محضة .

الملاحظة الأولى : هى أن التاريخ إلى حد كبير مسألة أعداد . . لقد كان « كارلايل » مسئولا عن القول غير الموفق بأن « التاريخ هو سيرة عظماء الرجال » ولكن استمع إليه فى أعظم مؤلفاته التاريخية وأكثرها بلاغة وهو يقول :

« إن الدافع الأول للثورة الفرنسية هو الجوع والعرى ، والاضطهاد باسم العدل الجاثم على أفئدة خمسة وعشرين مليونا . هذا وحده هو الدافع ، وليس التفاهات المجروحة أو الفلسفات المتناقضة لمحامين الفلاسفة ، وأصحاب الحوانيت الأغنياء ونبيلات الريف ـــ وهذا ما يحدث فى كل الثورات المماثلة فى جميع البلدان (٢) » . أو كما قال لينين : « السياسة تبدأ حيثما توجد الكتل ، لا حيث توجد ألوف ، بل حيث توجد الملايين . هذا هو الموضوع الذى تبدأ فيه السياسة الجدية (٣) » . لقد كانت الملايين التى تكلم عنها كارلايل ولينين هى ملايين من الأفراد ، فلم يكن بينها شىء لاشخصى .

---

(١) المؤلفات الكاملة Gesamtausgabe الجزء الأول Marx Engels ص ٦٢٥

(٢) تاريخ الثورة الفرنسية تأليف كارلايل الفصل الثالث . History of the French Revolution .

(٣) لينين مؤلفات مختارة صفحة ٢١٥

وتخلط المناقشات الخاصة بهذه المسألة أحياناً بين كون الناس غير معروفى الاسم وبين اللاشخصية ، ولا تتوقف صفة الشعوب بوصفها شعوباً أو صفة الأفراد باعتبارهم أفراداً ، لأننا لا نعرف أسماءهم . إن « قوى » مستر إليوت اللاشخصية الهائلة ، كانت الأفراد الذين وصفهم كلارندون Clarendon وهو محافظ أكثر شجاعة وصراحة بأنهم « الناس القذرون الذين لا اسم لهم (١) » . إن هؤلاء الملايين المجهولى الأسماء ، كانوا أفراداً يعملون بغير وعى إلى حد كبير أو يسير سوياً ، ويكونون قوة اجتماعية — والمؤرخ ليس بحاجة فى الظروف العادية لأن يحاط علماً بفلاح مفرد متذمر أو بقرية متذمرة ، ولكن ملايين من الفلاحين المتذمرين ، وآلاف من القرى عامل لا يستطيع أى مؤرخ تجاهله . إن الأسباب التى عاقت جونز عن الزواج لا تهم المؤرخ إلا إذا عانى من نفس الأسباب كذلك ألوف من الأفراد الآخرين من جيل جونز ، وترتب على ذلك هبوط جوهرى فى معدل الزواج . فى هذه الحالة قد يصبحون ذوى أهمية تاريخية . وليس هناك مايدعو لأن تزعجنا التفاهة القائلة : إن قلائل هم الذين يبدأون الحركات التاريخية . لقد كان لكل الحركات المؤثرة قادة قلائل وجمع من التابعين ، ولكن هذا لا يعنى أن الجموع غير ضرورية لنجاحها . . إن الأعداد لها حساب فى التاريخ .

---

(١) ، كلارندون Clarendon — ABrief Survey of the dangerous & pernicious Errors To Church & State in Mr Hobbes Book entitled Leviathan

(بحث فى الأخطاء الخطيرة والهدامة عن الكنيسة والدولة فى كتاب هوبز المسمى لفيتان) سنة ١٦٧٦ ص ٣٢٠

وملاحظتي الثانية تمتمد على برهان قد يكون مثبتاً بطريقة أفضل . لقد التقى كتاب من عدة مدارس فكرية مختلفة في ملاحظة أن لأفعال الأفراد نتائج لم تكن مقصودة أو مرغوبة لدى من قاموا بها أو لم يقصدها بحق أي فرد آخر . ويعتقد المسيحيون أن الفرد في عمله واعياً من أجل غاياته الأنانية إنما هو فاعل غير واع لغايات الله . وأن قول « ماندفيل » «Mandeville» ، « رذائل الأفراد — صالح الشعب» لهو تعبير مبكر ، ويعبر تعبيراً متناقضاً ومقصوداً عن هذا الاكتشاف . وكلمات « آدم سميث » « اليد الخفية » ، « ومكر العقل » ، « لهيجل » ، في وصف القوى التي تدفع الأفراد للعمل من أجلها ولخدمة غاياتها وإن ظنوا أنهم يشبعون رغباتهم الشخصية لتعبيرات مألوفة ولا حاجة لتكرارها . لقد كتب ماركس في تمهيد لكتابه « نقد الاقتصاد السياسي » : « إن الناس يشتركون في صلات محددة وضرورية مستقلة عن إرادتهم عند القيام مجتمعين بإنتاج وسائلهم الإنتاجية » ، وكتب « تولستوى » في كتاب (الحرب والسلام) مردداً قول آدم سميث « الإنسان يعيش واعياً لنفسه ، ولكنه أداة لاواعية لتحقيق الغايات التاريخية والعالمية الإنسانية (١) » . والآن لإكمال هذه المقتطفات التي قد غدت طويلة للغاية أذكر قول الأستاذ « بترفيلد » Butterfield « إن ثمة شيئاً في طبيعة الأحداث التاريخية يؤدى إلى انحراف مجرى التاريخ إلى اتجاه لم يقصده أحد قط » (٢) . وقد صادفنا منذ سنة ١٩٤١ وبعد مائة سنة من حروب صغيرة محلية فقط حربين عالميتين كبيرتين ، ولن يكون تفسير هذه الظاهرة مستصوبا إذا قيل : إن الأفراد الذين رغبوا في الحرب في النصف الأول من القرن العشرين ، كانوا أكثر

---

(١) تولستوى في كتابه « الحرب والسلام » War & Peace

(٢) باترفيلد The Englishman & his History (سنة ١٩٤٤) (الإنجليزى وتاريخه) ص ١٠٣ .

عدداً ، وأن الأفراد الذين أرادوا السلم كانوا أقل عدداً من الأفراد في الخمس والسبعين سنة الأخيرة فى القرن التاسع عشر . ومن الصعب الاعتقاد أن أى فرد قد أراد أو رغب فى الأزمات الاقتصادية الكبيرة فى سنة ١٩٣٠ . غير أنه ليس من شك فى أنها قد جاءت نتيجة لأفعال الأفراد . وكان كل منهم يسعى واعيا لغاية مختلفة تماما ... كما أن تشخيص الفارق بين نيات الفرد ونتائج أفعاله ، ليس فى حاجة دائما لانتظار مؤرخ متأمل للماضى . ولقد كتب « لودج » Lodge عن « ودرو ويلسون » فى مارس سنة ١٩١٧ « أنه لم يكن يعنى الذهاب إلى الحرب ، ولكننى أعتقد أن الحوادث ستسوقه إليها » (١) . إن القول بأن التاريخ يمكن كتابته اعتماداً « على تفسيرات فى صورة نيات إنسانية (٢) ، أو بيانات يذكرها من قاموا بالفعل أنفسهم عن دوافعهم التى دفعتهم . وفقا لتقديراتهم للقيام بأفعالهم كما فعلوا » ليعنى تجاهل كل دليل . إن وقائع التاريخ هى بحق وقائع عن الأفراد ، ولكنها ليست خاصة بأفعال أفراد قد تمت فى عزلة ، أو بدوافع حقيقية أو خيالية يفترض الأفراد أنهم قاموا بأفعالهم لأجلها. إنها وقائع خاصة بصلات الأفراد بعضهم ببعض فى المجتمع . وهى خاصة بالقوى الاجتماعية التى تنتج من أفعال الأفراد نتائج تختلف غالبا ، وفى بعض الأحيان تتعارض مع النتائج التى كانت مقصودة لهم أنفسهم .

ومن أهم أخطاء رأى كولنجوود فى التاريخ الذى ناقشته فى محاضرتى السابقه الزعم بأن الفكر وراء الفعل الذى يراد من المؤرخ بحثه ، هو فكر الفاعل الفرد . إن هذا لزعم باطل . إن ما يراد من المؤرخ بحثه هو مايكمن

(١ اقتبسها « توشمان Tuchman فى كتاب The Zimmerman Telegrm (نيويورك ١٩٠٨) ص ١٨٠

(٢) هذه الجملة مأخوذة من كتاب « برلين » « الحتمية التاريخية » Historical Inevitability ١٩٥٤ ص ٧ وفى هذا الكتاب إقترح كتابة التاريخ بإتباع هذه الطريقة .

وراء الفعل . وقد لا يكون بينه و بين الفكر الواعى أودافع الفرد الذى قام بالعمل أى ارتباط .

وهنا ينبغى أن أذكر شيئاً ما عن الثائر أو الشخص المنشق فى التاريخ . ويعنى تقديم الصورة المشهورة للفرد ، فى ثورة على المجتمع اعادة تقديم التعارض الباطل بين المجتمع والفرد ، ولا يمكن وجود مجتمع متجانس تجانسا كاملا . ان كل مجتمع حلبة للمشاحنات الاجتماعية . ولا يقل الأفراد الذين يناصبون السلطات القائمة العـــداء عن أولئك الذين يناصرونها من ناحية صدورهم عن المجتمع وعكسهم له. لقد مثل « ريتشارد الثانى» و« كاترين العظمى » قوى اجتماعية قوية فى انجلترا فى القرن الرابع عشر ، وفى روسيا فى القرن الثامن عشر ، ولكن كذلك مثـــل وات تيلر « Wat Tyler » ، وبوجاشتيف Pugachev قائد ثورة العبيد العظمى . إن الملوك والثوار على حد سواءهم من نتائج الأحوال الخاصة بعصرهم ودولهم . وإن وصف «وات تيلر» أو «بوجاشتيف» أفرادا فى ثورة ضد هذا المجتمع لهو تبسيط مضلل . فلو كانوا كذلك لحسب لمـا سمع المؤرخ عنهم قط . إنهم مدينون بدورهم فى التاريخ للجموع التى اتبعتهم ، ولهم أهمية بوصفهم ظواهر اجتماعية وإلا لمـــا كان لهم أية أهمية على الإطلاق . ولنذكر مثلا — لثائر بارز وفردى فى مستوى أكثر تعقيدا . إن قلائل هم الذين قاموا برد فعل ضد مجتمع عصرهم ودولتهم أكثر عنفا وأشد تطرفا من « نيتشه » ، غير أن نيتشه كان من النتائج المباشرة للمجتمع الأوربى وبصفة أخص للمجتمع الألمانى — وهو ظاهرة كان لا يمكن أن تحدث فى الصين أو بيرو . ولقد بدا فى صورة أكثر وضوحا بعد جيل من وفاة نيتشه ـ أكثر مما كان واضحاً لمعاصريه ـ مدى قوة القوى الاجتماعية فى أوربا ، وبصفة خاصة فى ألمانيا ، التى كان « نيتشه » يعبر عنها . وأصبح « نيتشه » شخصية أكثر أهمية للأخلاف مما كان لجيله .

وهناك أوجه شبه بين دور الثائر فى التاريخ ودور الرجل العظيم . وقد أصبحت نظرية الرجل العظيم فى التاريخ فى السنين الأخيرة مثل — مذهب الملكة « بس » Bess الطيبة — لا تساير الزمن ، وإن كانت ما زالت تطل برأسها بفظاظة بين حين وآخر . فقد دعا مشرف على سلسلة من الكتب التاريخية الشعبية التى ظهرت بعد الحرب مؤلفيه إلى الكشف عن موضوع تاريخى هام بتقديم سيرة لرجل عظيم . وذكر تايلور Mr. A.J Taylor فى إحدى مقالاته القصيرة « إنه يمكن كتابة تاريخ أوربا بالكتابة عن ثلاثة عمالقة هم نابليون وبسمارك ولينين(١) » وإن كان لم يقم فى كتاباته الأكثر جدية بمثل هذا الإسفاف . فما هو دور الرجل العظيم فى التاريخ؟ إن الرجل العظيم فرد ، وكونه فردا بارزا، هو كذلك ظاهرة اجتماعية ذات أهمية بارزة. وكما لاحظ « جيبون » إنها لحقيقة واضحة ، أنه يجب أن تكون الأزمنة ملاءمة للشخصيات غير العادية ، وأنه ربما انتهت عبقريات مثل « كروموبل » أو « ريتس » Retz لو ظهرت فى الوقت الحالى ، فى زوايا الخمول وغموض الشأن (٢) . وشخص ماركس فى كتابه « بروميير الثامن عشر للويس بونابرت The Eighteenth Brumaire of Louis Bonaparte الظاهرة المضادة بقوله « لقد خلقت الحرب الطبقية فى فرنسا ظروفا وصلات يسرت لعدد كبير من الأفراد العاديين السير بخيلاء فى أثواب الأبطال » . ولو أن بسمارك ولد فى القرن الثامن عشر — وهو فرض سخيف لأنه فى هـــذه الحالة لن يكون بسمارك — لما قام بتوحيد المانيا وربما لم يصبح رجلا عظيما على الإطلاق ، ولكننى أظن أننا لسنا بحاجة كما فعل تولستوى إلى التنديد

---

(١) كتاب من نابليون إلى ستالين From Napoleon to Stalin تأليف A . J . P Taylor سنة ١٩٥٠ ص ٤٧

(٢) كتاب «جيبون» تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها سنة ١٩٤٧ ص ٤٣ Gibbon — Decline & Fall of the Roman Empire

بالرجال العظماء ، باعتبار أنهم لا يزيدون «عن بطاقات تعطى أسماء للاحداث». وقد يكون للاعتقاد فى الرجال العظماء بالطبع عواقب سيئة . فسوبرمان «نيتشه» شخصية منفرة . وليس ضروريا أن أذكر بمثل هتلر، أو بالعواقب البشعة لعبادة الشخصيات فى الاتحاد السوفيتى . ولكن غايتى ليست هى التصغير من شأن عظمة عظماء الرجال ، كما أننى لا أود أن أسهم فى الموضوع الخاص بأن « العظماء هم فى الغالب دائما من الأشرار » . والرأى الذى آمل فى إضعافه هو الرأى الذى يجعل مكان عظماء الرجال خارج التاريخ ، ويرى فيهم شخصيات تملى ذاتها على التاريخ بحكم عظمتها مثل (١) (عفريت العلبة) الذى ينبعث بمعجزة من المجهول لكى يعترض التيار الحقيقى المستمر للتاريخ. ولا أعتقد أننا حتى اليوم نستطيع أن نفوق هيجل فى وصفه الكلاسيكى القائل : « إن الرجل العظيم فى العصر هو الرجل الذى يستطيع أن يصوغ فى كلمات ارادة عصره ، وأن يبلغ عصره ما هى إرادته ، وأن يحققها . إن ما يفعله هو جوهر عصره وماهيته .. إنه يجعل عصره حقيقة (٢) » .

ويعنى الدكتور ليفيس Leavis شيئا ما مماثلا لذلك عند ما يقول عن عظماء الكتاب : « إن أهميتهم تتوقف على مدى ماينشئون من وعى إنسانى » فالرجل العظيم يمثل شيئا على الدوام ، فهو إما أنه يمثل القوى القائمه ، أو القوى التى يساعد على خلقها عن طريق تحدى السلطة القائمة . ولكن ربما يمكن منح أعلى درجات الخلق لأولئك العظماء من الرجال ، الذين ساعدوا مثل « كروموبل » أو « لينين » على تشكيل القوى التى ساقتهم إلى العظمة ، والذين هم أكثر استحقاقا لها من أمثال نابليون

---

(١) ص ٢٩٢ من فلسفة القانون Philosophy of Right لهيجل الترجمة الإنجليزية .

(١) « التقليد العظيم» «تأليف ليفيس» The Creat Tradition — Leavis سنة ١٩٤٨ ص ٢

وبسمارك، الذين صعدوا إلى العظمة على ظهور قوى قائمة فعلا . ويجب كذلك ألا ننسى أولئك العظماء من الرجال الذين كانوا متقدمين على عصرهم، فلم تدرك عظمتهم لذلك سوى الأجيال اللاحقة . وما يبدو لى ذا قيمة رئيسية هو أن أرى فى الرجل العظيم فرداً بارزاً ، وأنه فى نفس الوقت من إنتاج التاريخ، ويقوم بدور فعال فيه، وأنه ممثل لقوى اجتماعية تشكل العالم وأفكار الناس، وفى نفس الوقت خالقها .

التاريخ إذن بكلا المعنيين للكلمة — أن بمعنى البحث الذى يقوم به المؤرخ، وبمعنى وقائع الماضى التى يبحثها معا، هو عملية اجتماعية فيه الأفراد يعملون بوصفهم كائنات اجتماعية، ولا يزيد التعارض الوهمى بين المجتمع والفرد عن اعتراض تافه وضع فى طريقنا لبلبلة تفكيرنا . وعملية التفاعل المتبادل بين المؤرخ ووقائعه، أو ما أسميه بالحوار بين الحاضر والماضى، هو حوار ليس بين أفراد مجردين منعزلين، بل بين مجتمع اليوم ومجتمع الأمس . فالتاريخ كما يقول «بوركار» «هو سجل لما رآه عصر يستحق الذكر فى عصر آخر(١)» . والتاريخ يصبح مفهوماً لنا على ضوء الحاضر . ونحن نستطيع أن نفهم الحاضر الفهم كله على ضوء الماضى فقط . والوظيفة المزدوجة للتاريخ هى تمكين الإنسان من فهم مجتمع الماضى، وزيادة سيطرته على مجتمع الحاضر .

---

(١) «بوركار» Judgments on History & Historians
سنة ١٩٥٩ ص ١٥٨ (أحكام عن التاريخ والمؤرخين)

٣ — التاريخ والعلم والأخلاق

عندما كنت صغيراً جداً تأثرت تأثرا مناسبا ، عندما عرفت أن الحوت بالرغم من مظهره ليس بسمكة . والآن قد غدت هذه المسائل الخاصة بالتصنيف أقل أثرا عندى . فلا يقلقنى قلقا بالغا ، أن يؤكد لى أن التاريخ ليس بعلم . ومشكلة المصطلحات هى مشكلة شاذة خاصه باللغة الإنجليزية ،ففى اللغات الأوربية الأخرى ، تتضمن الكلمة المرادفة لكلمة « علم » التاريخ بغير تردد . ولكن فى العالم الناطق بالانجليزيه ، هناك ماض طويل وراء هذه المشكلة . وتعد الخلافات التى تثار حولها مقدمة مناسبة لمشكلات المنهج فى التاريخ .

وفى نهاية القرن الثامن عشر ، عندما أسهم العلم مساهمة ظافرة فى كل من معرفة الإنسان بالعالم ، ومعرفة الإنسان بصفاته الطبيعية ، بدأ السؤال عن هل يستطيع العلم كذلك أن يزيد معرفة الإنسان بالمجتمع . وقد تقدم التصور الخاص بالعلوم الاجتماعية ومن بينها التاريخ تقدما تدريجيا خلال القرن التاسع عشر . واستخدم المنهج المتبع فى دراسة عالم الطبيعة فى دراسة المسائل الإنسانية . وسادت فى النصف الأول من هذا العصر التقاليد النيوتونية . ونظر إلى المجتمع كما نظر إلى عالم الطبيعة بوصفه شيئا آليا . ومازلنا نذكر عنوان كتاب « هربرت سبنسر » ، الأستاتيكا الاجتماعية ، الذى نشر سنة ١٨٥١ . وقد تذكر « برتراند رسل » الذى نشأ فى هذا العهد أخيراً الوقت الذى كان يأمل فيه أن يأتى الوقت الذى تظهر فيه رياضيات خاصة بالسلوك الإنسانى مشابهة فى دقتها لرياضيات الآلات(١). ثم أحدث داروين بعد ذلك ثورة علمية ، ثم بدأ المفكرون الاجتماعيون مقتدين بعلم الإحياء يفكرون فى المجتمع بوصفه كائنا عضويا . ولكن الأهمية الحقيقية للثورة الداروينية ، هى أن داروين مكملا ما كان قد بدأه

---

(١) « رسل » صورة من الذاكرة Portraits from Memory

« ليل » Lyell فعلا فى « الجيولوجيا » قد دفع التاريخ لأن يكون علما . فلم يعد العلم يهتم بأشياء ثابتة بغير زمن (١) ، بل بعملية التغير والتطور . وأكد التطور فى العلم التقدم فى التاريخ ، وأكمله . ولم يحدث مع ذلك شيء من أجل تغيير النظرة الاستقرائية للمنهج التاريخى التى شرحتها فى محاضرتى الأولى : اجمع وقائعك أولا ثم فسرها بعد ذلك . فقد افترض بغير جدال أن هذا هو منهج العلم كذلك . وكان هذا هو الرأى الذى جال بخاطر « بيورى » بكل وضوح عندما وصف التاريخ فى الكلمات الأخيرة من محاضرته الافتتاحية فى يناير سنة ١٩٠٣ « بأنه علم لا أكثر ولا أقل » . وشاهدت الخمسون سنة التى أعقبت محاضرة «بيورى» الافتتاحية رد فعل قوى معارض لهذه النظرة إلى التاريخ . فعندما كتب كولنجوود سنة ١٩٣٠ كان تواقا بصفة خاصة إلى إقامة حد فاصل بين عالم الطبيعة الذى هو موضوع البحث العلمى ، وعالم التاريخ ، وفى خلال هذه الفترة ندر اقتباس حكمة «بيورى» إلا على سبيل السخرية ، ولكن ما أخفق المؤرخون فى ملاحظته فى هذا الوقت هو أن العلم نفسه قد صادف ثورة عميقة مما يؤدى إلى الاعتقاد بأن رأى « بيورى » ربما كان أكثر صحة مما افترضنا ، وإن كان هذا من أجل سبب آخر مختلف . فإن ما قام به « ليل » Lyell من أجل الجيولوجيا ، و « داروين » من أجل علم الأحياء ، قد جرى لعلم الفلك الذى أصبح علما خاصا بكيف تحققت الصورة الحالية للكون . ويذكر لنا الطبيعيون المحدثون دواما أنما يقومون ببحثه ليس الوقائع بل الأحداث . ويلتمس بعض العذر للمؤرخ عندما يحس أنه لم يعد يشعر بغرابة فى عالم العلم الآن ، كما كان يحدث منذ مائة عام مضت .

فلننظر أولا إلى تصور القوانين . لقد افترض العلماء خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أن قوانين الطبيعة — قانون نيوتن للحركة وقانون الجاذبية وقانون بويل ، وقانون التطور ، وما شابه ذلك قد تم اكتشافها وتوطيدها توطيداً محدداً وأن مهمة العالم هى

---

(١) قد فرق « برادلى » سنة ١٨٧٤ بين العلم والتاريخ ، باعتبار أن العلم يهتم باللازمنى والباقى — ص ٣٦ Collected Essays (مقالات مجمعة) ١٩٣٥

اكتشاف قوانين أخرى تشابها بوساطة عملية الاستقراء من الوقائع المشاهدة وجاءت كلمة « قانون » فى أثر ذلك عن طريق جاليليو ونيوتن واتبع الدارسون للمجتمع عن وعى أو عن غير وعى فى رغبتهم تقرير المكانة العلمية لدراستهم نفس اللغة ، واعتقدوا أنهم يتبعون نفس الطريقة. ويبدو أن علماء الاقتصاد السياسى إذ دخلوا الميدان ، بقوانين « جريشام » وقوانين السوق «لآدم سميث». كانوا أول من طرق هذا المجال ،فقداستشهد « بورك » Burke بقوانين التجارة التى هى قوانين الطبيعة ، وبالتالى قوانين الله (١) . وقدم « مالتوس » قانون السكان ، كما قدم « لا سال »قانونا صارما للأجور . وادعى « ماركس » فى مقدمة كتابه « رأس المال » ، أنه قد أتم اكتشاف القانون الاقتصادى لحركة المجتمع الحديث ، وقد عبر « بكل » Buckle فى الكلمات الختامية لكتاب « تاريخ الحضارة فى بريطانيا ؛ History of Civilizarion in England عن الاعتقاد بأنه يتخلل مجرى الأمور الإنسانية « مبدأ مجيد للانتظام العالمى الذى لا ينحرف » . واليوم يبدو هذا الاصطلاح باليا وفيه ادعاء . وهو يبدو باليا عند عالم الطبيعة مثلما يبدو لعالم الاجتماع . فقد نشر الرياضى الفرنسى هنرى بوانكاريه فى السنة التى سبقت محاضرة « بيورى » الافتتاحية كتيبا صغيرا يدعى « العلم والفرض » La science et l'hypothese بدأ به ثورة فى التفكير العلمى. وكان الموضوع الرئيسى لبوانكاريه هو أن القضايا العامة التى يقررها العلماء ، عندما لا تكون مجرد تعريفات ، أو قواعد مقنعة متفق عليها خاصة باستخدام اللغة ، فإنها لا تكون سوى فروض يقصد بها بلورة أى فكر يأتى بعد ذلك وتنظيمه ، وأنها قابلة للبرهنة والتعديل والنقض .. وكل هذا قد غدا اليوم مألوفا ، وأن زهو نيوتن بالقول Hypotheses non fingo (فروض غير مخترعة) يبدو اليوم أجوف . وبرغم أن العلماء وربما علماء الاجتماع مازالوا أحيانا يتكلمون عن القوانين، إحياء لذكرى العهود القديمة كما يقال. فإنهم لم يعودوا يعتقدون فى وجودها بالمعنى الذى اعتقده علماء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر اعتقادا كليا . فمن المسلم به أن العلماء يقومون

الاكتشاف وتحصيل معارف جديدة ، ليس بإثبات قوانين دقيقة ومفهومة. بل بذكر فروض تفتح الطريق أمام البحث الجديد . وقد وصف مرجع عن المنهج العلمى كتبه فيلسوفان أمريكيان ، منهج العلم بأنه : فى جوهره « دائرى » ، فقد قالا :

« نحن نحصل على أدلة خاصة بالمبادىء بالرجوع إلى المادة التجريبية ، أى ما يزعم أنه « واقعة » . ونحن ننتقى المادة التجريبية ونحللها ونفسرها ، اعتمادا على المبادىء (١) » .

ربما كان من الأفضل استخدام كلمة « متبادل » بدلا من «دائرى» ، لأن النتيجة لن تعود إلى نفس الموضع الذى بدأت منه ، بل هى تتحرك إلى الأمام إلى اكتشافات جديدة بوساطة هذه العملية الخاصة بالتفاعل بين المبادىء والوقائع ، وبين النظرية والممارسة . إن التفكير بأسره فى حاجة إلى قبول افتراضات سابقة معينة، تعتمد على المشاهدة لكى يكون التفكير العلمى ممكناً ، ولكن هذه الافتراضات السابقة قابلة للمراجعة على ضوء هذا التفكير . وهذه الفروض قد تكون صحيحة فى بعض المقامات أو لبعض الغايات ، وإن كانت تبدو غير صحيحة فى غيرها ، ومعيار صلاحيتها فى كل الحالات للحصول على استبصارات جديدة ، والإضافة إلى معرفتنا ، هو المعيار التجريبى . ولقد وصف أحد تلاميذ رزرفورد « Rutherford » الممتازين والمساعدين له ، مناهجه بأنها :

« لقد كانت لديه قوة دافعة لأن يعرف كيف تعمل الظواهر النووية ، بنفس الطريقة التى نتكلم بها عن معرفة ما يجرى فى غرفة الطهى . وإنى

---

(١) « كوهن ، ناجل » M. R. Cohen & Nagel مقدمة للمنطق والمنهج العلمى Introduction to Logic & Socientific Method. سنة ١٩٣٤ ص ٥٩٦

لا أعتقد أنه كان يسعى للحصول على تفسير للنظرية بالمعنى الكلاسيكى ، باستخدام قواعد رئيسية. فقد كان يشعر بالرضا ما دام يعرف ما يحدث (١)،

إن هذا التفسير يلائم بالمثل المؤرخ ، الذى نبذ البحث عن القواعد الرئيسية ، وقنع بالبحث عن كيف تعمل الأشياء .

ويبدو أن مكان الفروض التى يستخدمها المؤرخ فى عملية بحثه مشابهة للفروض التى يستخدمها العالم . انظر مثلا إلى تشخيص ماكس فيبر « Max Weber » الشهير ، للصلة بين البروتستانتية والرأسمالية . إن أحداً لا يسمى هذا اليوم قانونا ، وقد كان من الممكن وصفه كذلك فى زمن سابق. إنه فرض وإن كان قد تعدل إلى حد ما على ضوء الأبحاث التى أوحى بها ، إلا أنه بغير شك قد وسع فهمنا لكلتا الحركتين . أو لننظر إلى قضية مثل قول ماركس: « إن الآلة اليدوية تقدم لنا مجتمعا فيه السيد الإقطاعى، والآلة البخارية تقدم مجتمعا فيه الرأسمالى الصناعى (٢) » . إن هذا وفقا للاصطلاح الحديث ليس بقانون . وإن كان ماركس قد رآه هكذا ، ولكنه فرض مثمر يوضح الطريق إلى أبحاث أخرى ، وإلى فهم جديد . إن مثل هذه الفروض أدوات لا غنى عنها للفكر . وقد اعترف الاقتصادى الألمانى المعروف فرنر زومبارت Werner Sombart سنة ١٩٠٠ بوجود «مشاعر مضطربة» قد دهمت أولئك الذين نبذوا الماركسية » ، وكتب :

---

(١) سير تشالز اليس فى مجلة Trinity Review كامبردج سنة ١٩٦٠ ص ١٤

(٢) ماركس وانجلز : مؤلفات كاملة « Gesamtausgabe » الجزء الأول — الفصل الرابع ص ١٧٩ .

« إننا نشعر عندما نفقد القواعد المريحة التى كانت ترشدنا إلى الآن وسط تعقيدات الوجود .... مثل الغرقى فى محيط الوقائع ، إلى أن نعثر على مأمن قدم آخر ، أو نتعلم العوم (١) » .

وتقع المشاحنة حول تقسيم التاريخ إلى عصور تحت هذه الفئة من المشكلات . فإن تقسيم التاريخ إلى عصور ليس بواقعة ، ولكنه فرض ضرورى أو أداة للفكر ، تعد صحيحة مادامت تساعد على الايضاح ، وتعتمد فى صحتها على التفسير . إن المؤرخين الذين يختلفون حول المسألة الخاصة ، بمتى كانت نهاية العصور الوسطى ، يختلفون فى تفسيرهم لأحداث معينة . ولا ترجع المسألة إلى واقعة ، كما أنها ليست كذلك بغير معنى . كما أن تقسيم التاريخ إلى قطاعات جغرافية ليس بواقعة كذلك ، بل هو فرض ، وقد يكون الكلام عن التاريخ الأوربى فى بعض المقامات فرضا صحيحا ومثمرا ، ومضللا ومؤذيا فى مقامات أخرى .. ويفترض أغلب المؤرخين أن روسيا قطعة من أوربا ، وينكر البعض ذلك بحماسة . ويمكن الحكم على انحياز المؤرخ وفقا للفرض الذى يتبعه . ومن الواجب أن أقتبس قولا خاصا بمناهج العلوم الاجتماعية ، لأنه قد صدر عن عالم اجتماعى عظيم ، تعلم باعتباره عالما طبيعيا . فقد أكد « جورج سوريل ، Georges Sorel — الذى مارس الهندسة قبل أن يبدأ فى أربعينياته الكتابة حول مشكلات المجتمع — الحاجة إلى عزل عناصر معينة فى أى موقف ، حتى لو ترتب على ذلك الإسراف فى التبسيط وكتب قائلا :

« يجب على المرء أن يتقدم بتلمس طريقه ، فمن الواجب محاولة

---

(١) زومبارت W. Sombart (الترجمة الانجليزية ١٩١٥) ص ٣٥٤ بعنوان The Quintessence of Capitalism (جوهر الرأسمالية) .

استخدام فروض احتمالية وجزئية ،والقناعة بتقريبات مؤقتة ، وذلك حتى يترك الباب دائما مفتوحا أمام التصحيحات المتجددة [١] » .

هذه صيحة جاءت من بعيد ، من القرن التاسع عشر ، عندما كان العلماء والمؤرخون مثل أكتون يترقبون اليوم ، الذى يهتدون فيه عن طريق تجميع الوقائع المحققة إلى مجموعة من المعارف المفهومة التى تحسم كل نزاع إلى الأبد . والآن يأمل كل من العلماء والمؤرخين أملا أكثر تواضعا . وهو الانتقال التقدمى من فرض جزئى إلى آخر ، مع تنقية وقائعهم عن طريق تفسيراتهم مما يشوبها ، واختيار تفسيراتهم بالرجوع إلى الوقائع . ولا تبدو لى الطريقة التى يتبعونها مختلفة اختلافا رئيسيا . وفى محاضرتى الأولى اقتبست ملاحظة للأستاذ براكلاو Barraclough خاصة بأن التاريخ « ليس مكونا من وقائع على الإطلاق، بل هو سلسلة من الأحكام المقبولة» . وفى أثناء قيامى بتحضير هذه المحاضرات عرف عالم طبيعى — من هذه الجامعة فى إذاعة له فى محطة لندن — الحقيقة العلمية ، بأنها قضية قد أصبحت مقبولة قبولا عاما من (أو عند) المتخصصين [٢] » . والصيغتان غير كافيتين كفاية تامة ؛ لأسباب سيأتى ذكرها عندما أشرع فى مناقشة مسألة الموضوعية . ولكن ما يدعو للدهشة هو العثور على مؤرخ وعالم طبيعى ، يعبر كل منهما ـ مستقلا عن الآخر ـ عن نفس المشكلة بنفس الألفاظ تقريبا .

والتمثيل هو مع ذلك مصيدة لغير الحذر : وإننى أود أن أنظر على التوالى فى أسباب الاعتقاد فى ذلك . وبالرغم من ضخامة الاختلاف بين

---

(١) ص ٧ من كتاب « جورج سوريل » Matérieux d'une théoie du proléteriat (أمور خاصة بنظرية الكادحين) (١٩١٩) .

(٢) الدكتور زيمان Ziman فى مجلة The Listener عدد ١٨ أغسطس سنة ١٩٦٠ .

العلوم الرياضية والطبيعية ، أو بين العلوم المختلفة.فمن المستطاع إقامة حدود رئيسية بين هذه العلوم والتاريخ . ومثل هذهالحدود تجعل من المضلل وصف التاريخ — (أو ربما كذلك باقى العلوم الأخرى المسماة بالاجتماعية) بالعلم . وهذه الاعتراضات — وبعضها أكثر إقناعا من الأخرى — هى باختصار: (١) أن التاريخ يبحث فى المفرد ، والعلم يعنى بالقضايا العامة . (٢) أن التاريخ لايعلم شيئا . (٣) أن التاريخ غير قادر على التنبؤ. (٤) أن التاريخ بالضرورة ذاتى ، حيث أن الانسان يقوم بمشاهدة نفسه (٥) أن التاريخ خلاف العلم يتضمن مشكلات دينية وأخلاقية . وسأحاول بحث كل من هذه النقط على التوالى .

فيقال أولا : إن التاريخ يهتم بالمفرد والجزئى ، والعلم يهتم بما هو عام وكلى .. وقد يقال: إن هذه النظرة قد بدأت مع أرسطو الذى ذكر أن الشعر أكثر فلسفة وجدية من التاريخ ، بالنظر إلى أن الشعر كان يعنى بالحقائق العامة ، والتاريخ يعنى بالجزئى (١) ، وقد قام جمع من الكتاب المتأخرين من بينهم كولنجوود(٢) بتفرقة مشابهة بين العلم والتاريخ . وتعتمد هذه التفرقة على إساءة فهم . فإن القول المأثور لـ«هوبز» ما زال صحيحا « لا شىء فى العالم كلى سوى الأسماء؛ لأن أى شىء من الأشياء المسماة فردى ومفرد (٣) » . وهذا يصدق بالتأكيد على العلوم الطبيعية . فليس هناك طبقتان جيولوجيتان أو حيوانان من نفس النوع ، أو ذرتان متساويتان . وبالمثل ليس هناك حادثتان تاريخيتان متماثلتان . ولكن الإصرار على وحدانية الأحداث التاريخية له تأثير معوق ، لا يقل أثره

---

(١) « أرسطو الشعر » Poetics الفصل التاسع .

(٢) كولنجوود فى Historical Imagination (الخيـــال التاريخى) ١٩٣٥ ص ٥ .

(٣) الجزء الرابع من Leviathan

عن الملحوظة العادية التى أخذها « مور » عن الأسقف بتلر Butler ، وأولع بها فى نفس الوقت الفلاسفة اللغويون . « إن كل شىء هو ما هو عليه ، وليس شيئاً آخر » . وأنت إذا اتبعت هذا الطريق ستصل فوراً إلى نوع من النيرفانا الفلسفية ، حيث لا يمكن قول شىء له أهمية عن أى شىء .

ويؤدى استخدام نفس المنطق بالمؤرخ كما يؤدى بالعالم إلى التعميم ، فهناك اختلاف بين الحرب البلوبونيزية والحرب العظمى الثانية. وكل منهما كانت فريدة تمتاز بفرديتها ، ولكن المؤرخ يسمى كلا منهما حربا. والمتعالم وحده هو الذى سيحتج على ذلك . ولقد كان « جيبون » (١) يعمم من حادثتين مفردتين عندما وصف توطيد المسيحية على يد « قسطنطين » وبزوغ الاسلام بأنهما ثورتان . ويفعل المؤرخون المحدثون نفس الشىء عند ما يكتبون عن الثورات الانجليزية والفرنسية والروسية والصينية . فالمؤرخ لا يهتم فى الواقع بالمفرد ، بل بما هو عام فى المفرد . وفى عشرنيات هذا القرن كانت المناقشات بين المؤرخين حول أسباب حرب سنة ١٩١٤ تدور عادة حول الزعم بأنها ترجع ، إما إلى سوء تصرف الدبلوماسيين الذين كانوا يعملون فى الخفاء أو بغير رقابة من الرأى العام ، أو إلى إنقسام العالم غير الموفق إلى دول إقليمية ذات سيادة . وفى الثلاثينات جرت المناقشات حول الزعم بأنها ترجع إلى التنافس بين القوى الاستعمارية التى أرغمتها الرأسمالية المتداعية على تقسيم العالم بينها . وقد تضمنت كل هذه المناقشات تلميحات عن أسباب الحرب ، أو على أى حال عن الحرب فى ظروف القرن العشرين . فالمؤرخ يستخدم التعميمات للتحقق من دليله ، فإذا لم يكن دليل مقتل ريشارد للأمراء فى البرج واضحاً ، فإن المؤرخ سيسأل نفسه

---

(١) جيبون ـ الفصل العشرون من Decline & Fall of the Roman Empire (تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها) .

ــ ربما بدون وعى أكثر منه بوعى ــ هل كانت عادة الحكام فى هذا العصر القضاء على المنافسين الخطرين على عروشهم ، وسوف يتأثر حكمه بحق من جراء هذا التعميم .

وقارىء التاريخ مثل كاتبه معمم مزمن ، يطبق مشاهدات المؤرخ على سياقات تاريخية أخرى يعرفها ، أو ربما كانت معروفة لزمانه ، وإننى كلما قرأت كتاب «كارليل» الثورة الفرنسية ، أرى أننى قد قمت بتعميم تعقيباته المرة بعد الأخرى ، بتطبيقها على ما يهمنى بصفة خاصة فى الثورة الروسية . فتأملوا مثلا ما قاله عن الذعر :

« إن الذعر شىء مروع فى البلاد التى عرفت المساواة العادلة ، وليس بالشىء غير الطبيعى فى البلاد التى لم تعرفها قط » .

أو هذا القول الأكثر أهمية : « إنه لمن سوء الطالع وإن كان طبيعياً للغاية أن يكون تاريخ هذه الحقبة قد كتب على العموم فى حالة هستيرية .. المبالغة تسود ، والسباب يطن فى الآذان .. وبصفة عامة..ظلام (١) » . أو مثلا آخر نقلا عن «بوركار» هذه المرة خاصا بنمو الدولة الحديثة فى القرن السادس عشر .

« كلما كانت نشأة السلطة حديثة كلما قل بقاؤها بغير تزعزع وقلاقل . . أولا لأن الذين خلقوا هذه السلطات قد أصبحوا معتادين الحركات السريعة المستمرة ، ولأنهم مجددون وسيظلون كذلك بحكم طبيعتهم per se ،

---

(١) كارلايل Histoy of the French Revolution الفصل ٩ والفصل الأول (تاريخ الثورة الفرنسية) .

ثانياً لأن القوى التى أثاروها أو أخضعوها يمكن استخدامها فقط لإثارة أفعال عنف أخرى (١) » .

ومن المراء القول بأن التعميم غريب عن التاريخ . إن التاريخ يحيا على تنمية التعميمات ، وكما ذكر مستر التون Elton فى جزء من أجزاء The new Cambridge History ببلاغة . « أن ما يميز المؤرخ عن جامع وقائع التاريخ هو التعميمات (٢) » . وربما استطاع أن يضيف أن هذا نفسه هو الذى يميز العالم الطبيعى من الطبيعى ، أو جامع النماذج الطبيعية . ولكن لا تفترض أن التعميم يسمح لنا بإنشاء أى نموذج واسع المدى تنطوى تحته أى أحداث معينة . ولما كان ماركس هو أحد أولئك الذين كثر اتهامهم بانشاء مثل هذه النماذج أو الاعتقاد فيها ، فإننى سأقتبس فقرة من إحدى رسائله باعتبارها وسيلة للتلخيص والإعادة ، وتضع الأمور فى نصابها . يقول ماركس فى فقرة من إحدى رسائله :

« الأحداث تتشابه بصورة تدعو إلى الدهشة ، ولكنها إذا حدثت فى وسط تاريخى مختلف ، فإنها تؤدى إلى نتائج متباينة تماما . ومن السهل العثور على مفتاح لفهم هذه الظاهرة بدراسة كل من هذه التطورات وبعضها منفصل عن البعض ، ثم مقارنتها بعد ذلك بعضها ببعض . ولكن من غير الممكن أبدا الاهتداء إلى هـــذا الفهم مع استخدام نظرية تاريخية فلسفية تقوم بلصق الأحداث ، وتعتمد قيمتها على أنها فوق التاريخ » (٣) .

---

(١) بوركار ص ٣٤ من Judgements on History & Historains (١٩٥٩) (أحكام عن التاريخ والمؤرخين) .

(٢) Cambridge Modern History ص ٢٠ (تاريخ كامبردج الحديث) -١٩٥٨

(٣) ماركس وانجلز — الطبعة الروسية ص ٣٧٨ . ولقد ظهرت الرسالة التى اقتبست منها هذه الفقرة فى الجريدة الروسية ١٨٧٧ Otechestvennye Zapiski =

إن التاريخ يعنى بالصلة بين المفرد والعام . وأنت لا تستطيع أن تفصل بينهما بوصفك مؤرخا ، أو أن تعطى أسبقية لواحدة على الأخرى أكثر مما نستطيع أن تفصل الواقعة عن التفسير .

لعل هذا هو المكان المناسب لملحوظة موجزة عن الصلة بين التاريخ وعلم الاجتماع . يواجه علم الاجتماع فى الوقت الحالى خطرين متعارضين : خطر أن يصبح نظرياً متطرفاً ، وخطر أن يصبح تجريبيا متطرفا . والخطر الأول هو أن يفقد العلم نفسه فى خضم تعميمات مجردة ، ولا معنى لها عن المجتمع بصفة عامة . والمجتمع بالحرف الكبير مضلل مثل التاريخ بالحرف الكبير . وقد قرب هذا الخطر أولئك الذين خصصوا لعلم الاجتماع المهمة الوحيدة الخاصة بالتعميم من الأحداث المفردة التى سجلها التاريخ . ولقد قيل: إن علم الاجتماع يمتاز على التاريخ لأن له قوانين(١) . أما الخطر الثانى فهو الذى تنبأ به «كارل مانهايم» Karl Mannheim منذ جيل تقريبا . وهو

= يبدو أن الأستاذ «بوبر» يربط بين ماركس ، وما يسميه بالخطأ الرئيسى للنزعة التاريخية ، وهو الاعتقاد بأنه يمكن أن تستمد الاتجاهات التاريخية أو الميول مباشرة من القوانين الكلية وحدها The Poverty of Historicism (عقم النزعة التاريخية) سنة ١٩٥٧ — وهذا هو ما أنكره ماركس تماما .

(١) يبدو أن هذا هو رأى الأستاذ «بوبر» الطبعة الثانية من كتاب (the Open Society & its enemies) (المجتمع المفتوح وأعداؤه) ص١١ ، ص ٣٢٢ من سوء الحظ أنه قد ذكر مثلا للقانون الاجتماعى الخاص بأن التقدم العلمى يحدث حيثما تقوم بحماية حرية الفكر ونقله منظمات قانونية ومنظمات تضمن حرية النقاش. لقد كتب هذا الكلام سنة ١٩٤٢ أو ١٩٤٣ ، وواضح أن ما أوحى به هو الاعتقاد بأن الديمقراطيات الغربية بفضل نظمها وتنظيماتها سوف تبقى طليعة للتقدم العلمى ، وهو اعتقاد قد بدده تطورات الاتحاد السوفيتى وبدلته فهو بعيد تماما عن أن يكون قانونا ، ولا يعد حتى تعميما صحيحا.

ما زال ماثلا تماما أمام أعيننا اليوم ، عن علم اجتماع انقسم إلى سلسلة من المشكلات الفنية المنفصلة الخاصة بإعادة التوافق الاجتماعى[1] . إن علم الاجتماع يعنى بمجتمعات تاريخية ، كل منها مفرد ممتزج بسوابق وظروف تاريخية معينة . ولكن محاولة تجنب التعميم والتفسير بالاقتصار على ما يسمى بالمشكلات الفنية الخاصة بالإحصاء والتحليل ، يعنى الدفاع بغير وعى عن مجتمع ثابت. ومن الواجب إذا أريد لعلم الاجتماع أن يكون مجالا مستمرا للدراسة أن يعنى مثل التاريخ بالصلة بين المفرد والعام ، ولكن يجب عليه كذلك أن يصبح حركيا (ديناميكيا) . . أى أن يدرس المجتمع لا فى حالة ثباته (فلا وجود لمثل هذا المجتمع) بل فى حالة التغير الاجتماعى وتطوره . وأما ما يتعلق بالمسائل الأخرى ، فإننى أكتفى بالقول إنه كلما أصبح التاريخ أكثر اجتماعية ، وكلما أصبح علم الاجتماع أكثر تاريخية ،كان هـــذا لصالح كليهما . فلندع الحد الفاصل بينهما يتسع حتى يسمح بالمرور فى كلا الاتجاهين .

مسألة التعميم وثيقة الصلة بمسألتى الثانية : وهى دروس التاريخ. والمزية الأساسية للتعميم هى أننا نحاول بوساطته التعلم من التاريخ ، أى أن نطبق الدرس المأخوذ من طائفة من الأحداث على طائفة من الأحداث الأخرى . ونحن عند ما نعمم نحاول بوعى أو بغير وعى أن نقوم بذلك . ومن المنطق للغاية أن يكون أولئك الذين يعنون التعميم ويصرون على القول بأن التاريخ يعنى فقط بالمفرد ، هم أولئك الذين ينكرون إمكان تعلم أى شىء من التاريخ . ويتناقض مع القول بأن الناس لا يتعلمون شيئا من التاريخ عديد من الوقائع المشاهدة ، وليس هناك تجربة أكثر شيوعا .

---

(١) « كارل مانهايم » فى كتاب Ideology & Utopia (الأيديولوجية والطوبيا) (الترجمة الانجليزية ١٩٣٦ — ص ٢٢٨) .

فى سنة ١٩١٩ حضرت مؤتمر باريس للسلام ، بوصنى عضواً صغيراً فى وفد المفاوضات البريطانى ، واعتقد جميع أعضاء الوفد أننا قادرون على التعلم من دروس مؤتمر فينا ، وهو آخر مؤتمر أوربى كبير عقد منذ مائة عام . وكتب الكابتن « وبستر » Webster الشديد الاعتزاز بنفسه ، الذى كان يعمل حينئذ فى وزارة الحرب . وهو الآن سير « تشارلز وبستر » ومؤرخ فذ مقالا ذكر لنا فيه ما هى هذه الدروس . وبقى درسان منها فى ذاكرتى . كان أحدهما : أنه من الخطر عند إعادة رسم خريطة أوربا تجاهل مبدأ تقرير المصير ، وكان الدرس الآخر أنه من الخطر أن تلقى الوثائق السرية فى سلة المهملات ، فقد يحصل عليها بالتأكيد عملاء المخابرات السرية لأى وفد آخر . ولقد نظر إلى هذه الدروس المستقاة من التاريخ ، كما ينظر إلى الإنجيل ، وتأثر بها سلوكنا . هذا المثل حديث العهد وتافه . ولكن من المستطاع تتبع تأثير الدروس المستقاة من الماضى البعيد فى التاريخ الأقل قدما . فكل إنسان يعرف الصدام الذى نشب بين اليونان القديمة وروما ، ولكننى لست واثقاً هل حاول أى مؤرخ القيام بتحليل وثيق للدروس التى تعلمها الرومانيون ، أو ظنوا أنهم تعلموها من تاريخ « هيلاس » ، كما أن بحث الدروس التى استقتها أوربا الغربية فى القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر من تاريخ العهد القديم ، قد يسفر عن نتائج مجزية . فلا يمكن فهم الثورة التطهيرية البريطانية فهما تاما بدونها ، وكان تصور الشعب المختار عاملا هاما فى بزوغ القومية الحديثة ، فقد كان طابع الثقافة الكلاسيكية فى القرن التاسع عشر شديد التأثير فى الطبقة الحاكمة الجديدة فى بريطانيا . وأشار « جروت » ، كما سبق أن نوهت بأثينا باعتبارها مثلا للديمقراطية الحديثة . وإننى أتوق إلى الاطلاع على دراسة للدروس الكثيرة والهامة التى نقلت بوعى أو بغير وعى إلى منشئى الإمبراطورية البريطانية من تاريخ الإمبراطورية الرومانية . وقد تأثر فى مجال دراستى صانعو الثورة الروسية ، تأثرا عميقاً بدروس الثورة الفرنسية وثورات سنة ١٨٤٨ ونظام (الكومين)

فى باريس سنة ١٨٧١ . ومن المستطاع القول إن هذا التأثر كان متسلطاً عليهم . ولكننى سوف أذكر هنا الخصائص التى يفرضها الطابع المزدوج للتاريخ . إن التعلم من التاريخ ليس إجراء ذا اتجاه واحد فقط ، فإن التعلم على ضوء الماضى ، يعنى كذلك معرفة الماضى على ضوء الحاضر . ومهمة التاريخ هى تنمية فهم عميق لكل من الماضى والحاضر من خلال التفاعل بينهما .

نقطتى الثالثة هى دور التنبؤ فى التاريخ . فيقال إنه لا يمكن تعلم أى شىء من التاريخ ، لأن التاريخ خلافا للعلم لا يستطيع التنبؤ بالمستقبل . إن هذه المسألة محاطة بغلاف من سوء الفهم . فكما رأينا لم يعد العلماء الطبيعيون تواقين كما اعتادوا إلى الكلام عن قوانين الطبيعة . وان ما يدعى بقوانين العلوم التى تؤثر فى حياتنا العادية ، لا يزيد فى الحقيقة عن اتجاهات وبيانات عما سيحدث فى حالة تشابه باقى المؤثرات ، أو فى الظروف المعملية . وهى لا تدعى التنبؤ بما سيحدث فى حالات مشخصه . فقانون الجاذبية لا يثبت أن تفاحة بالذات ستسقط على الأرض ، وأن شخصاً ما سيتلقاها فى سلة ، كما أن قانون البصريات الخاص بأن الضوء يسير فى خط مستقيم ، لا يثبت أن شعاعا معينا للضوء لن ينعكس أو ينتشر بتأثير جسم معترض ، ولكن هذا لا يعنى أن هذه القوانين لا قيمة لها ، أو أنها من حيث المبدأ غير صحيحة . فنحن نعرف أن النظريات الطبيعية الحديثة لا تبحث إلا فى احتمالات الأحداث الجارية فحسب . واليوم قد أصبح العلم أكثر ميلا للإقرار بأن الاستقراء يؤدى منطقياً إلى احتمالات أو إلى اعتقادات استدلالية ، كما أنه قد غدا أكثر رغبة فى النظر إلى بياناته بوصفها قواعد عامة وإرشادات ، يمكن التأكد من صحتها فقط فى العمل المحدد المعين . وكما ذكر كونت «العلم الذى ينبعث منه التنبؤ ، والتنبؤ الذى ينبعث من العمل»(١)

(١) « كونت » ص ٥١ من Cours de philosophie positive (الفلسفة الوضعية)

إن مفتاح مسألة التنبؤ فى التاريخ يكمن فى هـــذا الفارق بين العام والخاص ، وبين الكلى والمفرد . والمؤرخ كما رأينا مضطر إلى التعميم . وعند ما يقوم بذلك ، فإنه يحصل على إرشادات عامة تصلح للعمل فى المستقبل، وهى وإن لم تكن تنبؤات ذات صفة خاصة ، إلا أنها صحيحة ونافعة معاً . ولكنه لا يستطيع التنبؤ بأحداث خاصة ، لأن الخاص فردى والعنصر العرضى يتدخل فيها . إن هذا الفارق الذى أقلق الفلاسفة واضح تماما للرجل العادى . فلو أصيب طفلان فى مدرسة أو ثلاثة بالحصبة، فإنك ستستنتج ان الوباء سينتشر . وهـذا التنبؤ إذا رأيت تسميته كذلك يرتكز على تعميم من تجربة ماضية . وهو مرشد صحيح ونافع للعمل . ولكنك لا تستطيع التنبؤ بحالات خاصة ، بأن شارل أو مارى سيصابان بالحصبة . والمؤرخ يتبع نفس الطريقة . فالناس لا يتوقعون تنبؤ المؤرخ بأن الثورة ستندلع فى روريتانيا « Ruritania » فى الشهر التالى . ونوع الاستنتاج الذى يسعون للحصول عليه من المعرفة الخاصة . بأحوال « روريتانيا » من ناحية ، ودراسة التاريخ من ناحية أخرى ، هو أن أحوال روريتانيا قد بلغت حـداً معيناً حتى إنه يتوقع حدوث ثورة فى المستقبل القريب ، إلا إذا قام أحد بالإصلاح ، أو قام أحـد من أنصار الحكومة بأى شىء لإيقافها . . وقد يصحب هـذه الاستنتاجات تقديرات تعتمد من ناحية على حوادث مماثلة فى ثورات أخرى للاتجاه المتوقع أن تتخذه القطاعات المختلفة للسكان . والتنبؤ إن صح تسميته بذلك ، لا يمكن أن يدرك إلا من خلال حدوث أحداث مفردة لا يمكن التنبؤ عنها ذاتها . ولكن هـــذا لا يعنى أن الاستدلالات المستنتجة من التاريخ للمستقبل بلا قيمة ، أو أنها لا تتمتع بجانب من الصحة المشروطة التى تصلح مرشداً للعمل، ومفتاحاً لفهم كيف تحدث الأشياء معاً . وإننى لا أود أن أوحى بأن استدلالات علماء الاجتماع أو المؤرخين تستطيع منافسة استدلالات العالم الطبيعى فى الدقة ، أو أن نقص ما يقومون به فى هـذا الشأن يرجع إلى

التخلف الكبير للعلوم الاجتماعية فحسب . فالإنسان وفقا لجميع الآراء هو أكثر الكائنات الطبيعية المعروفة لنا تعقيدا ، وتتضمن دراسة سلوكه صعوبات مختلفة تختلف فى النوع عن تلك التى تواجه العالم الطبيعى . وكل ما أود أن أثبته هو أن غايتهما ومنهجهما ليسا مختلفين اختلافا جوهريا .

نقطتى الرابعة تعرض برهانا أكثر إلحاحا خاصا بإقامة حد فاصل بين العلوم الاجتماعية بما فى ذلك التاريخ، والعلوم الطبيعية . هذا البرهان خاص بأنه فى العلوم الاجتماعية ، الذات والموضوع ينتميان إلى نفس المقولة ، ويتفاعلان تفاعلا متبادلا ، ويؤثر كل منهما فى الآخر، والكائنات الإنسانية ليست فقط أكثر الكائنات الطبيعية تعقيدا وتنوعا ، بل من الواجب أن تقوم بدراستها كائنات إنسانية أخرى ، لا مشاهدون مستقلون ينتمون إلى أنواع أخرى . وفى هذا المجال لا يقنع المرء كما هى الحال فى علوم الأحياء بدراسة تركيبه الطبيعى وردود فعله الطبيعية . فعلماء الاجتماع والاقتصاديون والمؤرخون ، فى حاجة إلى النفاذ إلى صور السلوك الاجتماعى الذى تنشط فيـــه الإرادة ، للتأكد من الأسباب التى دعت الكائنات الإنسانية - باعتبارها موضوع دراستهم - لأن ترغب فى الفعل كما قامت به . وهذا يؤدى إلى صلة بين المشاهد وما يشاهده ، تقتصر على التاريخ والعلوم الاجتماعية . فوجهة نظر المؤرخ تدخل فى كل ما يقوم بمشاهدته بطريقة لا تقبل النقض . والتاريخ مشبع بالنسبية . ووفقا لما قاله « كارل مانهايم » « تختلف حتى المقولات التى تنطوى تحتها التجارب وتجمع وترتب ، تبعا للموقف الاجتماعى للمشاهد »(١) ولكن ليس حقيقيا أن انحياز العالم الاجتماعى يقتصر على تدخله بالضرورة فى كل مشاهداته . فمن الحقيق كذلك أن عملية المشاهدة تؤثر فيما يشاهده وتغيره . وهذا

---

(١) « كارل مانهايم » فى كتاب « Ideology & Utopia » ١٩٣٦ — سنة ١٩٣٦ — ص ١٣٠ — (الأيدلوجية والطوبيا)

قد يحدث فى اتجاهين متعارضين ، فيمكن تحذير الكائنات الإنسانية التى سيجرى تحليلها والتنبؤ لها ، سلفا بنبوءة عواقب غير مستحبة لهـــا ، وأن يدفعها هذا إلى تعديل أفعالها ، وهذا يؤدى إلى أن تثبت النبوءة مهما كانت عند التحليل مستندة إلى أسس صحيحة ، أنها مخيبة للآمال فى ذاتها . وإن أحد أسباب ندرة تكرار التاريخ لنفسه عند الناس أصحاب الوعى التاريخى أن الشخصيات dramatis personae تعرف فى المرة الثانية كيف سارت الأمور فى المرة الأولى ، ويتأثر سلوكها من جراء ذلك (١) . وقد عرف البلاشفة أن الثورة الفرنسية قد انتهت بنابليون ، وخشوا أن تنتهى ثورتهم بنفس الطريقة ، ولذا فإنهم أساءوا الظن « بتروتسكى » الذى بدا أكثر زعمائهم شبها بنابليون ، ومنحوا ستالين الذى بدا أقل شبها بنابليون ثقتهم . ولكن هذه العملية قد تتخذ اتجاها مضادا . فإن الاقتصادى الذى يتنبأ بعد تحليل علمى للأحوال الاقتصادية القائمة بانتعاش قريب أو نكسة ، قد يساهم بالتنبؤ الذى يقوم به فى حدوث الظاهرة المتنبأ بها ، لو كان صاحب نفوذ كبير ، وكانت براهينه مفحمة . وعالم السياسة الذى يغذى الاعتقاد بأن الطغيان قصير الأمد بناء على قوة مشاهداته التاريخية ، قد يساهم فى سقوط الطاغية . ويعرف الجميع سلوك المرشحين فى الانتخابات الذين يتنبأون بنجاحهم من أجل الغاية الواعية التى تجعل تحقيق النبوءة أكثر احتمالا . ويخالج المرء الظن بأن الرغبة اللاواعية لتعجيل تحقيق النبوءة ، هى التى ألهمت الاقتصاديين والساسة والعلماء والمؤرخين عندما خاطروا بالتنبؤ . وربما كان كل ما يستطيع المرء قوله باطمئنان عن هذه الصلات المعقدة هو أن التفاعل بين المشاهد وما يشاهده أو بين العالم الاجتماعى ومادته وبين المؤرخ ووقائعه شىء مستمر ، ودائم التغير ، وأن هذا يبدو سمة متميزة للتاريخ والعلوم الاجتماعية .

---

(١) لقد توسع المؤلف فى هذا البرهان فى كتاب (الثورة البلشفية) The Bolshevik Revolution ١٩١٧ — ١٩٢٣ ص ٤٢ صدر سنة ١٩٥٠ .

ربما كان من الواجب أن ألاحظ هنا ، أن بعض علماء الطبيعة فى السنين الأخيرة ، قد تكلموا عن علمهم بطريقة تبدو وكأنها توحى بوجود تشابه مثير للانتباه بين العالم الطبيعى وعالم المؤرخ ، فيقال أولا: إن نتائجهم تتضمن مبدأ للايقينية واللاجبرية . وفى محاضرتى التالية سأتكلم عن طبيعة ما يدعى بالجبرية فى التاريخ وحدودها . ولكن سواء اكانت لا جبرية علم الطبيعة الحديثة تكمن فى طبيعة الكون ، أو هى مجرد مظهر لمعرفتنا الناقصة فى الوقت الحالى (فإن هذه النقطة ما زالت مثار بحث) ، فإننى أميل إلى اتخاذ موقف شك حول العثور على أوجه شبه خاصة بقدرتنا على القيام بتنبؤات تاريخية مماثلة للمواقف التى اتخذها بعض المتحمسين من قليل من السنوات لتدعيم براهينهم الخاصة بما تقوم به حرية الإرادة فى الكون . ثانيا : يقال لنا إن الأبعاد فى المكان والفترات فى الزمن ، لها مقاييس تعتمد على حركة «المشاهد» . ففى الطبيعة الحديثة ، تخضع سائر المقاييس إلى تغيرات لا يسهل القضاء عليها ترجع إلى استحالة إقامة علاقة دائمة بين المشاهد والشىء الذى يشاهده . فإن كلا من المشاهد والشىء المشاهد ، وكلا من الذات والموضوع يدخل فى النتيجة النهائية للمشاهدة . ولكن بينما تطبق هذه الأوصاف مع القليل من التغيير على الصلات بين المؤرخ وموضوعات مشاهداته ، فإننى لست مقتنعا بأنه يمكن مقارنة ماهية هذه الصلات بأى معنى حقيقى بطبيعة الصلات بين عالم الطبيعة وعالمه . وإننى وإن كنت من حيث المبدأ أعنى بتقليل الاختلافات التى تفصل بين اتجاهى المؤرخ والعـــالم الطبيعى أكثر من تضخيمها ، إلا أنه من غير المجدى محاولة القضاء على هذه الاختلافات بالاعتماد على تمثيلات غير كاملة .

ولكن بينما يعد من الإنصاف القول بأن هناك اختلافا فى النوع بين ارتباط العالم الاجتماعى أو المؤرخ بموضوع دراسته ، وبين العالم الطبيعى ، وأن المشكلات المنبعثة عن الصلة بين الذات والموضوع فى التاريخ أكثر

تعقيداً بصفة غير محددة ، فإن هذا لا يعتبر نهاية للموضوع . فقد افترضت النظريات الكلاسيكية للمعرفة التى سادت خلال القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر كلها ، قسمة ثنائية حادة بين الذات العارفة والموضوع المعروف. ومهما كانت الصورة التى أدركت بها هذه الصلة، فإن النموذج الذى قام الفلاسفة بإنشائه قد أظهر الذات والموضوع ، والإنسان والعالم الخارجى ، منقسمين ، وكل منهما فى ناحية . لقد كان هذا هو العصر العظيم لميلاد العلم وتقدمه ، وتأثرت نظريات المعرفة تأثرا قويا بنظرة رواد العلم . لقد وضع الإنسان فى مواجهة العالم الخارجى بصورة تامة ، وقام الإنسان بمصارعته ، وكأنه يصارع شيئا معاديا بالقوة ، وعسير الانقياد.. عسير الانقياد لصعوبة فهمه ، ومعاديا بالقوة لتعذر إخضاعه. وقد تعدلت هذه النظرة تعديلا تاما نتيجة لنجاح العلوم الحديثة . فالعالم اليوم أصبح أقل ميلا للظن بأن قوة الطبيعة أشياء يحاربها ، بل يراها أشياء تصلح للتعاون معها وإخضاعها لغايته ، ولم تعد النظريات الكلاسيكية للمعرفة صالحة للعلم الأكثر حداثة ، وبصفة خاصة علم الطبيعة . ولا يبعث على الدهشة أنه فى خلال الخمسين سنة الماضية قد بدأ الفلاسفة يتشاحنون حول هذه النظريات، ويعترفون بأن عملية المعرفة تتضمن قدرا من تأثير كل من الجانبين على الآخر واعتماده عليه ، وعلى كل حال فإن هذا بالغ الأهمية للعلوم الاجتماعية . فقد ذكرت فى محاضرتى الأولى أنه من الصعب التوفيق بين دراسة التاريخ والنظرية التجريبية التقليدية للمعرفة ، وأميل الآن إلى إثبات أن العلوم الاجتماعية من ناحيتها الكلية ، باعتبارها أنها تتضمن إنسانا ذاتا وموضوعا معا ، وباحثا وموضوعا للبحث معا ، لا تتوافق مع أى نظرية للمعرفة تنادى بانفصال حاد بين الذات والموضوع . وإن علم الاجتماع فى محاولة تدعيم نفسه باعتباره طائفة من المعتقدات ، قد أنشأ بحق قسما يدعى (علم اجتماع المعرفة). ولم يذهب هذا العلم بعد بعيدا، وأشك أن هذا بصفة رئيسية ؛ لأنه قد قنع باللف والدوران فى قيود نظرية تقليدية للمعرفة . وإذا كان الفلاسفة

تحت تأثير الضرورة الماسة للعلم الطبيعى الحديث أولا ، والعلم الاجتماعى الحديث الآن ، قد بدأوا ينطلقون من هذه القيود وينشئون نموذجا لعمليات المعرفة أكثر مسايرة للزمن من النموذج القديم الذى كان على نمط كرات البلياردو الذى كانت مادة المعرفة تتكدس فيه فى وعى سلبى ، فإنها لدلالة طيبة للعلوم الاجتماعية وللتاريخ بصفة خاصة . ولهذه النقطة بعض الأهمية ، وإليها سأعود فيما بعد ، عندما أحاول النظر فيما نعنيه بالموضوعية فى التاريخ .

وأخيرا وليس آخرا : على أن أناقش الرأى الخاص بأن التاريخ بوصفه يعنى بمسألتى الدين والأخلاق ، لذا فهو مختلف عن العلم بصفة عامة ، وربما عن باقى العلوم الاجتماعية . وفيما يختص بصلة التاريخ للدين ، فإننى سأتحدث بالقليل الضرورى فقط لتوضيح موقفى . إن كونك عالم فلك جاداً يتوافق مع الاعتقاد فى إله خالق العالم ونظمه ، ولكنه لا يتفق مع الاعتقاد فى إله يتدخل وفقاً لإرادته لتغيير مجرى كوكب ، أو لتأجيل كسوف الشمس أو لتغيير نظام الكون . وكذلك فإنه يقال أحيانا إن المؤرخ الجاد يعتقد فى إله نظم مجرى التاريخ وجعل له معنى من ناحيته الكلية ، وإن كان لا يعتقد فى نوع إله الإصحاح القديم الذى يتدخل لذبح العمالقة Amalekites ، أو الذى يغش فى التقـــويم ويطيل ساعات النهار لصالح جيش يوشع . كما أنه لا يستشهد بالله ويجعله تفسيرا لأحداث تاريخية معينة . لقد حاول الأب « دارسى » D'Arcy فى كتاب حديث إقامة هذه التفرقة ، فقال :

« من غير المجدى لأى طالب علم أن يجيب على كل مسألة فى التاريخ بالقول بأنها ترجع إلى أصابع الله . فغير مسموح لنا تقديم نظرات واسعة

إلا بعد أن نذهب بعيدا إلى أقصى حد ممكن فى تنسيق الأحداث العالمية الدنيوية (١) » .

إن وجه الغرابة فى هذه النظرة هو أنه يبدو أنها تنظر إلى الدين مثل (الجوكر) فى ورق اللعب، الذى يحتفظ به من أجل الألعاب التى لا يمكن كسبها باتباع أى وسيلة أخرى . وقد قام « كارل بارت » عالم اللاهوت من أتباع لوثر بشىء أفضل عندما أعلن الانفصال التام بين التاريخين المقدس والدنيوى وأسلم الأخير إلى يد الدنيوى . ويعنى الأستاذ « بترفيلد » ، وإن كنت قد فهمته نفس الشىء عندما يتكلم عن تاريخ فنى (تكنولوجى) . والتاريخ الفنى هو النوع الوحيد من التاريخ الذى يباح لى ولك ولبترفيلد نفسه كتابته ، ولكنه عندما استخدم هذا النعت الغريب ، قد احتفظ بحق الاعتقاد فى وجود تاريخ خفى أو تاريخ للعناية الإلهية، الذى قد لا يهم بحق باقى الناس . ويدعى كتاب مثل « برديف » Berdyaev و « نيبور » Niebuhr و «ماريتان» التمسك بالمكانة المستقلة للتاريخ ، ولكنهم يصرون على القول بغاية للتاريخ أو هدف له يقع خارجه . وإننى شخصياً أرى أنه من الصعب التوفيق بين تكامل التاريخ ، والاعتقاد فى قوة فوق التاريخ ، يتوقف عليها معناه وأهميته سواء أكانت القوة هى إله شعب مختار ، أو إله مسيحى ، أو يد الإلهيين الخفية ، أو روح العالم لهيجل ، وإننى سوف أفترض من أجل ما ترمى إليه هذه المحاضرات أنه ينبغى أن يحل المؤرخ مشكلته دون رجوع لأى إله آلى deux ex machina. وأن التاريخ لعبة ليس بين أوراقها (چوكر) كما يقال .

والصلة بين التاريخ والأخلاق أكثر تعقيداً ، وقد عانت المناقشة

---

(١) « دارسى » (M. C. D'Arcy) فى كتابه : (مغزى التاريخ — دنيويا ودينيا) The Sense of History— Secular & Sacred سنة ١٩٥٩ ص١٦٤ ـ كلما أمكن العثور على سبب لما حدث فينبغى على المرء عدم إرجاعه إلى الآلهة . . اقتبسها « فريتز » فى كتابه The Theory of the Mixed Constitutions in Antiquity ص٣٩ (طبعة نيويورك ١٩٥٤) نظرية الدساتير المختلطة فى العصر القديم

الخاصة بها فى الماضى من عدة أمور غامضة . ولم يعد ضروريا اليوم إثبات أن المؤرخ ليس مطالبا بإصدار أحكام أخلاقية عن الحياة الخاصة لشخصيات قصته . فإن وجهتى نظر المؤرخ والأخلاق ليست واحدة . فربما كان هنرى الثامن زوجا سيئا ولكنه ملك موفق ، ولا يهتم المؤرخ بناحيته الأولى إلا عندما تمس الأحداث التاريخية فقط . ولو كان لجرائمه الخلقية تأثير ظاهرى فقط على المسائل العامة مثل الملك هنرى الثانى لما كان المؤرخ بحاجة إلى العناية بها . وينطبق هذا على الفضائل مثل انطباقه على الرذائل . فيقال إن الحياة الخاصة «لباستير» و«أينشتين» كانت نموذجية ، أو حياة قد يسين كما يقال لنا ، ولكن افترض أنهما كانا زوجين غير أمينين ، أو أبوين قاسين ، أو زميلين معوجين ، فهل كان ينقص هذا شيئا مما أديا للتاريخ ؟ إن هذا كان هو ما يعنى به التاريخ فيما مضى . لقد قيل إن «ستالين» قد عامل زوجته الثانية بقسوة وخشونة ، ولكننى بوصفى مؤرخا للشئون السوفيتية ، لا أشعر بأن هذا يهمنى ألبتة ، وهذا لا يعنى أن الأخلاق الخاصة ليست هامة ، أو أن تاريخ الأخلاق ليس جانبا مشروعا من التاريخ ، ولكن المؤرخ لا يحيد عن اتجاهه لكى يصـــدر أحكاما أخلاقية على الحياة الخاصة للأفراد الذين يظهرون فى صفحاته ، فعليه واجبات أخرى يؤديها .

وينبعث الغموض الأكثر أهمية من مسألة الأحكام الأخلاقية ، الخاصة بالأفعال العامة .. فللإعتقاد بأن واجب المؤرخ هو إصدار أحكام على شخصياته التاريخية dramatis personae أصل بعيد . ولكن هذه المسألة لم تكن قط أكثر قوة منها فى بريطانيا فى القرن التاسع عشر ، عندما زاد من قوتها كل من الميول الأخلاقية للعصر والمعتقدات التحريمية للمذهب الفردى . فقد لاحظ «روزبيرى» Rosebery ، أن مايود الإنجليز معرفته عن نابليون هو : هل كان «رجلا طيبا» (١) .

---

(١) روزبيرى فى كتابه «الكلمة الأخيرة عن نابليون» ص ٣٦٤ — سنة ١٩٠٧
Rosebery —Napoleon— The Last Phrase

وصرح « أكتون » فى مراسلاته مع « كرايتون » Creighton «أن صلابة القانون الأخلاقى هى سر سلطة التاريخ وجلاله وقيمته ، وادعى قيامه بجعل التاريخ فيصلا للمنازعات مرشدا للشاردين ونصيرا للمعيار الأخلاقى الذى تميل سلطات الدنيا والدين على الدوام إلى الحط من شأنه (١)» . وهو رأى يستند إلى إيمان « أكتون » الذى يكاد يكون غيبيا بموضوعية الوقائع التاريخية ومنزلتها العليا التى تطالب المؤرخ باسم التاريخ ، وتخول له الحق بوصفها قوة فوق التاريخ أن يصدر أحكاما أخلاقية على الأفراد المشتركين فى الأحداث التاريخية . ومازال هذا الاتجاه يعاود الظهور أحيانا فى صور غير متوقعة . فقد وصف الأستاذ توينبى غزو موسولينى سنة ١٩٣٥ بأنه (خطيئة شخصية متعمدة) (٢) . ويصر سير « إيزيا برلين » فى المقال الذى سبق الاقتباس منه ـ فى حدة شديدة ـ على أن واجب المؤرخ هو «الحكم على شارلمان أو نابليون أو جنكيزخان أو هتلر أو ستالين بسبب مذابحهم» . واقتص الأستاذ « نولز » knowles من هذا الرأى بما فيه الكفاية . فقد اقتبس فى محاضرته الافتتاحية أمثلة للأحكام الخلقية على الأفراد التى ليس فى مقدور المؤرخ إصدارها مثل اتهام « موتلى » Motley للملك فيليب الثانى وقوله (لو كان هناك رذائل لم يتحل بها ، فلأنه غير مسموح للطبيعة الإنسانية بلوغ الكمال حتى فى الشر) . ووصف «ستابس » Stubbs للملك جون (بأنه مدنس بكل جريمة يمكن أن تشين إنسانا) وقال « إن المؤرخ

---

(١) أكتون Acton فى كتابه Historical Essays & Studies دراسات ومقالات تاريخية ص ٥٠٥

(٢) Survey of International Affairs ص ٣ الجــزء الثانى سنة ١٩٣٥

ليس بقاض ، بل وأكثر من ذلك أنه ليس قاضيا له حق الشنق(١) ، . غير أن لكروتشه كذلك فقرة طيبة فى هذه النقطة أميل إلى اقتباسها .

« إن الاتهام ينسى الاختلاف الكبير الخاص بأن محاكمنا (سواء أكانت أحكامها قضائية أو أخلاقية) هى محاكم تتبع الوقت الحاضر ، ومصممة لمحاكمة أناس أحياء فعالين ، ولهم خطارهم . بينما وقف أولئك الرجال الآخرون أمام محاكم عصرهم ولا يمكن إدانتهم أو تبرئة ساحتهم مرتين . فلا يمكن اعتبارهم مسئولين أمام أى محكمة كانت ، لأنهم من الماضى وينتمون إلى سلامته . وبهذه الصفة يمكن أن يكونوا موضوعاً للتاريخ فحسب . وهم لا يتحملون أى حكم آخر سوى الحكم الخاص بالنفاذ فى روح عملهم وفهمه . . وإن أولئك الذين ينهمكون بحجة روايتهم للتاريخ فى القيام بعمل القضاة يتهمون هنا ، ويغفرون هناك ، بظن أن هذه هى مهمة التاريخ ، مجردون ـ كما يعترف بصفة عامة ـ من الإدراك التاريخى » (٢) .

---

(١) كتاب « إيزيا برلين » الحتمية التاريخية Historical Inevitability صفحات ٦٦-٦٧ ـ إن اتجاه سير إيزيا يذكر بآراء المحلف المحافظ البالغ الصلابة من القرن التاسع عشر « فريتز جيمس ستيفن » Fritz Games Stephen الذى قال : من هذا يتضح أن القانون الجنائى يتبع المبدأ القائل إنه من الصواب أخلاقيا كراهية المجرمين .. وإنه من المستحب تماما كراهية المجرمين ، وأن يتم صدور العقوبات الموقعة عليهم بحيث تعبر عن هذا البغض ، وأن تبرر إلى أقصى حد يمكن أن تسمح به الوسائل المهيئة للرأى العالم للتعبير عن عاطفته الطبيعية السليمة وإشباعها وتشجيعها » وردت فى كتاب A History of the Criminal Law صفحات ٨١ — ٨٢ اقتبسها Radzinowicz الجزء الثانى ١٨٨٣ — لم يعد علماء الجريمة يؤمنون بمثل هذه الآراء ولكننى أختلف معهم بأنه مهما كانت صحة هذه الآراء فى أى مجال آخر ، فإنه لا يمكن تطبيقها فى أحكام التاريخ .

(٢) كروتشه Croce فى كتاب « التاريخ تاريخا للحرية » History as the Story of Liberty الترجمة الانجليزية سنة ١٩٤١ — ص ٤٧

وإذا أراد أحد المغالطة حول القضية القائلة : إن مهمتنا ليست اصدار أحكام أخلاقية عن هتلر أو ستالين . . أو إذا أردت السناتور ماكارثى McCarthy بزعم أنهم كانوا معاصرين لكثيرين منا ، ولأن مئات الألوف من أولئك الذين عانوا من أفعالهم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، ما زالوا أحياء ، ولأنه تماما من أجل هذه الأسباب من الصعب علينا الدنو منهم، بوصفنا مؤرخين مع تجردنا من قدرات أخرى قد تمكننا من إصدار أحكام على أفعالهم : وينبغى أن أقول إن هـــذه هى إحدى المعوقات أو المعوقة الرئيسية للمؤرخ المعاصر . . ولكن ما الذى يجنيه أحد اليوم بفضح خطايا شرلمان أو نابليون ؟

فلنرفض من أجل هذا الرأى القائل ، إن المؤرخ قاض له حق الشنق ، ولننتقل إلى المسألة الأكثر صعوبة وإن تكن أكثر جدوى ـ الخاصة بإصدار الأحكام على أحداث المـــاضى ونظمه وسياساته وليس على الأفراد . . هذه هى أحكام المؤرخ الهامة ، وأولئك الذين يصرون بحماسة على الاتهام الخلقى للفرد ، يستميحون أحياناً العذر لجماعات ومجتمعات كاملة ، فقد نسب المؤرخ الفرنسى ليففر Lefèbvre فى محاولته تبرئة ساحة الثورة الفرنسية من مسئولية مصائب الحروب النابليونية ومذابحها ، هذه الذنوب إلى « ديكتاتورية جنرال . . لا يشعر مزاجه بالارتياح فى السلام والاعتدال »(١) . ويرحب الألمان اليوم باتهام خبث هتلر الفردى بوصفه بديلا لحكم المؤرخ الأخلاقى على المجتمع الذى جاء منه هتلر . ويشترك الروس والإنجليز والأمريكيون على الفور فى الهجوم الشخصى على « ستالين » و « نيفيل تشامبرلن » أو « ماكرثى » بوصفهم ضحايا ذنوبهم الجماعية . وأكثر من هذا لا تقل الأحكام الأخلاقية الإطرائية على الأفراد تضليلا

---

(١) Peuples et Civilizations (شعوب وحضارات) ـــ المجلد الرابع عشر ـــ نابليون ـــ ص ٥٨

وسوءا من الاتهامات الأخلاقية لهم . فقد استخدم على الدوام الاعتراف بأن بعض ملاك العبيد كانوا ذوى عقول راجحة ، عذراً لعدم اتهام الرق بأنه لا أخلاقى . وقد أشار « ماكس فيبر » إلى نظام الرق الذى ليس به سادة ، والذى أرقعت الرأسمالية فى حباله العامل أو المدين . وأثبت بحق أنه على المؤرخ أن يصدر أحكاماً خلقية على النظم وليس على الأفراد الذين قاموا بخلقها (١) .. إن المؤرخ لا يتخذ مقام القضاة ويدعى حق الحكم على طاغية شرقى فردى ، ولكنه ليس مطالبا بأن يظل دون مبالاة أو انحياز بين الطغيان الشرقى ونظم أثينا أيام بركليس . فهو لن يصدر حكما على مالك العبيد الفرد ، ولكن هذا لا يمنعه من اتهام أى مجتمع يقر ملكية العبيد . فالوقائع التاريخية كما رأينا تفترض بعض مقاييس التفسير افتراضاً سابقاً ، وتتضمن التفسيرات التاريخية دائما أحكاما أخلاقية . . أو إذا رأيت استخدام اصطلاح أكثر اعتدالا : أحكاماً قيمية .

ومع هذا فإن هذه هى بداية متاعبنا فقط . . إن التاريخ عملية صراع فيه تتحقق النتائج سواء حكمنا عليها بأنها طيبة أو رديئة ، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، بواسطة بعض الجماعات على حساب الآخرين — وتتحقق فى الغالب بطريقة غير مباشرة أكثر منها مباشرة . إن الخاسرين يقومون بالدفع . والمعاناة من سمات التاريخ . فلكل عصر عظيم فى التاريخ خسائره وكذلك انتصاراته . وإنها لمسألة معقدة للغاية ، فليس لدينا معيار يمكننا من ترجيح كفة الخير الأعظم الذى يصيب البعض على كفة تضحيات الآخرين . . ولكن يجب القيام بمثل هذا الترجيح . وليست هذه مشكلة التاريخ وحده ، فنحن فى الحيـــاة العادية كثيراً ما نتورط أكثر مما نبالى بالاعتراف فى بعض الأحيان فى ضرورة تفضيل الشر الأقل ، أو فى

---

(١) اقتبست فى Essays in Sociology — From Max Weber (مقالات فى علم الاجتماع — من ماكس فيبر) سنة ١٩٤٧ ص ٥٨ .

ارتكاب الإثم لكى يأتى الخير . وقد تناقش هـذه المسألة فى التاريخ تحت عنوان « ثمن التقدم» أو «ثمن الثورة» ، وهـذا مضلل . فكما يقول بيكون فى مقاله عن « On Innovation » « عن التجديد » إن الاحتفاظ العنيد بالعادة لشىء مقلق مثل التجديد . وتقع وطأة المحافظة على كاهل المحرومين ، مثلما تقع وطأة التجديد على أولئك الذين تنتزع منهم امتيازاتهم . والفكرة القائلة إن خير البعض يبرر ما يقاسيه الآخرون (مصائب قوم عند قوم فوائد) كامنة فى كل الحكومات . وهى فكرة المحافظين ، كما أنها فكرة المتطرفين ، وقد تذرع دكتور « جونسون » بقوة بحجة أهون الشرور ، لتبرير المحافظة على الفوارق القائمة ، وقال :

« إنه لمن الأفضل أن يكون بعض الناس بائسين على ألا يكون أحد سعيدا . وهذا هو الموقف فى حالة المساواة العامة »(١) .

ولكن فى فترات التغير المتطرف يبدو الخلاف فى أعنف صورة الدراماتيكية . . وهنا نجد أنه من السهل دراسة اتجاه المؤرخ نحوه .

وعلى سبيل المثال : فلنتكلم عن قصة تصنيع بريطانيا بين السنوات ١٧٨٠ ، ١٨٧٠ . المفروض أن يعتبر كل مورخ ، الثورة الصناعية ـ ربما دون جدال ـ عملا عظيما تقدميا ، وأن يصف كذلك إرغام الفلاحين على ترك حقولهم وتجميع العمال كالقطيع فى مصانع غير صحية ومساكن لم تراع فيها

---

(١) بوسويل « Boswell » ص ٢٠ من كتاب « حياة دكتور جونسون Life of Dr. Johnson قد امتاز هذا الرأى بفضيلة الإخلاص — لقد ذرف بوركار فى كتاب Judgements on History & Historians (أحكام عن التاريخ والمؤرخين) ص ٨٥ ، الدموع على النواح الصامت لضحايا التقدم « الذين أرادوه فقط من ناحية المبدأ (parta tueri) ، ولكنه سكت عن نواح ضحايا النظام القديم ، الذين لم يكن لديهم من ناحية المبدأ شىء يحافظ عليه .

الشروط الصحية ، واستغلال عمل الأطفال . ومن المحتمل أن يذكر حدوث أمور تعسفية فى سير النظام ، وأن بعض أصحاب الأعمال كانوا أكثر قسوة من البعض الآخر ، وأن يثير الانتباه ببعض الحماسة المصطنعة عن التقدم التدريجى للضمير الإنسانى بمجرد تدعيم النظام . ولكنه سوف يفترض مرة أخرى ، ومن المحتمل ألا يذكر ذلك ، أن بعض إجراءات الإكراه والاستغلال فى المراحل الأولى كانت على أى حال ضرورة لا يمكن تجنبها ، باعتبارها جانبا من ثمن التصنيع . وإننى لم أسمع قط كذلك عن مؤرخ قال : إنه نظرا لفداحة الثمن فإنه كان الأفضل إيقاف التقدم ، وعدم إتمام التصنيع . ولو وجد هذا المؤرخ لانتمى بغير شك إلى مدرسة « شسترتون » و «بيلوك» Chesterton & Belloc ، ولن ينظر له المؤرخون نظرة جدية ، وهذا هو عين الصواب . . . ولهذا المثل أهمية خاصة عندى ، لأننى آمل فى تاريخى عن روسيا السوفيتية أن أتناول فى التو مشكلة تجميع الفلاحين باعتبارها جانباً من ثمن التصنيع ، وإننى أعرف تماماً أنى إذا اتبعت المثل الذى ضربه مؤرخو الثورة الصناعية البريطانية بالتوجع لوحشية التجميع وتعسفه مع النظر للعملية من ناحية أنها جانب محتم من ثمن سياسة مرغوبة وضرورية للتصنيع ، فإننى سوف أتهم بأننى كلبى النزعة ، وبأننى قد صفحت عن أشياء شريرة . ويصفح المؤرخون عن استعمار القرن التاسع عشر لآسيا وأفريقيا الذى قامت به الدول الغربية ، ليس على أساس تأثيره المباشر فى الاقتصاد العالمى فحسب ، بل بسبب عواقبه البعيدة المدى على شعوب هذه الأقطار المتخلفة . ويقال: إن الهند الحديثة قبل كل شىء هى بنت الحكم البريطانى ، والصين الحديثة نتيجة للاستعمار الغربى فى القرن التاسع عشر ، مضافا إليه تأثير الثورة الروسية. ومن سوء الحظ لم يكن العمال الصينيون الذين عملوا فى المصانع التى يملكها الغرب فى موانى المعاهدة (أى الموانى المفتوحة بحكم المعاهدات للتجارة الحرة) أو مناجم جنوب أفريقيا ، أو الجبهة الغربية فى الحرب العالمية

الأولى هم الذين عاشوا بعد ذلك للتمتع بأى مجد أو غنم ربما يكون قد عاد عن الثورة الصينية . فمن النادر أن يكون أولئك الذين دفعوا الثمن هم الذين يجنون الثمرة . وهذه الفقرة التى تقطر دما من كتابات « انجلز » Engels ملائمة تماما بصورة تبعث على الضيق :

« إن التاريخ لهو أكثر جميع الآلهة قسوة .. وهو يقود مركبته فوق أكوام من الجثث ليس فقط أثناء الحرب ، بل كذلك أثناء التقدم الاقتصادى (السلمى) . ونحن الرجال والنساء أغبياء للغاية لسوء الحظ ، حتى أننا لا نستطيع أن نقدم بشجاعة لتحقيق التقدم الحقيق ، إلا إذا ساقتنا إليه الآلام التى قد تبدو أكثر مما يجب »(١) .

إن إيماءة « إيفان كارامازوف » الشهيرة للتحدى لهى بطولة خرافية ، فنحن نولد فى مجتمع ونولد فى تاريخ ، ولم يحدث قط أن عرضت علينا تذكرة للدخول فيهما وعلينا حق الاختيار بالقبول أو الرفض . والمؤرخ ليس لديه إجابة قاطعة عن مشكلة الآلام أكثر من عالم اللاهوت ، فهو كذلك يرتد إلى الفكرة القائلة بأقل شر واعظم خير .

ولكن ألا تتضمن الحقيقة الخاصة بأن المؤرخ بخلاف العالم مسير إلى التورط بحكم طبيعته فى هذه الخلافات الخاصة بالحكم الأخلاقى ، خضوع التاريخ لمعيار للقيمة أعلى من التاريخ ؟ إنى لا أظن أنه يتضمن ذلك . فلنفترض أن التصورات المجردة مثل « طيب » أو « ردىء » والصور المعقدة المنبعثة منها تقع خارج حدود التاريخ ، ولكن حتى إذا فعلنا ذلك ، فإن هذه التجريدات تلعب فى دراسة الأخلاقيات التاريخية نفس الدور الذى تلعبه

---

(١) خطاب فى ٢٤ فبراير ١٨٩٣ إلى « دانيلسون » Danielson فى مراسلات ماركس مع إنجلز (١٨٤٦ — ١٨٩٥) طبعة سنة ١٩٣٤ — ص ٥١٠ .

المعادلات الرياضية والمنطقية فى العلوم الطبيعية . إنها مقولات لا غنى عنها للفكر ، ولكنها مجردة من المعنى أو التطبيق إلى أن تضمن مضموناً خاصاً بها . وإذا آثرت تشبيهاً آخر ، فإن القواعد الأخلاقية التى نستخدمها فى التاريخ أو فى حياتنا اليومية تماثل (شيكات) على البنك بها قسم مطبوع وآخر مكتوب . ويتكون الجزء المكتوب من كلمات مجردة مثل الحرية والمساواة والعدالة والديمقراطية . هـــذه مقولات ضرورية . ولكن (الشيك) لا قيمة له إلا إذا قمنا بملء القسم الآخر ، الذى يبين مدى الحرية التى نقترح تخصيصها لأى أحد ، ومن الذين نعترف بهم مساوين لنا ، وإلى أى حد ؟ فالطريقة التى نملأ بها الشيك من وقت لآخر هى مسألة تاريخ . والعملية الخاصة بإعطاء مضمون تاريخى خاص للمعانى الأخلاقية المجردة عملية تاريخية. ونحن نقوم بحق بأحكام أخلاقية داخل إطار تصورى ، هو نفسه من خلق التاريخ . والصورة المفضلة للمنازعات الدولية المعاصرة الخاصة بنقط الخلاف الأخلاقية ، جدل حول ادعاءات متنافسة للحرية والديمقراطية . فالتصورات مجردة وكلية . ولكن المضمون الذى يوضع بداخلها قد تنوع خلال التاريخ من وقت لآخر ومن مكان لآخر . ويمكن أن يفهم أى خلاف خاص باستخدامها ويناقش على أساس تاريخى فقط . ولننظر إلى مثل آخر أقل شهرة : وهو محاولة استخدام التصور الخاص بالمذهب العقلى للاقتصاد ، محكا موضوعيا لا خلاف عليه ، لقياس مدى استساغة السياسات الاقتصادية والحكم عليها . لقد أخفقت المحاولة على الفور . فقد اتهم النظريون الذين نشأوا وفقا للاقتصاديات الكلاسيكية التخطيط أساسا بوصفه تدخلا غير معقول فى العمليات الاقتصادية المستقلة ، فإن القائمين بالتخطيط يرفضون — على سبيل المثال فى سياستهم النقدية — التقيد بقانون العرض والطلب ، والأسعار فى ظل التخطيط ليس لها أى قاعدة معقولة ، وبالطبع قد يكون من الحقيق اتباع القائمين بالتخطيط وسائل غير معقولة وبالتالى حمقاء . ولكن يجب ألا يكون المحك الذى يستخدم فى الحكم عليهم هو المذهب العقلى الاقتصادى القديم للاقتصاد

الكلاسيكى. وأنا شخصياً أشعر بتعاطف أعظم نحو البرهان المعارض الخاص، بأن الاقتصاد غير الموجه وغير المنظم « مبدأ حرية العمل Laissez-faire » كان من ناحية جوهرية غير معقول، وأن التخطيط هو محاولة لتقديم معقولية اقتصادية إليه. والنقطة الوحيدة التى أود أن أذكرها هذه اللحظة هى استحالة إقامة معيار مجرد أعلى من التاريخى، يمكن اتباعه فى الحكم على الأفعال التاريخية. فلا مفر أن يقر الجانبان معاً، فى مثل هذا المحك، المضمون الخاص الملائم لظروفهما التاريخية، وما يصبوان إليه.

هذه هى صحيفة الاتهام الحقيقية لأولئك الذين يسعون لإقامة مقياس أو محك فوق التاريخ يصدرون فى ضوئه الأحكام على الحوادث التاريخية، أو المواقف، سواء أكان هذا المقياس مستمداً من سلطة إلهية يسلم بها اللاهوتيون، أو من منطق ثابت (استاتيكى)، أو من الطبيعة التى يسلم بها فلاسفة التنور، وليس المقصود هو أن أوجه النقص هذه تحدث عند تطبيق المحك أو من جراء عيوب فيه ذاته، ولكن المقصود هو أن محاولة إقامة مثل هذا المحك غير تاريخية، وتناقض جوهر التاريخ ذاته، فهى تهىء إجابة دجماتيقية لمسائل من واجب المؤرخ بحكم عمله الإجابة عنها باستمرار. والمؤرخ الذى يقبل مقدماً إجابات لهذه المسائل، يقدم على عمله، وهو معصوب العينين ويتبرأ من مهنته. فالتاريخ حركة، والحركة تتضمن المقارنة. وهذا هو سبب ميل المؤرخين للتعبير عن أحكامهم الأخلاقية فى عبارات تحمل طابع المقارنة، مثل « تقدمى » و « رجعى »، أكثر من ميلهم للتعبير فى عبارات مطلقة جامدة مثل « خير » و « ردىء »، فهى محاولات لتعريف المجتمعات أو الظواهر التاريخية ليس فى صلتها ببعض المقاييس المطلقة، بل وفقاً لصلة كل منها بالأخرى. وأكثر من هذا، فإننا عندما ننظر فى هذه القيم المطلقة المزعومة التى فوق التاريخ، فإننا نرى أن أساسها فى الواقع فى التاريخ. فيفسر انبعاث أى قيمة معينة أو مثال فى زمان معين، أو مكان، بوساطة الظروف التاريخية

للزمان والمكان . ويختلف المضمون العملى للكلمات المطلقة المفترضة ، مثل مساواة وحرية وعدالة ، أو قانون طبيعى من عصر لآخر ، أو من بلد لأخرى . فلكل طائفة قيمها التى تمتد جذورها فى التاريخ ، وتحمى كل طائفة نفسها من تدخل القيم الدخيلة أو المتطرفة ، وتصمها من أجل هذا بنعوت شائنة ، مثل «بورجوازى» و«رأسمالى» أو «غير ديموقراطى» أو«جماعى» أو بأوصاف أكثر خشونة مثل «غير إنجليزى» أو«غير أمريكى». والمقياس المجرد أو القيمة المجردة المنفصلان عن المجتمع والتاريخ وهم يماثل الفرد المطلق . والمؤرخ الجاد هو الذى يعرف الطابع المشروط بالتاريخ لكل القيم ، لا المؤرخ الذى يدعى لقيمه موضوعية فوق التاريخ . والمعتقدات التى نؤمن بها ومقاييس الأحكام التى نقررها جزء من التاريخ . وهى تخضع للبحث التاريخى مثل أى جانب من جوانب السلوك الإنسانى . واليوم لا تستطيع علوم قليلة ادعاء الاستقلال الشامل ، وأقلها حقا فى هذه المطالبة هى العلوم الاجتماعية . ولكن التاريخ لا يعتمد اعتماداً أساسيا على أى شىء خارجه، وهذا ما يميزه عن أى علم آخر .

فلألخص ما حاولت أن أقوله خاصا بادعاء التاريخ أنه أحد العلوم . إن كلمة علم فى الواقع تشتمل فروعا عديدة مختلفة من المعرفة، وتستخدم مناهج ووسائل (تكنيكية) مختلفة ، إلى حد أنه يبدو أن التبعة تقع على أولئك الذين يسعون لاستبعاد التاريخ ، أكثر من وقوعها على أولئك الذين يسعون لإبقائه . ومن المهم أن الحجج الخاصة بالاستبعاد لم تجىء عن طريق العلماء التواقين لاستبعاد المؤرخين من صحبتهم ، بل من المؤرخين والفلاسفة الراغبين فى الذود عن مكانة التاريخ باعتباره فرعا من الآداب الإنسانية . ويعكس الخلاف انحياز الانقسام القديم بين الإنسانيات والعلم ، عندما كان المفروض أن الإنسانيات تمثل الثقافة الواسعة للطبقة الحاكمة ، ويمثل العلم مهارات الفنيين ، الذين كانوا فى خدمتها . والكلمتان «الإنسانيات»

و « إنسانى » فى هذا السياق إحياء لهذا الانحياز الذى له قداسة القدم، وتوحى الحقيقة الخاصة بأن هذا التعارض بين العلم والتاريخ لن يكون له أى معنى فى أى لغة ـ خلاف الانجليزية ـ بأن مرجع هذا الانحياز هو إقامة الإنجليز فى جزيرة. واعتراضى الرئيسى على رفض تسمية التاريخ علما، هو أنه يبرر الانشقاق بين ما يسمى بالثقافتين ويبقيه. وقد نجم الانشقاق نفسه عن هذا الانحياز القديم المستند إلى البناء الطبقى للمجتمع البريطانى المنتمى إلى الماضى . وإننى لست مقتنعا بأن الهوة التى تفصل المؤرخ عن الجيولوجى تزيد من ناحية العمق أو إمكان التخطى عن الهوة التى تفصل عالم الجيولوجيا عن عالم الطبيعة . ولكن وسيلة رأب هذا الانشقاق فى رأيى، ليست تعليم المؤرخين أوليات العلم ، أو تعليم العلماء أوليات التاريخ ، فهذا الكلام لا يؤدى إلى شىء مثل الطريق المسدود وقد دفعنا إليه تفكيرنا المهوش . فقبل كل شىء، إن العلماء أنفسهم لا يتبعون هذه الطريقة . فأنا لم أسمع قط عن مهندسين قد نصحوا بحضور دروس أولية فى علم النبات .

وإحدى الوسائل التى أقترحها لعلاج ذلك ، هى تحسين معيار تاريخنا ، بجعله أكثر علمية ، أن كنت أجرؤ على قول ذلك ، وأن نجعل مطالبنا من أولئك الذين يتابعون دراسته أكثر صرامة. فالتاريخ بوصفه علما أكاديميا ينظر إليه فى هذه الجامعة أحيانا وسيلة للم شمل أولئك الذين يجدون العلوم الكلاسيكية شاقة للغاية ، والعلم جادا تماما ، والفكرة الوحيدة التى آمل أن أشير إليها فى هذه المحاضرات هى أن التاريخ موضوع أكثر صعوبة من العلوم الكلاسيكية ، وأنه لا يقل جدية عن أى علم ، وقد يتطلب هذا العلاج أن يثق المؤرخون بما يقومون به ثقة أعظم . لقد أصاب سير « تشارلز سنو » Charles Snow فى محاضرة حديثة عن هذا الموضوع، عندما قارن بين «تفاؤل العلماء الصبيانى » وبين « الصوت الخفيض » و « الشعور المتعارض مع

المجتمع ، لمن أسماهم المثقفين الأدباء (١) . وأن بعض المؤرخين — وأكثر من يكتبون عن التاريخ دون أن يكونوا مؤرخين — ينتمون إلى هذه الفئة الخاصة « بالمثقفين الأدباء » . فهم لا يتوانون عن القول لنا بأن التاريخ ليس علما ، ويشرحون مالا يمكن للتاريخ أن يكون ، وما لا ينبغى أن يكون عليه التاريخ ، أو أن يقوم به . حتى إن هذا لم يدع لهم وقتا لما أنجزه التاريخ وإمكانياته .

والوسيلة الأخرى لرأب هذا الشق هى تنمية فهم أعمق ، لتماثل غاية العلماء والمؤرخين وهذه هى القيمة الرئيسية للاهتمام الجديد والنامى بتاريخ العلم وفلسفته . فالعلماء ، والعلماء الاجتماعيون ، والمؤرخون يشتغلون جميعا فى فروع مختلفة من نفس الدراسة وهى دراسة الإنسان وبيئته ، وتأثير الإنسان على بيئته ، وتأثير البيئة عليه . وغاية الدراسة واحدة . وهى زيادة فهم الإنسان لبيئته وسيطرته عليها . وتختلف الافتراضات السابقة والمناهج لعالم الطبيعة وعالم الجيولوجيا وعالم النفس والمؤرخ اختلافا واسعا فى التفاصيل . ولست أرغب كذلك فى التسليم بالقضية القائلة : إنه لكى يصبح المؤرخ أكثر علمية ، عليه أن يتبع مناهج العلم الطبيعى اتباعا حرفيا . . ولكن المؤرخ وعالم الطبيعة يتحدان فى الغاية الرئيسية لمحاولة التفسير ، وفى الوسيلة الأساسية الخاصة بالسؤال والجواب . . فالمؤرخ مثل أى عالم آخر حيوان يسأل على الدوام السؤال لماذا ؟ وفى محاضرتى القادمة ، سأتناول الوسائل التى يوجه بها السؤال ، والوسائل التى يحاول الإجابة بوساطتها . .

---

(١) « سنو » C. R. Snow فى كتابه « الحضارتان والثورة العلمية » The TwoCultures & the Scientific Revolution سنة ١٩٥٩ صفحات ٤ — ٨

٤ - العلية في التاريخ

لو وضع اللبن فى إناء ليغلى ، فإنه يغلى حتى يفيض . وأنا لا أعرف ولم أرغب أبدا فى معرفة لماذا يحدث هذا . ولو تعرضت للإلحاح ، فمن المحتمل أن أعزو ذلك إلى نزوع عند اللبن إلى الغليان، وهذا صحيح للغاية ، وإن كان لا يعنى شيئا ، ولكن مع هذا فأنا لست عالما طبيعيا . وبالمثل فإن المرء قد يقرأ أو حتى يكتب عن أحداث الماضى ، دون أى رغبة فى معرفة لماذا حدثت ، أو قد يقنع بالقول بأن الحرب العالمية الثانية قد نشبت لأن هتلر كان يبغى الحرب . وهذا صحيح تماما ، وإن كان لا يفسر شيئا . ولكن ينبغى ألا يؤدى الأمر حينذاك إلى ارتكاب الخطأ بادعاء المرء دراسته للتاريخ ، أو أنه مؤرخ . إن دراسة التاريخ دراسة للعلل . والمؤرخ كما ذكرت فى نهاية محاضرتى الأخيرة يسأل على الدوام السؤال، لماذا ؟ ومادام يأمل فى الاهتداء إلى إجابة ، فإنه لن يستطيع أن يهدأ . والمؤرخ العظيم ، أو ربما ينبغى أن أقول بأكثر وضوح ، المفكر العظيم ، هو الرجل الذى يسأل السؤال ، لماذا ؟ عن أشياء جديدة أو فى سياقات جديدة .

وقد حدد هيرودوت أبو التاريخ غايته فى بداية مؤلفه بأنها « صون ذكرى أعمال اليونانيين والبرابرة ، وبصفة خاصة وقبل كل شىء آخر ذكر علة صراعهما بعضهما مع بعض ، وقد صادف أتباعا قلائل فى العالم القديم . فحتى «تيكوسيدس» ، فإنه قد اتهم بأنه لم يكن لديه تصور واضح عن العلية(١) ولكن فى القرن الثامن عشر عندما بدأ وضع أساس الكتابة التاريخية الحديثة ، اتخذ « مونتسيكيو » فى كتابه « تأملات فى علل عظمة الرومان وانبعاثهم وتدهورهم » نقطة بدء له ، القواعد الخاصة بأنه « توجد علل عظيمة أخلاقية أو ذات تأثير فى كل مملكة ترفع من شأنها وتحافظ عليها أو تقضى عليها . وإن كل ما يحدث يخضع لهذه العليل » . وبعد سنوات قليلة

---

(١) « كورنفورد » (تيكوسيدس) F . M . Cornford فى كتاب Thucydides

توسع فى هذه الفكرة ، وقام بتعميمها فى كتابه « روح القوانين » Esprit des lois .لقدكان من الحماقة افتراض أن « القدر الأعمى قد أنتج كل الآثار التى نراها فى العالم» فالناس «لا يخضعون لأوهامهم فقط؛ فإن سلوكهم يتبع قوانين معينة مستمدة من «طبيعة الأشياء» (١)وانهمك المؤرخون وفلاسفة التاريخ قرابة مائتى عام بعد ذلك فى تنظيم تجارب الماضى الإنسانى ، وذلك باكتشاف علل الأحداث التاريخية والقوانين التى تنظمها . وقد عبر عن هذه العلل والقوانين فى بعض الأحيان باصطلاحات ميكانيكية ، وفى أحيان أخرى باصطلاحات بيولوجية ، وباصطلاحات «ميتافيزيقية تارة أو باصطلاحات اقتصادية أو سيكلوجية تارة أخرى. ولكن الرأى الذى تم قبوله ، هو أن التاريخ يعتمد على حشد أحداث الماضى فى تعاقب منظم من العلل والمعلولات. وكتب فولتير فى مقال عن التاريخ للموسوعة « لو لم يكن لديك شىء تذكره لنا سوى أن همجيا قد خلف آخر على شاطىء أوكسوس Oxus وجكسارت Jaxartes ، فما الذى يهمنا فى هذا ؟ » وتبدلت الصورة فى السنين الأخيرة بعض الشىء . فنحن الآن لأسباب نوقشت فى محاضرتى الأخيرة لم نعد نتكلم عن قوانين تاريخية ، وحتى كلمة علة فإنها لم تعد تساير الزمن . ويرجع ذلك من ناحية إلى غموض فلسفى معين لا أرغب الخوض فى تفاصيله . ومن ناحية ثانية لافتراض اتصاله بالجبرية التى سوف أتناولها الآن . وترتب على ذلك أن بعض الناس يتكلمون الآن عن التأويل أو التفسير ولا يتكلمون عن العلة فى التاريخ ، أو يذكرون منطق الموقف ، أو المنطق الباطنى للأحداث ، وهذه العبارة «لديسى» . أو يرفضون الاتجاه العلى « لماذا حدث هذا ؟» مفضلين عليه الاتجاه الوظيفى « كيف حدث ؟ » وإن كان يبدو أنه لا مفر من تضمنه لهذا السؤال : كيف تسنى لهذا أن يحدث ، وبهذا فإنه يقودنا ثانية إلى السؤال : لماذا ؟ ويميز أخرون بين أنواع مختلفة من العلل

---

(١) روح القوانين « المقدمة » De L'esprit des Lois

الميكانيكية والبيولوجية والسيكلوجية .. إلخ ، وينظرون إلى العلة التاريخية بوصفها مقولة خاصة به . وبالرغم من أن بعض هذه الفوارق إلى حد ما صحيحة ، فإن الاهتمام بما هو مشترك بين كل أنواع العلل ، بدلا من الاهتمام بما يفرق بينها قد يكون أكثر فائدة من أجل غايتنا الحالية . وبالنسبة لى ، فإننى سوف أكون قانعا باستخدام الكلمة « علة » بمعناها الدارج ، مع تجاهل هذه التحسينات المعينة .

فلنبدأ بتوجيه سؤال عما يفعله المؤرخ من الناحية العملية عند ما تواجهه ضرورة تحديد علل للأحداث . إن أول خاصية لاتجاه المؤرخ نحو مشكلة العلة هو أنه يحدد عدة علل للحادثة الواحدة . وقد كتب الاقتصادى « مارشال » Marshall مرة : « إنه ينبغى تحذير الناس بكافة الوسائل الممكنة من النظر فى فعل أية علة واحدة . . دون مراعاة للعلل الأخرى التى تختلط معلولاتها بمعلولات هذه العلة (١) . وسوف يكون المتقدم للامتحان الذى لا يقدم سوى علة واحدة عند إجابة السؤال : « لماذا اندلعت الثورة فى روسيا سنة ١٩١٨ » سعيد الحظ إذا حصل على المرتبة الثالثة . ويتعامل المؤرخ مع كثرة من العلل ، ولو طلب إليه النظر فى علل الثورة الروسية ، لوجب عليه أن يذكر الهزائم المتتالية لروسيا وانهيار الاقتصاد الروسى من وطأة الحرب والدعاية المؤثرة للبلشفية ، وعجز الحكومة القيصرية عن حل المشكلة الزراعية ، وتركيز البرولتاريا المعدمة المستغلة فى مصانع بتروجراد ، وحقيقة أن لينين كان يعرف ما يريد ، وأن أحداً من الجانب الآخر كان لا يعرف له غاية . وباختصار : خليط مشوش من العلل الاقتصادية والسياسية والأيديولوجية والشخصية ، من علل بعيدة المدى وأخرى قصيرة المدى .

---

(١) « مارشال » Memorials of Alfred Marshall (ذكريات الفريد مارشال) ص ٤٢٨ — سنة ١٩٢٥ .

هـذا يوصلنا على الفور إلى السمة الثانية لاتجاه المؤرخ . إن المتقدم للامتحان الذى قنع ـ عند إجابته عن سؤالنا ـ بذكر اثنتىعشرة علة للثورة الروسية ، واحدة وراء الأخرى ، مع ترك الأمر عند هذا الحد ، قد يحصل على المرتبة الثانية ، ولـكن يندر حصوله على المرتبة الأولى . ومن المحتمل أن يكون قرار الممتحنين بشأنه أن لديه معلومات طيبة ، ولـكنه يفتقر إلى الخيال . والمؤرخ الحق عند ما تواجهه هـذه القائمة من العلل التى قام بجمعها ، فإنه سوف يشعر بإرغام ـ بحكم مهنته ـ إلى تنظيمها وإلى إقامة سلم تدريجى للعلل ، قد يحدد صلة كل منها بالأخرى . وربما كان هذا من أجل تقرير أى علة ، أو أى فئة من العلل يمكن أن تعد فى آخر المطاف أو فى « التحليل الأخير » ـ وهما تعبيران مستحبان لدى المؤرخين ـ العلة النهائية أو علة العلل . هـكذا يكون تفسيره لموضوعه . ويعرف المؤرخ بوساطة العلل التى يرجع اليها . فقد نسب « جيبون » تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها إلى انتصار البرابرة والدين ، وعزا المؤرخون الإنجليز من الأحرار « الهويج » فى القرن التاسع عشر بزوغ قوة بريطانيا ورخاءها إلى تقدم النظم السياسية التى ضمت مبادىء الحرية الدستورية . ونظرة جيبون والمؤرخين الإنجليز فى القرن التاسع عشر تعد اليوم قديمة ، لأنهم قد تجاهلوا العلل الاقتصادية ، التى دفعها المؤرخون المحدثون إلى الصدارة . والمناقشات التاريخية كافة تدور حول مسألة أسبقية العلل .

إن هنرى بوانكاريه Poincaré ، قد لاحظ فى المؤلف الذى اقتبست منـه فى محاضرتى الأخيرة ، أن العلم متقدم نحو « التنوع والتعقيد » ، ونحو « الوحدة والبساطة » فى نفس الوقت . وإن هـذا الازدواج ، وهذا التناقض الظاهرى ، شرط أساسى للمعرفة (١) . وهذا الكلام ليس أقل حقيقة

---

(١) بوانكاريه H. Poincaré فى كتابه La Science et l'hypothese (العلم والفرض) (١٩٠٢) ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

فى التـاريخ . فإن المؤرخ عند ما يزيد بحثه اتساعا وعمقا ، فإنه يضيف باستمرار - إجابات جديدة إلى سؤاله - لماذا ؟ . . فلقد أضافت التواريخ المتكاثرة للاقتصاد والاجتماع والحضارة والقانون - ولا نذكر الاستبصارات الجديدة فى تعقيدات التـــاريخ السياسى والفنيين الحديثين لعلم النفس والإحصاء فى السنوات الأخيرة - إلى عدد أسئلتنا ومداها إضافات كثيرة . ووصف « برتراند رسل » الموقف فى التاريخ عند ما لاحظ بدقة أن « كل تقدم فى العلم يأخذنا بعيداً عن الاطرادات الأولية التى تلاحظ فى البداية ، إلى عدة صور متمايزة من سوابق ولواحق ، وإلى دائرة دائمة الاتساع من السوابق التى تعتبر وثيقة الاتصال »(١). ولكن المؤرخ بحكم حافزه إلى فهم الماضى مرغم على تبسيط تعدد الأشياء وإخضاع إجابة لأخرى، وعلى تقديم بعض النظام والوحدة فى فوضى الأحداث وفوضى العلل الخاصة . والآن تبدو العبارات مثل إله واحد وقانون واحد وعنصر واحد ، أو حقيقة إلهية قاصية واحدة ، أو سعى هنرى آدم H. Adams « من أجل « تعميم كبير يستطيع أن ينهى صخب المرء من أجل التعلم(٢) » . يبدو ذلك كله فكاهات قد انقضى عهدها . ولكن تظل الحقيقة الخاصة بأن المؤرخ يجب أن يعمل نحو تبسيط العلل وكذلك نحو تعديدها . فالتاريخ يتقدم مثل العلم من خلال هذه العملية المزدوجة والظاهرية التناقض .

فى هذه النقطة يجب - وأنا مضطر - أن أتجه جانباً للبحث فى مسألتين فاتحتين للشهية تعترضان طريقنا . الأولى تسمى « الجبرية فى التاريخ » أو « إثم هيجل » . والأخرى « المصادفة فى التاريخ أو أنف كليوباترة » .

---

(١) « برتراند رسل » فى كتاب Mysticism & Logic سنة ١٩١٨ ص ١٨٨ (الغيبية والمنطق) .

(٢) آدم The Education of Henry Adams (تربية هنرى آدم) ص ٢٢٤ سنة ١٩٢٨ ، طبعة بوستون » .

وفى البداية يجب أن أذكر كلمة أو كلمتين : عن كيف ظهرت هاتان المسألتان . إن الأستاذ « كارل بوبر» Karl Popper الذى كتب فى «فينا» فى الثلاثينات من هذا القرن ، مؤلفاً هاماً عن النظرة الجديدة إلى العلم ، ترجم حديثاً إلى الإنجليزية تحت عنوان « منطق البحث العلمى » The Logic of Scientific Enquiry ، قد نشر - خلال الحرب - بالإنجليزية كتابين لها طابع أكثر شعبية ، هما : « المجتمع المفتوح وأعداؤه » و « عقم النزعة التاريخية(١) » . وقد كتب الكتابين تحت تأثير عاطفى قوى ارد فعل معارض لهيجل ، الذى عومل ومعه أفلاطون ، باعتبارهما السلفين الروحيين للنازية ، وللاعتراض على الماركسية السطحية إلى حد بعيد ، التى كان يعتنقها حرب اليسار فى بريطانيا سنة ١٩٣٠ . وكان الهدفان الرئيسيان هما الفلسفتين الجبريتين المزعومتين للتاريخ عند هيجل وماركس ، مجتمعين سويا تحت الاسم المهين « النزعة التاريخية(٢) » ، وفى سنة ١٩٥٤ نشر سير «ايزيا برلين» مقالا عن « الحتمية التاريخية » ، وتجنب فيه الهجوم على أفلاطون ، ربما تحت

---

(١) The Poverty of Historicism (عقم النزعة التاريخية) نشر فى صورة كتاب سنة ١٩٥٧ ، ولكنه يتكون من مقالات نشرت فى الأصل سنة ١٩٤٤ و ١٩٤٥

(٢) لقد تجنبت استخدام الكلمة « نزعة تاريخية » إلا فى موضع أو موضعين ، عند ما لم تكن ثمة حاجة إلى الدقة . فقد أفرغت مؤلفات الأستاذ «بوبر» فى هذا الموضوع ، الكثيرة القراءة ، الكلمة من المعنى الدقيق . والإصرار المستمر على تعريف الكلمات يدل على التعالم . ولكن ينبغى أن يعرف المرء ما الذى يتحدث عنه . والأستاذ « بوبر » يستخدم كلمة « نزعة تاريخية » باعتبارها تصلح للكلام عن كل رأى يبغضه عن التاريخ . ومن بينها بعض الآراء التى تبدو لى صحيحة ، وآراء أخرى لا يعتنقها اليوم كما أشك أى كاتب جاد . وقد اخترع كما يعترف فى كتابه The Poverty of Historicism (عقم النزعة التاريخية) حججاً خاصة بالنزعة التاريخية ، لم يستخدمها قط ، أى أحد معروف من أنصار =

تأثير بعض الاحترام الباقى لهـــذه الدعامة العتيدة لبناء اكسفورد(١) وأضاف إلى صحيفة الاتهام حجة لا وجود لهـا عند « بوبر » ، خاصة بأنه يعترض على نزعتى هيجل وماركس التاريخية ، لأن تفسيرهما الأفعال الإنسانية فى اصطلاحات علية قد تضمن إنكارا للإرادة الإنسانية الحرة وحثا للمؤرخين على تجنب الالتزام المفروض الذى تكلمت عنه فى محاضرتى الأخيرة، الخاص بتقرير اتهام أخلاقى إلى كل من « شارلمان » و « نابليون » و « ستالين » فى التاريخ . . وفيما عدا هذا فلا اختلاف يذكر بين المؤلفين. ولكن سير « إيزيا برلين» له شهرة هو جدير بها وله قراء عديدون. ففى خلال الخمس أو الست السنوات الأخيرة يكاد كل كاتب فى إنجلترا أو الولايات المتحدة من الذين كتبوا مقالا عن التاريخ أو حتى عرضا جادا لمؤلف تاريخى ، يدعى العلم بهيجل وبماركس وبالجبرية ، ويستهزىء بهم ، ويشير

= النزعة التاريخية . والنزعة التاريخية فى كتاباته تشتمل على كل من الأفكار التى شبهت التـاريخ بالعلم ، والتى فرقت بينهما تفرقة حادة . وفى كتاب The Open Society & its Enemies «المجتمع المفتوح وأعداؤه» اعتبر هيجل الذى تجنب التنبؤ ، الكاهن الأعظم للنزعة التاريخية . . ووصفت النزعة التاريخية فى مقدمة The Povery of Historicism بأنها اتجاه نحو العلوم الاجتماعية يفترض أن التنبؤ التاريخى هو غايتها الرئيسية . وقد استخدمت كلمة نزعة تاريخية ، إلى هـــذا الوقت استخداما عاما ، بوصفها الترجمة الإنجليزية للكلمة الألمانية Historismus . ويفرق بوبر الآن بين historism ، historicism وبذا أضاف عنصر اضطراب جديد إلى الاستخدام المضطرب القائم فعلا للكلمة . . يستخدم دارسيه D'Arcy فى كتابه The Sense of Histoy (مغزى التاريخ) سنة ١٩٥٩ ص ١١ ، كلمة Historicism بنفس المعنى الذى تستخدم فيه فلسفة التاريخ .

(١) ومع ذلك فقد بدأ الهجوم على أفلاطون، باعتباره الفاشيستى الأول فى سلسلة من الإذاعات لأحد أساتذة اكسفورد R. H. Crossman سنة ١٩٣٧ فى كتاب Plato — To day (أفلاطون اليوم) .

إلى سخافة الإخفاق فى إدراك دور المصادفة فى التاريخ . ربما لم يكن من الإنصاف أخذ سير «إيزيا» بجريرة أتباعه . فهو حتى إذا قال هراء فإنه يستحق اهتمامنا لأنه يقدمه بطريقة أخاذة وطريفة . ويكرر الأتباع الهراء ، ويعجزون عن جعله طريفا . وعلى أى حال ليس ثمة جديد فى كل هذا . فقد تكلم تشارلز كنجسلى Charles Kingsly وهو ليس بأبرز أساتذتنا للتاريخ المعاصر من أصحاب كراسى « رجيوس » Reguis . ومن المحتمل ألا يكون قد قرأ هيجل أو سمع عن ماركس فى محاضرته الافتتاحية سنة ١٨٦٠ عن « قدرة الإنسان الخفية على تحطيم قوانين وجوده . وهذا يثبت أنه لا وجود فى التاريخ (لأى عواقب حتمية) (١)» . ولكننا لسوء الحظ قد نسينا «كنجسلى» ، وقد أحيا الأستاذ «بوبر» وسير «إيزيا برلين» فيما ذكراه ، الاهتمام بمسألة بالية ، ونحن فى حاجة إلى بعض الصبر للقضاء على الاضطراب .

فلأبحث إذن فى البداية «الجبرية» ، التى سأعرفها ـ كما آمل ـ تعريفا لا يختلف فيه أحد ، أى الاعتقاد بأن كل شىء حدث له علة أو علل ، ولا يمكن أن يحدث فى صورة مختلفة ، إلا إذا طرأ اختلاف كذلك فى العلة أو العلل (٢) : إن الجبرية ليست مشكلة خاصة بالتاريخ ، بل بكل سلوك

---

(١) «كنجسلى» C. Kingsley فى كتابه The Limits of Exact Sciences as Applied to History (حدود العلوم الحقة فى تطبيقها على التاريخ) سنة ١٨٦٠ — ص ٢٢

(٢) الجبرية تعنى : أنه ما دامت المادة الأولية هى ما هى عليه ، فان كل ما يحدث، يحدث بصورة قاطعة ولا يمكن أن يكون مختلفا.. والقول بأنه يمكن ، يعنى فقط أنه قد يكون كذلك لو كانت المادة الأولية مختلفة — ذكرها الكسندر فى Essays Presented to E. Cassirer سنة ١٩٣١ ص ١٨ (مقالات مقدمة لكاسيرر) .

إنسانى . والكائن الإنسانى الذى ليس لأفعاله علة ، ومن ثم لا تخضع لشىء ، شىء مجرد مثل الفرد خارج المجتمع الذى تحدثنا عنه فى محاضرة سابقة. وقول الأستاذ «بوبر» «إن كل شىء ممكن فى الأمور الإنسانية(١)» ، إما أنه بلا معنى ، أو باطل . فلا أحـد فى الحيـاة العادية يعتقد ذلك أو يستطيع أن يعتقده . . والبديهية الخاصة بأن لكل شىء علة ، شرط لقدرتنا على فهم كل ما يجرى حولنا (٢) . وتعتمد الصفة الكابوسية لروايات «كافكا» على الحقيقة الخاصة بأنه لا شىء يحدث له علة ظاهرة ، أو أى علة يمكن التأكد منها . وهذا يؤدى إلى انحلال الشخصية الإنسانية ، التى تعتمد على الفرض الخاص بأن للأحداث عللا ، وأنه يمكن إثبات ما يكفى من هـذه العلل لإنشاء نمط متماسك بقدر كاف من الماضى والحاضر فى العقل الإنسانى ، لـكى يعمل مرشدا للعمل . والحياة اليومية مستحيلة إلا إذا افترض المرء أن هناك عللا تتحكم فى السلوك الإنسانى ، وأنها من حيث المبدأ قابلة للبرهنة . وقد ظن بعض الناس ـفيما مضىـ أنه من الـكفر البحث عن علل الظواهر الطبيعية ، حيث أن الإرادة الإلهية هى التى تتحكم بوضوح فيها . . وينتمى اعتراض «ايزيا براين» على تفسيرنا ، لمـاذا قام الناس بما فعلوا ، على أساس أن هذه الأفعال خاضعة للإرادة الإنسانية ، إلى نفس هـذا النوع من الافكار . وربما تبين من هـذا أن العلوم الاجتماعية

---

(١) بوبر K. Popper فى The Open Society & its Enemies (المجتمع المفتوح وأعداؤه) الطبعة الثانية — ١٩٥٢ — الجزء الثانى ص ١٩٧

(٢) لم يفرض العالم قانون العلية علينا. ولـكنه ربما كان أفضل طريقة لتكيفنا نحو العالم. ذكرها «رويف» Rueff فى كتابه From the Physical to Social Sciences طبعة بالتيمور سنة ١٩٢٩ — ص ٥٢ (من العلوم الطبيعية إلى العلوم الاجتماعية) . ويسمى الأستاذ بوبر فى كتاب The Logic of Scientific Enquiry (منطق البحث العلمى) الاعتقاد فى العلة بأنه تحقق ميتافزيقى لقاعدة قد أحسن تبريرها .

تمر اليوم فى نفس مرحلة التطور ، التى كانت فيها العلوم الطبيعية عند ما كانت تساق مثل هذه الحجج لمعارضتها .

فلننظر أولا: كيف نتناول هذه المشكلة فى الحياة اليومية . أثناء توجهك إلى شئونك اليومية قد اعتدت أن تصادف « سميث » ، وأن تحييه بذكر ملاحظة لطيفة عن الجو ، أو عن الحال بالكلية أو شئون الجامعة ، وهو يجيبك بلطف مماثل، وبذكر ملحوظة لا غاية وراءها عن الجو، أو عن حال العمل.. ولكن بفرض أن « سميث» ذات صباح بدلا من أن يجيب عن ملاحظتك بطريقته المعتادة ، انفجر فى هجاء عنيف لمظهرك الشخصى أو سلوكك ، فهل تهز له كتفيك ، أو تنظر إلى هذه المسألة بوصفها برهاناً يثبت حرية إرادته ، ويثبت الحقيقة الخاصة بأن كل شيء ممكن فى الأمور الإنسانية ؟ . . إننى أميل إلى الظن بأنك لن تفعل ذلك . وعلى العكس فمن المحتمل أنك ستقول شيئا مثل: «مسكين سميث » . «فأنت تعرف بالطبع أن والده قد مات فى مستشفى المجاذيب » ، أو « مسكين سميث . لا بد أنه قد صادف متاعب جديدة مع زوجته» . وبعبارة أخرى فأنت سوف تحاول تشخيص مسلك سميث الذى يبدو ظاهريا بغير علة ، وأنت مقتنع تماما بضرورة وجود علة ما . وأنت إذا فعلت ذلك ، تعرضت كما أخشى لحنق سير « ايزيا برلين» ، الذى قد يشعر بمرارة لأنك عند ما قمت بتفسير على مسلك سمث قد قبلت افتراضات هيجل وماركس ، وأحجمت عن التزامك اتهام « سميث » بالسفالة . ولكن لا يتبع أحد فى الحياة العادية هذه النظرة ، أو يفترض أن الجبرية أو المسئولية الأخلاقية معرضة للخطر ، فلا يثار فى الحياة الفعلية مأزق منطقى حول الإرادة الحرة والجبرية ،وليس هذا لأن بعض الأفعال الإنسانية حرة ، والأخرى حتمية . . فالواقع أن كل الأفعال الإنسانية حرة وحتمية معا . . ويتوقف ذلك على نظرة المرء إليها . والمسألة من الناحية العملية مختلفة مرة أخرى ، فإن لما قام به سميث علة أو عددا من العلل. ولكن ما دامت العلة لم تأت بسبب إكراه خارجى،

بل بإكراه يرجع إلى شخصيته، فهو مسئول أخلاقيا، لأنه من شروط الحياة الاجتماعية، أن يكون الناس البالغون العاديون مسئولين أخلاقيا عن شخصياتهم. فاعتباره مسئولا فى هذه القضية المعينة يرجع إلى حكمك العملى. ولكنك إذا فعلت، فلا يعنى هذا أنك نظرت إلى فعله، وكأنه بغير علة. فالعلة والمسئولية الأخلاقية مقولتان مختلفتان. لقد أقيم فى هذه الجامعة - حديثا - مؤسسة لعلم الإجرام، وكرسى له. وإننى واثق أنه لم يدر بخلد أولئك المهتمين بالبحث عن علل الجريمة، أن يفترضوا أن هذا يؤدى بهم إلى إنكار المسئولية الأخلاقية للمجرم.

والآن: فلنحاول النظر إلى المؤرخ، فهو يعتقد مثل الإنسان العادى أن للأفعال الإنسانية عللا، هى من حيث المبدأ قابلة للإثبات. والتاريخ مثل الحياة اليومية سوف يكون مستحيلا، إذا لم يقم هذا الفرض، فإن وظيفة المؤرخ الخاصة، هى البحث عن هذه العلل. وقد يظن أن هذا يدفعه إلى الاهتمام بالجانب الجبرى من السلوك الإنسانى اهتماما خاصاً، وإن كان لا يرفض الإرادة الحرة — إلا ما تعلق بالفرض الذى لا يمكن الدفاع عنه، الخاص بأن الأفعال الاختيارية ليس لها علة. كما أن مسألة الحتمية لا تزعجه، فإن المؤرخين - مثل غيرهم من الناس - يستهويهم فى بعض الأوقات استخدام عبارات بليغة، ويصفون الحادثة بأنها شىء «لا مفر منه»، عند ما يعنون فقط أن ارتباط العوامل بعضها ببعض، التى دفعت المرء إلى توقعها كان ذا قوة ساحقة. وقد بحثت حديثا فى التاريخ الذى قمت بكتابته عن هذه الكلمة المزعجة. ولا أستطيع أن أبرىء نفسى، وأقول إننى برئت من استخدامها. فقد كتبت فى إحدى الفقرات. إنه كان «لا مفر» من حدوث صدام بعد ثورة سنة ١٩١٧ بين البلشفية والكنيسة الأرثوذكسية. وليس من شك فى أنه قد كان القول «أعظم احتمالا» أكثر حكمة. ولكن هل يسمح لى باعتبار هذا التصحيح شيئا دالا على ادعاء العلم؟ فمن الناحية العملية لا يدعى المؤرخون أن الأهداف لا مفر منها قبل أن تحدث.

فهم غالباً يناقشون المسالك البديلة المتيسر اتباعها لشخصيات القصة dramatis personae ، بفرض أن حق الاختيار كان مباحا . وإن كانوا ينحون منحى صائبا عند ما يفسرون لماذا اختير مسلك وفقا للظروف ، ولم يتم اختيار الآخر . فلا شيء في التاريخ لا مفر منه ، إلا من ناحية المعنى الصورى الخاص بأنه لو حدث بصورة أخرى لكان الواجب أن تكون العلل السابقة مختلفة . وإننى بوصفى مؤرخا على أتم الاستعداد للاستغناء عن كلمات « لا مفر من » و « لا مناص » ، و « لا يمكن تجنب » ، و « لا مهرب من » ، ولكن الحياة سوف تكون خاملة رتيبة .. فلنترك ذلك للشعراء والميتافيزيقين .

وهكذا يبدو الاتهام بالحتمية عقيما وبلا غاية ، وكم كانت حدة الاهتمام به بالغة فى السنين الأخيرة ، حتى إننى أرى ضرورة البحث عن الدوافع الكامنة وراء ذلك .. إن مصدره الأساسى ـ كما أشك ـ هو ما يمكن أن أسميه مدرسة الفكر « ما قد يحدث » أو بالأحرى « مدرسة العاطفة » . وهى تربط نفسها ارتباطا يكاد يكون تاما بالتاريخ المعاصر وحده . وفى الفترة الماضية هنا فى كامبردج عثرت على حديث إلى إحدى الجماعات بعنوان « هل كانت الثورة الروسية محتمة ؟ » ، وإننى واثق من أنه كان المقصود حديثاً جاداً ، ولكن لو أنك صادفت محاضرة قد أعلن عنها بالقول « هل كانت حروب الوردتين حتمية » ، لجال بخاطرك على الفور أنها نكتة . إن المؤرخ يكتب عن الغزو النورماندى أو حرب الاستقلال الأمريكية . . وكأن ما حدث ، كان لا بد فى الواقع أن يحدث . . وكأن مهمته هى ببساطة أن يشرح ما حدث ولماذا . ولا يتهمه أحد ، بأنه من الجبريين أو بالفشل فى مناقشة الإمكانية البديلة الخاصة باحتمال تعرض وليم الفاتح أو الثوار الأمريكيين للهزيمة . ومع ذلك ، فعند ما أكتب عن الثورة الروسية سنة ١٩١٧ باتباع نفس الطريقة تماما — وهى الطريقة الوحيدة التى تناسب المؤرخ ، فإنى أرى نفسى وقد تعرضت لهجوم من النقاد ، لأننى قد صورت ضمنا الشيء الذى حدث وكأنه كان لا مفر من وقوعه ، ولأننى

قد أخفقت فى فحص كل الأشياء التى كان من المحتمل أن تحدث . فيقال من المحتمل أن الثورة ما كانت لتندلع لو أن ستوليبين Stolypin قد تيسر له الوقت لإكمال إصلاحه الزراعى، أو أن روسيا لم تشترك فى الحرب ، أو إذا فرض أن حكومة كيرنسكى Kerensky قد قامت بواجبها خير قيام ، أو أن زعامة الثورة قد أسندت إلى « المنشفية » أو للثوار الاجتماعيين ، بدلا من البلشفية . ومن الممكن تصور هذه الافتراضات نظريا ، ومن المستطاع على الدوام إعداد لعبة منزلية تقوم على « ما قد يحدث فى التاريخ » . ولكن لا توجد صلة بين هذه الافتراضات والجبرية ، لأن الجبرى سوف يجيب فقط إنه لحدوث هذه الأشياء ينبغى أن تكون العلل مختلفة ، كما أنه لا توجد أى صلة كذلك بينها وبين التاريخ . والمسألة هى أن ليس هناك من يرغب جديا فى قلب نتائج الغزو النورماندى أو الاستقلال الأمريكى ، أو التعبير عن احتجاج عاطفى ضد هذه الأحداث ، ولا يعترض أحد عند ما ينظر المؤرخ إليها باعتبارها فصولا منتهية ، ولكن كثيرين من الذين عانوا مباشرة أو بالتبعية من نتائج النصر البلشفى، أو ما زالوا يخشون عواقبه البعيدة ، يرغبون فى تسجيل احتجاجهم ضده . ويتجسم هذا الاحتجاج ، عند ما يقرأون التاريخ ، ويتركون لخيالهم العنان لتخيل جميع الأشياء المرغوبة التى قد تحدث ، وإعلان الغضب من المؤرخ الذى يقوم بواجبه بهدوء ، مفسراً ما حدث ومعللا لماذا ظلت أفكارهم الوديعة التى تبطن رغبة دون أن تتحقق . إن مبعث القلق فى التاريخ المعاصر هو أن الناس يذكرون الوقت الذى كانت فيه جميع سبل الاختيار ما زالت مفتوحة ، ويرون أنه من العسير اتباع اتجاه المؤرخ الذى أوصدت أمامه جميع هذه السبل بعد أن تم تحقق الوقائع fait accompli ، وهذا رد فعل عاطفى تماما ، وغير تاريخى ، ولكنه هو الذى هيأ جانباً كبيراً من الحملة الحديثة الموجهة ضد الفكرة المقترحة عن حتمية التاريخ . فلنحاول التخلص من هذه الأمور التى تعترض سبيلنا تخلصاً نهائياً .

أما مصدر الهجوم الآخر فهو لغز أنف كليوباتره الشهير . إنه النظرية القائلة أن التاريخ ـ بصفة عامة ـ فصل من الحوادث وسلسلة من الأحداث التى تتحكم فيها المصادفة ، والتى يمكن إرجاعها فقط إلى أكثر العلل عرضية ، فلم تترتب معركة اكتيوم على نوع العلل الذى يسلم المؤرخون به جدلا فى العادة ، بل هى ترجع إلى افتتان مارك أنطونيو بكليوباتره . وقد لاحظ « جيبون » أنه عندما تعطل بيازيد عن السير إلى وسط أوربا بفعل النقرس أن « ألماً حاداً يحل بأنسجة رجل واحد كفيل بالحيلولة دون شقاء شعوب بأسرها أو إرجائه (١)» . وعندما مات الملك الإسكندر ملك اليونان فى خريف سنة ١٩٢٠ من تأثير عضة قرد مدلل ، ترتب على هذا الحادث سلسلة من الأحداث السريعة ، التى دعت سير ونستون تشرشل للملاحظة « أن ربع مليون شخص قد ماتوا نتيجة لعضة القرد هذه (٢) » أو أنظر ثانية إلى تعقيب تروتسكى ، على الحمى التى أصابته أثناء صيد البط ، فعاقه ذلك عن أداء أى شىء فى فترة حاسمة من صراعه مع « زينوفيف » Zinoviev وكامينيف Kamenev « وستالين » فى خريف سنة ١٩٢٣ . وقال : « يستطيع المرء أن يتنبأ بثورة أو بحرب ، ولكن من المستحيل التنبؤ بعواقب رحلة صيد بط وحشى فى الخريف (٣)» . فأول شىء يجب توضيحه هو أنه لا صلة بين هذه المسألة ، وبين الخلاف حول الجبرية . إن افتتان انطونيو بكليوباتره ، أو إصابة بيازيد بالنقرس، أو برودة الحمى

(١) جيبون « تدهور الإمبراطورية الرومانيـة وسقوطها Decline & Fall of Roman Empire » . الفصل الرابع والستون .

(٢) تشرشل W. Churchill فى كتاب The World Crisis The Aftermath (الأزمة العالمية) سنة ١٩٢٠ ص ٣٨٦

(٣) ليون تروتسكى L. Trotsky الترجمة الانجليزية ١٩٣٠ ص ٤٢٥ لكتاب « حياتى » « My Life » .

التى أصابت تروتسكى ، لهى مسائل تتحكم فيها أمور عرضية مثل أى شىء آخر يحدث . وإنه من الإساءة إلى جمال كليو باتره -التى ليس ثمة ما يبررها- الإشارة إلى أن افتتان أنطونيو كان بغير علة . فإن الارتباط بين جمال الإناث وافتتان الذكور لأحد نتائج العلة والمعلول المشاهدة فى الحياة اليومية الأكثر انتظاما . وأن ما يدعى بالأمور العرضية فى التاريخ يمثل نتيجة علة ومعلول اعترضا ، أو يمكن القول اصطدما مع النتيجة التى يعنى المؤرخ بحثها بصفة أولية . وقد تحدث « بيورى » بحق عن تصادم سلسلتين عليتين مستقلتين (١) . ويعد سير « ايزيا برلين » الذى افتتح مقاله عن الحتمية التاريخية، بالاستشهاد بمقالة برنار بيرنسون Bernard Berenson عن «النظرية العرضية للتاريخ» مع الثناء عليها، هو أحد أولئك الذين يخلطون بين عرضى بهذا المعنى وعدم وجرد جبرية علية . ولكننا إذا استبعدنا هذا الخلط جانباً ، فإن لدينا مشكلة حقيقية بين أيدينا، وهى كيف يستطيع المرء اكتشاف تعاقب متماسك فى التاريخ للعلة والمعلول ، وكيف يعثر على أى معنى للتاريخ ، ما دام التعاقب معرضاً للانقطاع أو الانعكاس فى أية لحظة بتأثير أى تعاقب آخر ، هو من وجهة نظرنا لا يمت بصلة ؟ .

فلنتوقف هنا هنيهة لنلاحظ أصل هذا الإصرار الحديث الشائع على دور المصادفة فى التاريخ . ويبدو أن « بوليبيوس » هو أول مؤرخ عنى بهذه المسألة فى صورة نسقية . وقد تسرع « جيبون » فى كشف السبب . فقد لاحظ أن اليونانيين بعد أن تحولت دولتهم إلى مقاطعة ، قد عزوا انتصارات روما إلى حظ الجمهورية ، وليس إلى جدارتها (٢) .

---

(١) أنظر إلى كتاب « بيورى » The Idea of Progress (فكرة التقدم) سنة ١٩٢٥ صفحات ٣٠٣ — ٣٠٤ من أجل إثبات بيورى لهذه النقطة .

(٢) «جيبون» فى «تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» - من الأمور الشائعة ملاحظة انغماس اليونانيين كذلك ، بعد أن غزاهم الرومان فى اللعبة=

و « تاسيتوس » Tacitus الذى أرخ كذلك لتدهور بلاده ، كان هو المؤرخ القديم الآخر الذى أطلق لنفسه العنان ، فى تأملات واسعة عن المصادفة . ويرجع الإصرار المتجدد للكتاب الإنجليز ، على أهمية المصادفة فى التاريخ إلى ظهور مزاج من التردد والخوف بدأ بداية هذا القرن ، وأصبح ملحوظا بعد سنة ١٩١٤ . ويبدو أن أول مؤرخ بريطانى يترنم بهذه النغمة بعد فترة طويلة هو « بيورى » ، الذى لفت الأنظار فى مقال ظهر ١٩٠٩ بعنوان « الداروينية فى التاريخ » Darwinism in History إلى عنصر التطابق بالمصادفة ، « الذى يساعد إلى حد كبير على تقرير الأحداث فى التطور الاجتماعى » . وقد خصص مقالا لهـذا الموضوع سنة ١٩١٦ تحت عنوان « أنف كليوباتره »(١) Cleopatra Nose . ويطالب « فيشر » H. A L. Fisher فى الفقرة التى سبق اقتباسها ، التى تعكس تحرره من الوهم بعد إخفاق أحلام الأحرار بعد الحرب العالمية الأولى من قرائه الاعتراف « بما يلعبه الحادث وغير المرئى » فى التاريخ »(٢) . ولقد

= التاريخية « ما قد كان يمكن أن يحدث » وهو العزاء المفضل لدى المهزومين ، فهم يقولون لأنفسهم ، لو أن الإسكندر لم يمت صغيراً لقام بغزو الغرب ولأصبحت روما خاضعة للملوك اليونانيين (ذكرها فرتز K. von Fritz فى كتاب The Theory of the Mixed Constitution in Antiquity (نظرية الدستور المختلط فى العصر القديم) طبعة نيويورك سنة ١٩٥٤ — ص ٣٩٥

(١) قد أعيد طبع كلا المقالين فى كتاب « بيورى » Selected Essays (مقالات مختارة) سنة ١٩٣٠ — أنظر إلى تعقيب كولنجوود على آراء « بيورى » فى كتاب The Idea of History (فكرة التاريخ) ص١٤٨ — ١٥٠ (الفصل الثانى)

(٢) أنظر الفقرة فى الفصل الثانى — يكشف ما اقتبسه « توينبى » من عبارة « بيورى » فى كتابه Study of History عن إساءة فهم . فهو يراه نتيجة لاعتقاد الغرب الحديث فى القدرة الفائقة للمصادفة التى تتولد عنها مبدأ =

توافق انتشار نظرية التاريخ ، بوصفه فصلا من المصادفات في إنجلترا ، مع بزوغ مدرسة من الفلاسفة في فرنسا ، تدعو إلى أن الوجود ليس له علة أو سبب أو ضرورة . وأنا اقتبس هذه العبارة من كتاب « سارتر » الشهير « الوجود والعدم » L'être et Le néant وفي ألمانيا قد أصبح المؤرخ المحنك « ماينكه » كما سبق أن لاحظنا متأثراً بدور المصادفة في التاريخ إلى نهاية حياته . وقد وجه اللوم إلى « رانكه » لأنه لم يعن بها العناية الكافية . وبعد الحرب العالمية الثانية ، نسب مصائب الأربعين سنة الأخيرة القومية إلى سلسلة من الحوادث العرضية، مثل: تفاهة القيصر وانتخاب هندنبرج لرياسة جمهورية فيمار ، وطابع هتلر التسلطي وما إلى ذلك ، وهو إفلاس ذهن مؤرخ عظيم من جراء المصائب التي حلت ببلده . ويلاحظ أن النظريات التي تؤكد دور المصادفة أو الأمور العرضية في التاريخ ، تسود في البلاد التي تمر بفترات عصيبة ، والتي ليست في القمة . والرأي القائل بأن نتائج الامتحانات بأسرها مثل أوراق اليانصيب ، يصادف ذيوعا على الدوام بين أولئك الذين لم يصادفهم التوفيق .

ولكن الكشف عن مصادر أي اعتقاد ، لا يعني انتهاء بحثه ، فما زال علينا أن نكتشف تماماً ما يفعله « أنف كليوباتره » في صفحات التاريخ . ويعد مونتسكيو بوضوح هو أول من حاول الدفاع عن قوانين التاريخ ضد هذا التعرض . فقد كتب في مؤلفه عن عظمة الرومان وتدهورهم :

« إذا قضت علة معينة مثل نتيجة عرضية لمعركة ، على دولة ، فرجع ذلك وجود علة عامة ، قد جعلت سقوط الدولة ينجم عن معركة مفردة » .

= Laissez – faire (حرية العمل) — لم يعتقد أصحاب نظرية Laissez – faire في المصادفة ، بل اعتقدوا في يد خفية تملي انتظاما ذا نفع على تنوع السلوك الإنساني ، ولا تعد ملحوظة « فيشر » نتيجة لفكرة Laissez – faire ، بل هي نتيجة لانهيارها في السنوات ١٩٢٠ — ١٩٣٠

وقد لاقى الماركسيون كذلك بعض الصعوبات فى هذه المسألة ، وكتب ماركس عنها مرة واحدة ، وكانت هذه المرة الوحيدة فى خطاب :

« كان يكون للتاريخ طابع غيبى ، لو أنه لم يوجد به مكان للمصادفة ، وهذه المصادفة نفسها تصبح بالطبع جانباً من الاتجاه العام للتقدم ، وتصححها صور أخرى من المصادفة .. ولكن التعجل والتعويق يعتمدان على مثل هذه « الأمور العرضية » التى تضم طابع (المصادفة) للأفراد الذين هم على رأس حركة فى البداية (١) » .

بذا قدم ماركس دفاعا عن المصادفة فى التاريخ تحت ثلاثة رؤوس موضوعات ، أولا : أنها ليست بالغة الأهمية ، فهى قد تؤدى إلى الإسراع أو التعويق ، ولكنها كما يفهم ضمناً لا تغير مجرى الأحداث تغييراً رئيسياً . ثانياً : إن أية مصادفة تصحح الأخرى . ولذا فإن المصادفة تبطل آثار نفسها فى النهاية . ثالثاً : صورت المصادفة بصفة خاصة ، فى طابع الأفراد (٢) . ودعم تروتسكى نظرية تصحيح الأمور العرضية ، أو إبطال أثرها فى تشبيه بارع ، بقوله :

« إن عملية التاريخ بأسرها هى انحراف للقانون التاريخى من خلال العرضى ، ويمكننا القول بلغة علم الأحياء ، إنه يمكن إدراك القانون التاريخى من خلال الانتقاء الطبيعى Natural Selection للأشياء العارضة (٣) » .

---

(١) « ماركس » ، وانجلز ـ مؤلفاتهما (الطبعة الروسية) ص ١٠٨ الجزء السادس والعشرون .

(٢) قد ساوى « تولستوى » فى كتابه (الحرب والسلام) بين المصادفة والعبقرية بوصفهما اصطلاحين يعبران عن عدم مقدرة الإنسان على فهم العلل النهائية

(٣) ذكرها « ليون تروتسكى » فى كتابه « حياتى » My Life سنة ١٩٣٠ (ص ٤٢٢) ـ اتخذ تولستوى هذا الرأى « نحن نرغم على اتباع مذهب القدرية =

وأننى أعترف بأننى أرى هذه النظرية غير كافية وغير مقنعة ، فقد بولغ فى تقدير دور الأمور العرضية فى التاريخ - فى يومنا هذا - لدرجة كبيرة ، بواسطة أولئك الذين يهمهم تأكيد أهميتها ، إنها موجودة ، والقول بأنها تسرع فقط أو تعوق ، ولكنها لا تغير ، هو لعب بالألفاظ . ولا أرى سبباً للاعتقاد بأن تصحيح حادث عرضى مثل موت لينين قبل الأوان فى سن الرابعة والخمسين ، يتم آلياً بواسطة حادث عرضى آخر ، بطريقة ما تساعد على استعادة توازن العملية التاريخية .

ولا يعتبر كافياً كذلك الرأى القائل : إن الأمور العرضية فى التاريخ مقياس لجهلنا فحسب ، أو إنها مجرد اسم يطلق على شىء نعجز عن فهمه . إن هذا بلا شك يحدث أحياناً لقد وصفت الكواكب باسم « السيارة » عندما افترض أنها تسير على غير هدى فى السماء وعندما لم يفهم انتظام حركاتها . ووصف أى شىء بأنه « خطب » وسيلة مفضلة لكى يعفى المرء نفسه من الإلتزام المجهد بالبحث عن علة حدوثه . وإننى أميل عندما يذكرلى أحد أن التاريخ هو فصل من الأمور العرضية إلى اتهامه بالبلادة الذهنية أو انخفاض حيويته الفكرية . ومن الأمور الشائعة لدى المؤرخين الجادين الإشارة إلى الأشياء التى ينظر إليها إلى الآن على أنها عرضية ، لم تكن عرضية على الإطلاق ، ولكن من المستطاع تفسيرها عقلياً ؛ ووضعها فى مكانها اللائق فى النموذج الأكثر اتساعا للأحداث . ولكن هذا لا يجيب عن سؤالنا إجابة تامة ، فإن الحادث العارض ليس ببساطة بالشىء الذى نعجز عن فهمه ، وإننى أعتقد أنه يجب السعى نحو حل لمشكلة العرضى فى التاريخ ، بالتفكير بطريقة مختلفة تماماً .

= تفسيراً للأحداث غير المتعقلة ، أى الأحداث التى لا نستطيع فهم معقوليتها ، فى كتابه (الحرب والسلام) الفصل الأول - أنظر كذلك الفقرة المذكورة فى ص ١٣٠ (ملحوظة ٢) .

قد رأينا فى مرحلة متقدمة أن التاريخ يبدأ بانتقاء الوقائع وترتيبها بواسطة المؤرخ ، لكى تصبح وقائع تاريخية ، فليست كل الوقائع بوقائع تاريخية . ولكن الحد الفاصل بين الوقائع التاريخية وغير التاريخية ، ليس جامداً أو دائماً . . ويمكن كما يقال رفع مرتبة أية واقعة لكى تصبح واقعة تاريخية بمجرد اتضاح ارتباطها وأهميتها . . ونحن نرى الآن أنه يحدث شىء مشابه فى اتجاه المؤرخ نحو العلل . فإن لصلة المؤرخ بعلله ، نفس الطابع المزدوج والمتبادل ، مثل صلة المؤرخ بوقائعه . فالعلل هى التى تقرر تفسيره للعملية التاريخية ، وتفسيره يقرر انتقاءه للعلل وترتيبها ، والنظام التصاعدى للعلل والأهمية النسبية لعلة أو مجموعة من العلل أو أخرى ، هو ماهية تفسيره . وهذا يهىء مفتاح مشكلة العرضى فى التاريخ . . فشكل أنف كليوباتره وإصابة بيازيد بالنقرس ، وعضة القرد التى قتلت الملك الإسكندر ، ووفاة لينين . . كل هذه الأمور كانت عرضية ، وغيرت مجرى التاريخ . ومن العبث محاولة تجاهلها ، أو الادعاء بأنها بمعنى أو آخر كانت بغير أثر . ومن ناحية أخرى ، فبالنسبة لأنها كانت عرضية ، فإنها لا تشترك فى أى تفسير عقلى للتاريخ ، أو فى أى نظام تصاعدى يضعه المؤرخ ، لأهمية العلل . وقد افترض الأستاذ بوبر والأستاذ برلين — اللذان أذكرهما مرة أخرى ، بوصفهما أعظم ممثلين لهذه المدرسة ، ولهما قراء عديدون — أن محاولة المؤرخ البحث عن أهمية العملية التاريخية ، والاستنتاج منها ، يعد مساوياً لمحاولة « تحويل » التجربة بأسرها إلى نظام متناسق . ووجود العرضى فى التاريخ يعرض أى محاولة مثل هـــذه للإخفاق . ولكن أى مؤرخ عاقل لا يدعى القيام بأى شىء وهمى يضم « التجربة بأسرها » ، فهو لن يستطيع أن يضم أكثر من جزء ضئيل من الوقائع ، حتى من قطاعه ، أو جانبه المختار من التاريخ . إن عالم المؤرخ ، مثل عالم العالم الطبيعى ، ليس طبعة فوتوغرافية للعالم الحقيقى ، بل هو بالأحرى نموذج فعال يمكنه من فهم العالم الحقيقى والسيطرة عليه لدرجة

كبيرة أو يسيرة ، ويستقطر المؤرخ من تجربة الماضى ، أو من القدر الذى فى متناول يديه من تجربة الماضى على هذا الجانب ، الذى يعترف بأنه صالح ومناسب للتوضيح والتفسير العقليين ، ويستنتج منه استنتاجات قد تساعد فى الإرشاد للعمل . وقد أشار كاتب حديث مشهور عن إنجازات العلم بطريقة تصويرية ، إلى ما يعمله العقل الإنسانى الذى « ينقب فى سلة مهملات (الوقائع) المشاهدة . . ينتقى الوقائع المشاهدة المرتبطة ، ويقوم بإصلاحها وترتيبها فى نمط ، ويرفض الوقائع غير المرتبطة حتى يلتئم بعضها مع بعض فى نسيج عقلى من المعرفة (١) . وإننى سوف أقبل هذا مع بعض التحفظات الواجب مراعاتها ضد الأخطار غير المناسبة للذاتية .

قد يحير هذا الإجراء الفلاسفة ، وربما بعض المؤرخين ويصدمهم ببساطته ولكنه إجراء مألوف تماماً لدى الناس العاديين عند قيامهم بالمهام العملية فى الحياة . ولأذكر مثلا .. أثناء عودة «جونز» من حفل ، شرب فيه أكثر من نصيبه المعتاد من الكحول فى سيارة ، ظهر أن فراملها كانت ضعيفة ، صرع فى ركن مظلم ، اشتهر بضعف الرؤية فيه روبنسون الذى كان يعبر الطريق لشراء «سجاير» من متجر على الناصية وقتله . وبعد أن عادت الأمور إلى مجاريها ، تقابلنا فى قسم الشرطة مثلا للبحث عن أسباب الحادثة ، هل هى ترجع إلى حالة السائق نصف المخمور ، وفى هذه الحالة قد يكون هناك اتهام جنائى ؟ أو إلى ضعف الفرامل ، وفى هذه الحالة ينبغى أن يقال شىء إلى الجهة التى قامت بإصلاح السيارة منذ أسبوع فقط ؟ أو إلى الركن المظلم ، وفى هذه الحالة قد يطلب من المسئولين عن الطريق العناية بهذا الأمر . . وبينما نحن نتناقش فى هذه المسألة العملية ، اقتحم الحجرة سيدان مبجلان ، لن أحاول أن أذكر اسميهما . وبدآ يقولان بطلاقة بالغة وإفخام ، إنه لو أن روبنسون لم يستنفد سجائره تلك الأمسية ، لما قام

---

(١) « بول » L Paul فى كتاب (القضاء على الإنسان) The Annihilation of Man (١٩٤٤) ص ١٤٧

بعبور الطريق ، ولما قتل ، وأن رغبة روبنسون فى الحصول على السجائر هى لذلك علة مقتله ، وأن أى بحث يتجاهل هذه العلة يعد إضاعة للوقت ، وكل استنتاج منه لا يعنى شيئا ، وأنه بغير طائل . حسنا فماذا نفعل؟ بمجرد تمكننا من اعتراض هذا السيل من الفصاحة، فإننا نشيع زائرينا الاثنين برفق، ولكن بحزم إلى الباب ، و نصدر تعليمات إلى الحارس بألا يدعهما يمران لأى سبب مرة أخرى ، ونستمر فى بحثنا . ولكن ما هى الإجابة التى لدينا على هذين المعترضين ؟ بالطبع إن روبنسون قد قتل لأنه من مدمنى السجائر ..؟ ، وكل شىء يذكره المولعون بالمصادفة، وبما هو حادث فى التاريخ صادق تماما ومنطقى للغاية ، إنه يحتوى على نوع المنطق الذى لا يرحم ، الذى نصادفه فى قصص آليس فى بلد « العجائب » وفى المرآة . ولكن فى الوقت الذى لا أخضع فيه لأحد فى إعجابى بهذه الأمثلة الناضجة للبحث فى أكسفورد ، فإننى أفضل إبقاء نمطى المنطق المختلف منعزلا ، فإن نمط (الادعاء والتعالم) ليس بنمط التاريخ .

فالتاريخ إذن هو عملية انتقاء وفقا للأهمية التاريخية . وإذا استعرنا عبارة « تلكوت بارسون » مرة أخرى «التاريخ نسق انتقائى» ليس فقط فى اتجاهه نحو معرفة الواقع فحسب ، بل فى اتجاهات البحث عن علّة الواقع كذلك . وكما ينتقى المؤرخ من المحيط اللانهائى للوقائع ، تلك التى لها أهمية لغايته ، فإنه ينتزع كذلك من بين العدد الوفير من العلل والمعلولات المتعاقبة تلك ، وتلك فقط التى لها أهمية تاريخية . ومعيار الأهمية التاريخية ، هو قدرته على جعلها ملائمة لنمطه الخاص بالتوضيح العقلى والتفسير . ومن الواجب رفض أى علل ومعلولات متعاقبة أخرى بوصفها عرضية ، لا لأن الصلة بين العلة والمعلول مختلفة ، بل لأن التعاقب نفسه غير وثيق الارتباط ، والمؤرخ لا يستطيع أن يفعل شيئاً بخصوصه ، فهو لا يستجيب إلى التفسير العقلى ، وليس له معنى سواء للماضى أو الحاضر. فمن الحقيق أن لأنف كليوباتره أو نقرس بايزيد ، أو عضة القرد لإسكندر ، أو وفاة لينين ، أو تدخين روبنسون للسجائر ، نتائج . ولكن

لا يعنى شيئاً القول كقضية عامة ، إن القادة يخسرون الحرب لولعهم بملكات حسناوات ، أو أن الحروب تنشب لأن الملوك يحتفظون بقرود مدللة ، أو أن النـاس تصـدمهم السيارات فى الشوارع وتقتلهم ، لأنهم يدخنون السجاير . وأنت من ناحية أخرى إذا قلت للرجل العادى بأن روبنـسون قد قتل لأن السائق كان مخموراً ، أو لأن (الفرامل) كانت معطلة ، أو لوجود زاوية مظلمة فى الطريق ، فإن هذا سيبدو له تفسيراً مقنعاً ومعقولاً . وإذا اختار المفاضلة ، فإنه قد يقول إن هذا التفسير هو العلة «الحقيقية» لموت روبنسون ، وليس رغبته فى الحصول على السجائر. وبالمثل فأنت إذا ذكرت لدارس التاريخ أن الخلافات فى الاتحاد السوفييتى فى العشرينات من هذا القرن قد نجمت عن مناقشات حول معدل التصنيع ، أو حول أفضل السبل لإغراء الفلاحين على زرع القمح لإطعام المدن ، أو أنها ترجع أيضاً إلى الطموح الشخصى للزعماء المتنافسين ، فإنه سوف يشعر بأن هذه التفسيرات معقولة وهامة من الناحية التاريخية ، بمعنى أنه يمكن تطبيقها كذلك على مواقف تاريخية أخرى ، وأنها علل حقيقية لما حدث بمعنى أن وفاة لينين العرضية قبل الأوان لم تكن علة . وربما أمكن تذكيره إن كان من معتادى التأمل فى مثل هذه الأشياء بعبارة «هيجل» فى مقدمة (فلسفة القانون) التى كثيراً ما تقتبس وكثيراً ما يساء فهمها . « ما هو معقول واقعى وما هو واقعى معقول » .

فلنرجع لحظة إلى علل موت «روبنسون» . لم تصادفنا أى صعوبة فى إدراك أن بعض العلل كانت معقولة و « حقيقية » ، وأن البعض الآخر كان غير معقول وعرضى . فوفقاً لأى محك قمنا بالتفرقة ؟ إن القدرة على الاستدلال تمارس عادة لغاية ما ، والمثقفون قد يستخلصون النتائج من الحوادث أو يظنون أنهم يستخلصونها من الحوادث ، ولكن إذا تكلمنا فى صراحة ، فإن الإنسان يستدل ويستخلص النتائج من الحوادث من أجل غاية . ونحن عند ما أقررنا بعض التفسيرات بوصفها معقولة وأقررنا

تفسيرات أخرى بوصفها غير معقولة ، فإننى أرى أننا قد ميزنا بين تفسيرات تؤدى إلى غاية وأخرى لا تؤدى إلى أى غاية . وفى القضية المنظورة كان من المعقول افتراض : أن إيقاف انغماس السائقين فى الشراب ، أو زيادة إحكام الرقابة على أحوال (الفرامل) ، أو تحسين مواقع الطرق قد يؤدى إلى إنقاص عدد ضحايا المرور ، ولكن لم يكن معقولا على الإطلاق افتراض أنه يمكن تخفيض عدد ضحايا المرور بمنع الناس عن تدخين السجاير . وكان هذا هو المحك الذى استعنا به فى التفرقة . ويحدث نفس الشىء فى اتجاهنا نحو العلل فى التاريخ . هناك كذلك نميز بين العلل المعقولة والعرضية . وبالنظر إلى أنه يمكن تطبيق العلل المعقولة على بلاد أخرى وعصور أخرى ، فإنها تؤدى إلى تعميمات مثمرة ؛ ويمكن الاستفادة من الدروس المستقاة منها ، إنها تؤدى إلى غاية توسيع (١) فهمنا وتعميقه ، والعلل العرضية لا يمكن أن تعمم ما دامت، بأوسع معنى للكلمة، مفردة ، فهى لا تعلم أى دروس ، ولا تؤدى إلى أى نتائج . ولكن هنا يجب أن أقدم نقطة أخرى . إن هذه الفكرة الخاصة بغاية منظورة هى التى جاءت بمفتاح بحثنا للعلية فى التاريخ . وهى تتضمن بالضرورى أحكاما قيمية . والتفسير فى التاريخ - كما رأينا فى المحاضرة الأخيرة - مرتبط دائماً بأحكام القيمة ، والعلية مرتبطة بالتفسير . ووفقاً لكلمات « ماينكه »

---

(١) لقد تعثر الأستاذ « بوبر » فى إحدى اللحظات فى هذه النقطة ، ولكنه أخفق فى إدراكها . فبعد أن افترض « كثرة » من التفسيرات ، هى بصفة رئيسية فى مستوى واحد من الناحيتين الإيحائية واليقينية (بصرف النظر عما تتضمن هاتان الكلمتان) تماماً ، فإنه أضاف بين قوسين « أنه يمكن تمييز بعضها من ناحية خصوبتها» . وهى نقطة على جانب من الأهمية - ذكرت فى كتاب The Poverty of Historicism (عقم النزعة التاريخية) ص ١٥١ . إنها ليست نقطة على جانب من الأهمية ؛ بل هى النقطة الرئيسية التى تثبت أن النزعة التاريخية ببعض معانى الكلمة ليست عقيمة قبل كل شىء .

ـ « ماينكه العظيم » ـ فى « ماينكه » العشرينات من هذا القرن : « إن البحث عن العليات فى التاريخ مستحيل دون رجوع إلى القيم ، فيكمن وراء البحث عن العلل دائماً بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بحث عن القيم »(١) . وهذا يُذكرنا بما قلته سابقاً عن المهمة المزدوجة والمتبادلة للتاريخ : زيادة فهمنا للماضى على ضوء الحاضر ، وللحاضر على ضوء الماضى . وكل ما يفشل فى الإسهام فى هذه الغاية المزدوجة ، مثل افتتان أنطونيو بأنف كليوباترة بلا أثر وعقيم من وجهة نظر المؤرخ .

فى هذه النقطة قد أصبح الوقت ملائماً لكى أعترف بخدعة خسيسة إلى حد ما قد لعبتها عليكم . وبالنظر إلى أنكم لن تصادفوا صعوبة فى إدراكها ، وأنها لن تخدعكم ، وبالنظر إلى أنها يسرت لى فى عدة مناسبات تقديم ما أردت قوله فى إيجاز وبساطة ، فسوف يكون لديكم المغفرة الكافية للنظر إليها باعتبارها لغة مختصرة قد جرت عليها العادة . لقد استخدمت حتى الآن بإصرار الكلمات المعتادة « ماض وحاضر » ، ولكن كما نعرف جميعاً الحاضر ليس له سوى وجود فكرى بوصفه حداً خيالياً فاصلاً بين الماضى والمستقبل . وعند كلامى عن الحاضر قد قمت فعلا بتهريب بُعد زمنى آخر إلى المناقشة . وقد يكون من السهل أن أبين أنه ما دام الحاضر والمستقبل جانباً من نفس الزمن ، فلذا فإن الاهتمام بالماضى والاهتمام بالمستقبل متصلان ، ويتم اجتياز الحد الفاصل بين الأزمنة التى قبل التاريخ والأزمنة التاريخية ، عند ما يتوقف الناس عن العيش فى الحاضر فقط ، ويتوفر لديهم اهتمام

---

(١) كتاب Kausalitäten und Werte inder Geschichte سنة ١٩٢٨ (العلل والقيم فى التاريخ) ترجم فى كتاب : (شتيرن) Stern Varieties of History (أنواع مختلفة من التاريخ) — (١٩٥٧) صفحات ٢٦٨ — ٢٧٣ .

بكل من ماضيهم ومستقبلهم . والتاريخ يبدأ بتوريث التقاليد ، والتقاليد تعنى نقل عادات الماضى ودروسه إلى المستقبل . وقد بدأ حفظ سجلات الماضى لنفع الأجيال القادمة . لقد كتب المؤرخ الهولاندى « هويتسنجا » Huizinga « التفكير التاريخى دائما غائى » (١) ، وكتب سير « تشارلز سنو » حديثاً عن « رزر فورد » Rurherord .

« إنه مثل سائر العلماء . . كان المستقبل فى عظامه دون أن يفكر فيما يعنى على وجه التقريب (٢) » . وإننى أظن أن المؤرخين الموفقين ، لديهم المستقبل فى عظامهم سواء فكروا فيه أم لم يفكروا ، والمؤرخ يسأل كذلك إلى جانب السؤال « لماذا » السؤال « إلى أين » ؟ .

---

(١) « هويتسنجا » فى كتاب : Varieties of History (أنواع مختلفة من التاريخ) تجميع (شترن) F.Stern سنة ١٩٥٧ .

(٢) « جون رايموند » فى كتاب The Baldwin Age. (سنة ١٩٦٠) ص ٢٤٦ .

٥ — التاريخ يتقدماً

فلأبدأ باقتباس فقرة من المحاضرة الافتتاحية التى ألقاها الأستاذ «بوويك» Powicke منذ ثلاثين عاما ، بوصفه أستاذ كرسى «رجيوس» للتاريخ الحديث فى أكسفورد .

« التوق إلى تفسير التاريخ عميق الجذور ، فإذا لم يكن لنا نظرة بناءة إلى الماضى ، فإننا سننساق إما إلى الغيبية ، أو إلى الكلبية (١) » .

وأظن أن الغيبية تمثل الرأى القائل ، بأن معنى التاريخ يكمن خارجه فى عوالم اللاهوت أو الدينونة (eschatology) . وهو رأى كتاب مثل « برديف » أو « نيبور » أو « توينبى » (٢) . والكلبية تمثل الرأى الذى اقتبست أمثلة دالة عليه عدة مرات ، وهو أن التاريخ بلا معنى أو أن له عديداً من المعانى الصحيحة وغير الصحيحة ، أو المعنى الذى نفرض عليه . ربما كان هذان الرأيان أكثر الآراء شيوعا عن التاريخ اليوم . ولكننى سوف أرفضهما كليهما بغير تردد . وهذا يتركنا للعبارة الغريبة وإن كان فيها إيحاء « نظرة بناءة للماضى » ، وبالنظر إلى تعذر الاهتداء إلى وسيلة لمعرفة مادار بذهن الأستاذ « بوويك » عندما استخدم هذه العبارة ، فإننى سأحاول أن أذكر تفسيرى الخاص لها .

لقد كانت حضارة اليونان والرومان الكلاسيكية مثل الحضارات القديمة فى آسيا غير تاريخية فى أساسها ، وكما رأينا من قبل كان لهيرودوت - بوصفه أبا للتاريخ - أبناء قلائل . وكان الكتاب فى العهد الكلاسيكى القديم بصفة عامة ، لا يعنون بالمستقبل أو الماضى إلا قليلا . فقد اعتقد «نيكوسيدس»

---

(١) « بوويك » Powicke فى كتاب (مؤرخون محدثون ودراسة التاريخ) Modern Historian & The Study of History سنة ١٩٥٥ ص ١٧٤

(٢) إن التاريخ يتحول إلى لاهوت ، كما ذكر «توينبى» فى نشوة فى مقدمة كتاب Civilization on Trial ١٩٤٨

أنه لم يحدث شيء هام في الزمن قبل الأحداث التي وصفها ، وأنه من غير المتوقع أن يحدث شيء هام آخر بعد ذلك. واستنبط «لبوقريطس» Lucretuis عدم مبالاة الإنسان بالمستقبل من عدم مبالاته بالماضي ، فقد قال :

« تأمل كيف أن العصور الماضية للزمن الأبدي ، التي سبقت مولدنا لا تعنينا . إنها لمرآة تبين لنا فيها الطبيعة الزمان في المستقبل بعد موتنا (١) » .

واتخذت الرؤى الشاعرية لمستقبل زاهر ، صور الرؤى الخاصة بعودة عصر ذهبي للماضي ؛ وهي نظرة دائرية قد شبهت مايدور في التاريخ بما يجري في الطبيعة . إن التاريخ لم يكن متجها إلى أي مكان ، لأنه لم يكن ثمة إدراك للماضي ، ولم يكن هناك بالمثل إدراك للمستقبل. ولقد كان «فيرجيل» الذي صور الصورة الكلاسيكية للعودة إلى العصر الذهبي في أنشودته الرابعة ملهما في إنيادته لبرهة قصيرة في خروجه على التصور الدائري . إن Imperium sine fine dedi « أعطيتكم امبراطورية لا حدود لها » ، فكرة لا تتبع الفكر الكلاسيكي ، وهي التي أكسبت « فيرجيل » شهرة بعد ذلك بوصفه شبه نبي مسيحي .

لقد كان اليهود والمسيحيون - من بعدهم - هم الذين قدموا عنصراً جديداً بتسليمهم بغاية يتجه إليها التاريخ ، أي النظرة الغائية للتاريخ . ومن ثم اكتسب التاريخ معنى وغاية ، ولكن على حساب ضياع طابعه الدنيوي ؛ فإن بلوغ غاية التاريخ يعني آليا نهايته ، ويصبح التاريخ نفسه بيانا لدور العناية الإلهية تجاه الشر في الدنيا (theodicy) .. لقد كانت هذه هي نظرة القرون الوسطى إلى التاريخ ؛ واستعاد عصر النهضة النظرة الكلاسيكية لعالم يدور حول الإنسان ، ولأسبقية العقل ، واستعيض عن النظرة إلى المستقبل

---

(١) De Rerum Natura ص ٩٩٢ — ٩٩٥

الكلاسيكية المتشائمة بنظرة متفائلة مستمدة من التقليد اليهودى المسيحى . وأصبح الزمن الذى كان معاديا ومتآكلا ، مسالما وخلاقا .. قارن بين ماقاله « هوراس » ؟ Damnosa guid non Imminuit dies « الدهر والزمن يقضيان على كل حر ولا يمكن الثبات أمامهما » ، وما قاله « بيكون » Verita Temporis Filia «الحقيقة ابنة وقتها» . وقد احتفظ العقليون الذين أنشأوا الكتابة التاريخية الحديثة - فى عصر التنور - بالنظرة اليهودية المسيحية الغائية ، ولكنهم جعلوا الغاية دنيوية ، وبذا تسنى لهم استعادة الطابع العقلى للعملية التاريخية نفسها . وأصبح التاريخ تقدما نحو غاية الكمال الإنسانى على الأرض . ولم تحل طبيعة موضوع جيبون - أعظم مؤرخى التنور - عن تسجيل ما أسماه «النتيجة السارة الخاصة» ، بأن كل عصر فى العالم قد أضاف، وما زال يضيف إلى الثروة الحقيقية للسلالة الإنسانية وسعادتها ومعرفتها ، وربما فضيلتها (١) ، وبلغ الاعتقاد فى التقدم ذروته ، عندما بلغ رخاء البريطانيين وسطوتهم واعتدادهم بالنفس ذروته ، وكان الكتاب الإنجليز والمؤرخون الإنجليز من أشد المتحمسين لهذا الاعتقاد . والظاهرة مألوفة للغاية ، وليست بحاجة إلى مثال ، وإننى بحاجة فقط إلى اقتباس فقرة أو فقرتين، لأبين كيف استمر الإيمان بالتقدم حديثا، من المسائل المسلم بها فى تفكيرنا . فقد أشار

---

(١) جيبون فى كتاب The Decline & Fall of the Roman Empire تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها (الفصل الثامن والثلاثون) .

كانت مناسبة هذا الاستطراد عن الموضوع الأصلى ، هو الكلام عن تدهور الإمبراطورية الغربية — وقد سأل ناقد فى جريدة «الملحق الأدبى لجريدة التيمس» The Times Literary Supplement فى عدد ١٨ نوفمبر سنة ١٩٦٠ ، بعد أن اقتبس هذه العبارة، هل كان جيبون يعنيها تماما . بالطبع كان يعنيها، فمن المحتمل أن تعكس وجهة نظر الكاتب للعصر الذى يحيا فيه، أكثر مما تعكس العصر الذى يكتب عنه . وهى حقيقة يعد هذا الناقد أفضل مثل لها ، بسعيه نحو نقل شكوكه الخاصة بمنتصف القرن العشرين إلى كاتب من القرن الثامن عشر المنصرم .

« أكتون » إلى أن التاريخ «علم تقدمى» (١) فى تقريره سنة ١٨٦٦ عن مشروع Cambridge Modern History ، الذى قمت بالاقتباس منه فى محاضرتى الأولى، وفى مقدمة المجلد الأول من التاريخ كتب « إننا مرغمون على افتراض أن التقدم فى الأمور الإنسانية ، هو الفرض العلمى الذى يكتب التاريخ وفقا له » . وفى الجزء الأخير من التاريخ الذى نشر سنة ١٩١٠ ، لم يخالج دامبييه Dampier الذى كان مشرفا فى كليتى عندما كنت طالبا ـ أى شك فى أن العصور المستقبلة لن ترى حداً لتقدم سيطرة الإنسان على موارد الطبيعة ، وعلى استخدامه الذكى لها لخير سلالته (٢). وبالنظر إلى ما أوشك أن أقوله، فمن الإنصاف لى الاعتراف بأن هذا الجو كان هو الجو الذى تعلمت فيه ، وأستطيع أن أتفق بغير تحفظ مع كلمات «برتراند رسل» الذى سبقنى بنصف جيل، وهى: « لقد نشأت أثناء سيل التفاؤل الفيكتورى ، وقد ظل يلازمنى شىء من الأمل الذى كان سهلا حينئذ » . (٣)

وعندما كتب « بيورى » كتاب فكرة التقدم The Idea of Progress سنة ١٩٢٠ ، كان هناك جو كئيب ، ووفقاً للبدعة الشائعة ، فإنه قد نسب ذلك إلى النظريين الذين أقاموا « حكم الرعب الحالى فى روسيا» . وبالرغم من أنه ظل يصف التقدم بأنه « الفكرة الإحيائية للحضارة الغربية والموجهة لهـا » (٤) ، فإنه قد لاذ بالصمت بعد هذه الملاحظة . ويقال إن نيقولا

---

(١) (تاريخ كامبردج الحديث ، أصله وتأليفه وإنتاجه) سنة ١٩٠٧
Cambridge Modern History—Its Origin & Production

(٢) الطبعة السابعة طبعة ١٩٠٢ ص ٤ — الجزء الثانى عشر سنة ١٩١٠ ص ٧٩١ .

(٣) رسل Portraits from Memory ١٩٥٦ (صور من الذاكرة) ص ١٧

(٤) « بيورى » فى كتاب The Idea of Progress (فكرة التقدم) . (١٩٢٠) المقدمة صفحات ٧—٨

الأول قيصر روسيا ، قد أصدر أمرا بتحريم كلمة «تقدم» . واليوم قد انتهى فلاسفة أوربا الغربية ، وكذلك الولايات المتحدة ومؤرخوها إلى الاتفاق معه . لقد تم نبذ الفرض الخاص بالتقدم ، وأصبح تدهور الغرب عبارة مألوفة ، حتى لم تعد ثمة حاجة للاستشهاد بشيء ، ولكن ما الذى حدث فعلا بغض النظر عن كل هذا الصياح ؟ من الذى كون هذا الرأى العام الجديد ؟ . فى أحد الأيام القريبة ، شعرت بصدمة عندما اعترضتنى الملحوظة الوحيدة كما أظن - ، لبرتراند رسل ، التى صادفتها ، وبدت تكشف لى عن شعور طبقى حاد .

«فى العالم الآن -بصفة عامة- حرية أقل مما كانت عليه الحال منذ مائة سنة» (١) وليس لدى مقياس للحرية ، ولن أستطيع أن أعرف كيف أوازن بين الحرية الأقل للقلة ، وبين الحرية الأعظم للكثرة . ولكننى أستطيع أن أنظر لهذه العبارة وفقاً لمقياسى ، على أنها غير صحيحة لدرجة وهمية . وإننى أشعر بميل أكثر إلى إحدى التلميحات الساحرة التى يتحفنا بها فى بعض الأوقات ، تايلور ، A . J . p . Taylor فى الحياة العملية بأكسفورد . فقد كتب أن كل هذا الحديث عن تدهور الحضارة ، يعنى فقط أن أساتذة الجامعة ، قد اعتادوا أن يكون لديهم خدم ؟ وأنهم الآن يقومون بعمليات الغسيل » (٢) . بالطبع قد يكون قيام الأساتذة بأعمال الغسيل فى نظر الخدم السابقين رمزا للتقدم؟ وقد يبدو ضياع نفوذ البيض فى أفريقيا ؟ الذى يزعج أصحاب الولاء للإمبراطورية وجمهورية جنوب أفريقيا ، وأصحاب أسهم الذهب والنحاس تقدما عند المعسكر الآخر . وإننى لا أرى داعيا لأن أفضل فى مسألة التقدم

---

(١) « رسل » Partraits from Memory (صور من الذاكرة)
١٩٥٦ — ص ١٢٤

(٢) جريدة الأوبزرفر The Observer فى ٢١ يونية سنة ١٩٥٩

ipso facto رأى خمسينيات هذا القرن على رأى تسعينيات القرن الماضي، ورأى العالم الناطق بالإنجليزية على روسيا وآسيا وأفريقيا، ورأى المثقفين من الطبقة المتوسطة على رجل الشارع، الذى لم يتم - كما يقول مستر «ماكيلان» تهذيبه كما ينبغي. فلنحاول برهة تعليق الحكم على مسألة هل نحيا فى عصر تقدم أو تدهور، ولنحاول أن نفحص عن كثب ما يتضمنه تصور التقدم، وما هى الافتراضات التى تكمن وراءه، وإلى أى حد أصبحت هذه الافتراضات غير صالحة.

إننى أود أولا أن أوضح الخلط الخاص بالتقدم والتطور. لقد اتبع «مفكرو التنوير» رأيين من الجلى عدم توافقهما. فقد سعوا نحو الدفاع عن «مكان الإنسان فى عالم الطبيعة، واعتبرت قوانين التاريخ مساوية لقوانين الطبيعة. ومن ناحية أخرى اعتقدوا فى التقدم، ولكن على أى أساس اعتبرت الطبيعة تقدمية، أى متقدمة باستمرار نحو غاية؟. لقد واجه «هيجل» الصعوبة بأن ميز تمييزا حادا بين التاريخ الذى هو تقدمى، وبين الطبيعة التى ليست كذلك. وبدا أن الثورة الداروينية قد أزالت كل العوائق بمساواتها بين التطور والتقدم، وبعد أن تبين أن الطبيعة مثل التاريخ هى قبل كل شيء تقدم. ولكن هذا الرأى قد فتح الطريق أمام سوء فهم أشد خطراً، وذلك من جراء الخلط بين الوراثة البيولوجية التى هى مصدر التطور، والاكتساب الاجتماعى الذى هو مصدر التقدم فى التاريخ. إن الاختلاف مألوف وواضح: ضع طفلا أوربيا مع أسرة صينية، سينمو الطفل وله بشرة بيضاء، ولكنه سيتكلم الصينية. إن التصبيغ شيء موروث بيولوجيا، واللغة اكتساب اجتماعى، ينتقل عن طريق العقل الإنسانى. وينبغى أن يقاس التطور عن طريق الوراثة، بوساطة ألوف السنوات أو ملايينها. فلم يعرف أى تغير بيولوجى يمكن قياسه قد حدث للإنسان منذ بداية التاريخ المدون. ويمكن قياس التقدم عن طريق الاكتساب فى الأجيال. وتعتمد ماهية الإنسان بوصفه كائنا عاقلا على تنمية قدراته الكامنة من تجميع تجارب من الأجيال الماضية

ويقال إن الإنسان الحديث . ليس له مخ أكبر ولا قدرة فطرية على التفكير أعظم من أسلافه منذ خمسة آلاف سنة ، ولكن تأثير تفكيره قد تضاعف جملة مرات عن طريق التعليم وتضمين تجارب الأجيال المتداخلة في تجربته. إن نقل الخصائص المكتسبة الذى يرفضه البيولوجيون هو أساس التقدم الاجتماعى ، ويتقدم التاريخ عن طريق نقل المهارات المكتسبة من جيل لآخر .

ثانياً — لسنا بحاجة إلى أن نتصور التقدم ، وكأن له بداية محددة ، أو نهاية . وينبغى أن لا نتصوره كذلك فالاعتقاد الذى أصبح شائعاً منذ أقل من خمسين سنة ، بأن الحضارة قد اخترعت فى وادى النيل فى القرن الرابع (ق.م) لم يعد يحتمل التصديق اليوم ، ومثله فى ذلك مثل التقويم الذى جعل خلق العالم سنة ٤٠٠٤ ق.م . فلم تكن الحضارة التى قد نتخذ ميلادها نقطة بدء لفرضنا عن التقدم بالتأكيد اختراعاً ، بل كانت عملية تطور بطيئة ، يحتمل حدوث طفرات عظيمة من وقت لآخر خلالها ، ولسنا بحاجة لأن نزعج أنفسنا بالسؤال الخاص عن : متى بدأ التقدم ، أو متى بدأت الحضارة ؟ وقد أدى القول بنهاية محددة للتقدم إلى إساءة فهم أكثر خطورة، واتهم «هيجل» بحق ، لأنه اعتبر نهاية التقدم عند الملكية البروسية. والظاهر أن هذا الرأى نتيجة التفسير المضنى لرأيه عن استحالة التنبؤ . ولكن قد تفوق على انحراف «هيجل» ، ذلك الفيكتورى الرفيع الشأن ، «أرنولد» من كلية «راجبى» ، الذى ظن فى محاضرته الافتتاحية بوصفه أستاذ التاريخ الحديث وصاحب كرسى (رجيوس) للتاريخ بأكسفورد ، سنة ١٨٤١ ، أن التاريخ الحديث سوف يكون آخر مرحلة فى التاريخ الإنسانى ، «لأنه يبــــدو متسماً بمصير الزمن ، وكأنه لن يأتى بعده أى تاريخ فى

المستقبل(١) » . وقد كانت نبوءة ماركس بأن الثورة البروليتارية سوف تدرك الغاية النهائية لمجتمع لا طبقى أقل تعرضاً للتجريح من الناحيتين المنطقية والأخلاقية ، ولكن افتراض نهاية للتاريخ له طابع أخروى دينى (اسكاتولوجى) أكثر ملاءمة لعالم اللاهوت منه للمؤرخ ، وهو يرجع إلى المغالطة الخاصة بهدف خارج التاريخ . والنهاية المحددة لها بغير شك جاذبية خاصة للعقل الإنسانى . وتبدو رؤية « اكتون » لسير التاريخ تقدماً لا ينتهى نحو الحرية فاترة وغامضة . ولكن إذا أراد المؤرخ إنقاذ فرضه الخاص بالتقدم ، فأظن أنه ينبغى عليه أن يكون على استعداد للنظر إليه بوصفه عملية ، تودع فيها مطالب العصور المتعاقبة وأحوالها ، مضمونها المميز ، وهذا ما تعنيه فكرة « اكتون » الخاصة بأن التاريخ ليس سجلا للتقدم فحسب ، بل علماً تقدمياً ، أو إذا أردت أن التاريخ بكلتا معنى الكلمة ، أى بوصفه مجرى الأحداث وبوصفه سجلا لهذه الأحداث، تقدمى. ولنتذاكر وصف « اكتون» لتقدم الحرية فى التاريخ :

« الحرية اعتماداً على الجهود المشتركة للضعفاء ، الذين أرغموا على مقاومة حكم القوة والإساءة المستمرة خلال التغير السريع ، وإن اتسم ببطء التقدم الذى حدث فى الأربعمائة سنة ، قد تمت المحافظة عليها ، « تأمينها وامتدادها ، وأخيراً فهمها (٢) » .

لقد تصور « اكتون » التاريخ بوصفه مجرى للأحداث، على أنه تقدم نحو الحرية، وتصور التاريخ باعتباره سجلا لهذه الأحداث، على أنه تقدم نحو

---

(١) «أرنولد» T.Arnold فى كتابه (محاضرة افتتاحية عن دراسة التاريخ الحديث) An Inaugural Lecture on the Study of Modern History سنة ١٨٤١ — ص ٣٨ .

(٢) « اكتون » فى كتابه : (محاضرات فى التاريخ الحديث) Lectures on Modern History سنة ١٩٠٦ — ص ٥١

فهم الحرية . وقد تقدمت العمليتان جنباً إلى جنب(١) . ولاحظ الفيلسوف « برادلى » وهو يكتب فى عصر كانت فيه المشابهات المنقولة عن التطور هى البدعة ، وفقاً للإيمان الدينى ، فإن نهاية التطور هى الشىء الذى تم تطوره فعلا (٢)» . وعند المؤرخ أن نهاية التقدم شىء لم يتم تطوره بعد ، وأنه شىء ما زال بعيداً بُعداً لا نهائياً . ويمكن رؤية الاتجاهات التى تشير إلى هذا التقدم عند ما تتقدم ، ولا يقلل هذا من أهميته . فالبوصلة مرشد قيم ، وهى بحق لا غنى عنها ، ولكنها ليست خريطة للطريق . ويمكن إدراك مضمون التاريخ فقط عند ما نقوم بتجربته .

نقطتى الثالثة هى أنه لا يوجد شخص سليم العقل ، يعتقد أبداً فى نوع من التقدم يسير فى اتجاه مستقيم لا ينقطع دون انعكاسات أو انحرافات وتوقف عن الاستمرار ، حتى أن أخطر نكوص لا يعد بالضرورة قاضياً على الاعتقاد . ومن الواضح أنه توجد عصور للنكوص كما توجد عصور للتقدم . أكثر من ذلك أنه قد يكون من الحماقة افتراض أن التقدم سوف يستأنف بعد التقهقر من نفس النقطة أو باتباع نفس الاتجاه . فإن الأنساق مثل حضارات « هيجل » أو « ماركس » الثلاث أو الأربع ، والحضارات الواحدة والعشرين لـ « توينبى » ، ونظرية دورة حياة الحضارات التى تنتقل من نهوض إلى تدهور إلى سقوط ، لا معنى لها فى ذاتها ، ولكنها دلالة من دلالات الحقيقة المشاهدة الخاصة بأن الجهد المطلوب لدفع الحضارة إلى الأمام ينتهى فى مكان ، ثم يستأنف بعد ذلك فى مكان آخر . وهذا يعنى

---

(١) « كارل مانهايم » فى كتابه Ideology & Utopia (إيديولوجية وطوبيا) الترجمة الإنجليزية سنة ١٩٣٦ — ص٢٣٦ — يربط كذلك بين رغبة الإنسان فى تشكيل التاريخ ، وقدرته على فهمه .

(٢) « برادلى » فى كتابه : Ethical Srudies (دراسات أخلاقية) (سنة ١٨٧٦) — ص ٢٩٣ .

أن أى تقدم نستطيع أن نشاهده فى التاريخ ، هو بالتأكيد غير مستمر فى أى من الزمان أو المكان . وبحق لو أننى كنت من معتادى صياغة قوانين للتاريخ ، لكان أحد هذه القوانين هو: أن الجماعة - وأطلق عليها أى اسم تشاء (طبقة أو أمة أو قارة أو حضارة) - التى تلعب دوراً رئيسياً فى تقدم الحضارة ، فى عصر ، لا يتوقع أن تلعب دوراً مماثلا فى عصر تال . وهذا يرجع إلى أنها سوف تكون مشبعة تشبعاً عميقاً بالتقاليد والمصالح والإيدلوجيات للعصر الأول . . وهذا يحول دون تمكنها من التكيف مع مطالب العصر التالى ، وأحواله (١) . من هذا قد يحدث أن ما قد يبدو لطائفة عصر تدهور ، يلوح لطائفة أخرى ميلاد تقدم جديد ، ولا يعنى التقدم ، ولا يمكن أن يعنى التقدم المتساوى للجميع فى نفس الوقت . ومن المهم أن أغلب أنبيـــائنا المتأخرين الداعين للتدهور ، والمتشككين الذين لا يرون أى معنى للتاريخ ، ويفترضون أن التقدم قد انتهى ، يتبعون هذا القطاع من العالم ، وتلك الفئة من المجتمع التى لعبت دوراً قيادياً وتحكمياً فى تقدم الحضارة لعدة أجيال ، ولا يعزيهم أن يقال لهم إن الدور الذى لعبته طائفتهم فى الماضى سوف ينتقل الآن إلى آخرين . وواضح أن التاريخ الذى خدعهم بمثل هذه اللعبة الخسيسة ، لن يكون عملية ذات معنى أو شيئا معقولا ، ولكننا إذا أردنا الإبقاء على فرض التقدم ، فاظن أنه يجب علينا أن نقبل الشرط الخاص بالاتجاه المتقطع .

---

(١) انظر من أجل تشخيص لمثل هذا الموقف إلى كتاب «ليند» R.S Lynd (معرفة من أجل ماذا) ؟ knowledge for what (نيويورك ١٩٣٩) - إن الناس المتقدمين فى السن فى حضارتنا يتجهون فى الغالب نحو الماضى، أي زمان حيويتهم وقوتهم ، ويقاومون المستقبل باعتباره شيئاً يهددهم . ومن المحتمل أن تتجه حضارة كاملة فى مرحلة متقدمة عند نفاذ قوتها النسبية وتكاملها اتجاهاً متسلطاً نحو عصر ذهبي طائع ، فى الوقت الذى تحيا فيه الحياة بخمول فى الحاضر .

وفى النهاية أصل إلى المسألة الخاصة بما هو المضمون الجوهرى للتقدم بلغة الفعل التاريخى . إن الناس الذين كافحوا من أجل منح الحقوق المدنية للجميع مثلا ، أو إصلاح الإجراءات الخاصة بالعقوبة ، أو لإزالة فوارق العنصر والثروة . قد سعوا بوعى لتحقيق مثل هذه الغايات ، ولم يسعوا بوعى نحو التقدم ، أو نحو إدراك قانون تاريخى ، أو «فرض» للتقدم . والمؤرخ هو الذى يطبق فرضه الخاص بالتقدم على ما قاموا به ، ويفسر أفعالهم بوصفها تقدما ، ولكن هذا لا يبطل من تصور التقدم . وإنى لجد سعيد أن أرى نفسى متفقا فى هذه النقطة مع رأى سير « ايزيا برلين » «بأن التقدم والتراجع مهما أسىء استخدام مثل هاتين الكلمتين ؟ ليسا تصورين أجوفين»(١) . ومن الافتراضات السابقة للتاريخ ، أن الإنسان قادر على الانتفاع من تجارب أسلافه (لا يعنى هذا أنه بالضرورة ينتفع) ، وأن التقدم فى التاريخ ، خلافاً للتطور فى الطبيعة يعتمد على انتقال مميزات مكتسبة ، وهذه المميزات تتضمن كلا من المميزات المادية ، والقدرة على السيطرة على بيئة المرء وتحويلها للانتفاع منها . والعاملان متصلان بحق اتصالا وثيقا ويتبادلان التأثير . ولقد نظر « ماركس » إلى العمل الإنسانى بوصفه أساسا للبناء بأسره ، وهذا القول يبدو مقبولا إذا فهم « العمل » فهما متسعا للغاية ، ولكن مجرد تجميع الموارد لن يجدى إلا إذا صحبه ليس فقط معرفة وتجربة (تكنولوجية) فنية واجتماعية ، بل زيادة فى السيطرة على بيئة الإنسان بالمعنى الواسع . وفى الوقت الحالى قد يتساءل قليلون كما أظن عن حقيقة التقدم فى تجميع الموارد المادية أو المعرفة العلمية أو السيطرة على البيئة بالمعنى التكنولوجى ، ومايدعو للتساؤل هو : هل تم فى القرن العشرين أى تقدم نحو تنظيم المجتمع وسيطرتنا على البيئة الاجتماعية من الناحيتين القومية أو الدولية ؟ وهل حقا لم يحدث نكوص ملحوظ ؟

---

(٢) مجلة الشؤون الخارجية Foreign Affairs عدد يونية سنة ١٩٥٠ ص ٣٨٢ .

وألم يتلكأ تطور الإنسان بوصفه كائنا اجتماعيا تلكؤاً ضاراً وراء التقدم العلمى (التكنولوجى) ؟

إن العلامات التى بعثت هذا السؤال واضحة ، ولكننى أرتاب مع ذلك فى أنها قد عرضت عرضا صحيحاً . لقد عرف التاريخ كثيرا من نقط التحول حيث انتقلت القيادة والمبادرة من طائفة لأخرى ، ومن قطاع من العالم إلى قطاع آخر . . وبزوغ الدولة الحديثة ، وانتقال مركز القوة من البحر المتوسط إلى أوربا الغربية وعصر الثورة الفرنسية ، أمثلة حديثة واضحة . إن مثل هذه العصور هى دائما أزمنة هزات عنيفة وصراع من أجل السطوة ، ففيها تضعف السلطات القديمة ، وتختفى المعالم القديمة ، ويبزغ الجديد من الصراع المرير للأشياء والمطامع . وما أدعو إليه هو أننا نمر الآن خلال مثل هذه الفترة ، ويبدو لى ببساطة أن القول بتضاؤل فهمنا لمشكلات التنظيم الاجتماعى ، أو نيتنا الطيبة لتنظيم المجتمع على ضوء هذا الفهم ، غير صحيح . فبحق أننى سوف أخاطر بالقول إنه قد ازداد زيادة كبيرة . وليس السبب هو أن قدراتنا قد تضاءلت أو خصالنا الأخلاقية قد تدهورت ، ولكن قد زاد عهد الصراع والزلزلة المترتبين على انتقال ميزان القوى بين القارات والدول والطبقات التى نحيا فى وسطها ، من إجهاد هذه القدرات والخصال زيادة كبيرة وحد من تأثيرها على أى إنجاز إيجابى وأبطله . وفى الوقت الذى لا أود فيه أن أقلل من قدرة قوة التحدى ، الذى صوب فى خلال الخمسين سنة الماضية إلى الاعتقاد فى التقدم فى العالم الغربى ، فإننى مازلت غير مقتنع بأن التقدم فى التاريخ قد بلغ غايته . ولكنك إذا استحثثتنى أكثر من ذلك فيما يتعلق بمضمون التقدم ، فإننى أظن أننى أستطيع الإجابة فقط بشىء من هذا القبيل . لقد ثبت أن الرأى الخاص بهدف محدد تحديداً واضحاً للتقدم فى التاريخ الذى طالما سلم به مفكرو القرن التاسع عشر ، غير ملائم وعقيم . والاعتقاد فى التقدم يعنى الاعتقاد فى التطور التقدمى للإمكانيات الإنسانية ، وليس فى أى

عملية آلية أو حتمية . والتقدم اصطلاح مجرد ، وتنبعث الغايات المشخصة التى يتبعها الإنسان من وقت لآخر من مجرى التاريخ ، وليس من أى مصدر آخر خارجه . وإننى أعترف بعدم الاعتقاد فى كمال الإنسان ، أو فى جنة مستقبله على الأرض . وإلى هذا الحد سوف أتفق مع اللاهوتيين والصوفيين الذين يذكرون أن الكمال لا يمكن تحقيقه فى التاريخ ، ولكننى سوف أؤيد إمكان التقدم إلى غير حد ، أو التقدم الذى لا يخضع لأى حدود قد نكون فى حاجة إليها أو نسعى وراءها — أو نحو أهداف يمكن تحديدها فى نفس الوقت الذى نتقدم فيه نحوها ، ويمكن إثبات قيمتها فقط عند عملية الاهتداء إليها . وإننى لا أدرى كذلك : كيف يستطيع المجتمع أن يحيا بغير مثل هذا التصور الخاص بالتقدم . فكل مجتمع متحضر يفرض تضحيات على الجيل القائم من أجل الأجيال التى لم تولد بعد ، ويطابق تبرير هذه التضحيات باسم عالم أفضل فى المستقبل دنيويا تبريرها باسم غاية إلهية ما . ووفقا لما قاله «بيورى» : «إن مبدأ الواجب نحو الأخلاف هو نتيجة مباشرة لفكرة التقدم (١)» . ربما لم يكن هذا الواجب فى حاجة إلى تبرير . وإذا كان بحاجة فإننى لا أعرف أى وسيلة أخرى لتبريره .

يقودنى هذا إلى المأزق الشهير وهو «الموضوعية فى التاريخ» ، والكلمة نفسها مضللة وفى حاجة إلى إثبات . ولقد أثبت فى محاضرة سابقة أن العلوم الاجتماعية — ومن بينها التاريخ — لا تستطيع أن تتوافق مع نظرية تفصل الذات عن الموضوع ، وتفرض حداً فاصلا جامداً بين المشاهد ، والشىء الذى يشاهد . ونحن بحاجة إلى نمط جديد يقدر عملية اتصالهما وتفاعلهما المتبادل تقديراً صحيحاً . فوقائع التاريخ لا يمكن أن تكون

(١) «بيورى» J. Bury فى كتاب The Idea of Progress (فكرة التقدم) سنة ١٩٢٠ — المقدمة ص ٩

موضوعية صرفة ، لأنها قد أصبحت وقائع للتاريخ ، وفقا للأهمية التي أسبغها عليها المؤرخ فقط . والموضوعية في التاريخ — إذا أصررنا على استعمال الاصطلاح المعتاد — لا يمكن أن تكون موضوعية واقعة ، بل موضوعية صلة فحسب ، أي الصلة بين الواقعة والتفسير ، وبين الماضي والحاضر والمستقبل. ولست بحاجة إلى العودة إلى الأسباب التي دفعتني إلى رفض محاولة الحكم على الأحداث التاريخية ، بإقامة معيار مطلق للقيم خارج التاريخ ومستقل عنه ، باعتبار أن ذلك ليس تاريخياً ، ولكن التصور الخاص بحقيقة مطلقة ليس مناسباً كذلك لعالم التاريخ — أو كما أظن لعالم العلم . فمن المستطاع الحكم على أبسط نوع من القضايا التاريخية فقط بأنها صحيحة صحة مطلقة أو باطلة بطلاناً مطلقا . وفي المستوى الأكثر تعقيداً ، فإن المؤرخ الذي يخالف — على سبيل المثال — رأى أحد السابقين له ، سيطعن في هـذا الرأى بالطبع ، لا لأنه باطل بطلاناً مطلقاً ، بل لأنه غير كاف ، أو لأنه من جانب واحد ، أو لأنه مضلل ، أو نتيجة لوجهة نظر قد أصبحت غير مسايرة للزمن أو غير متفقة مع الأدلة التي جاءت بعد ذلك . فإذا قيل إن الثورة الروسية ترجع إلى غباء الملك نيقولا الثاني ، أو عبقرية « لينين » ، كان القولان معاً غير كافيين ، غير كافيين لدرجة أنهما يصبحان معاً مضللين ، ولكن لا يمكن تسميتهما باطلين بطلاناً مطلقاً . فالمؤرخ لا يبحث مسائل مطلقة من هذا النوع .

لنعد ثانية إلى قضية موت روبنسون المؤسفة . لقد اعتمدت موضوعية بحثنا في هذه الحادثة ليس على حصولنا على وقائع صحيحة ، فلم يكن ثمة خلاف حول ذلك ، بل على تفرقتنا بين الوقائع الحقيقية والهامة التي تهمنا ، والوقائع العرضية التي يحتمل أن نسلم بتجاهلها . ولقد رأينا أنه من السهل إقامة هذه التفرقة ، لأن معيار الأهمية أو محكه عندنا ، أي أساس موضوعيتنا كان واضحاً ، وكان يعتمد على مدى الارتباط بالغاية المنظورة

كالإقلال من القتلى فى حوادث الطرق مثلا . ولـكن المؤرخ شخص أقل حظاً من الباحث الذى يسعى نحو الهدف البسيط المحدد الخاص بتقليل خسائر المرور . وهو يحتاج كذلك فى مهمة التفسير إلى معياره الخاص بالأهمية الذى هو معياره للموضوعية أيضاً ، وذلك من أجل التفرقة بين الهام والعرضى . ويمكنه كذلك ، أن يعثر عليه وفقاً لارتباطه بالغاية المنظورة . ولـكن هذه الغاية هى بالضرورة غاية متطورة ، لأن التفسير المتطور للماضى مهمة ضرورية للتاريخ . ويتعارض الافتراض التقليدى الخاص بوجوب تفسير التغير دائماً بالرجوع إلى شىء ثابت لا يتغير مع تجربة المؤرخ .

ويقول الأستاذ « بترفيلد » ، ربما محتفظاً لنفسه بطريقة مضمرة بمجال ليس هناك ما يدعو المؤرخين إلى اتباعه فيه . « بالنسبة للمؤرخ ، المطلق الوحيد هو التغير (١) » . فالمطلق فى التاريخ ليس شيئاً فى الماضى الذى نبدأ منه ، وهو ليس شيئاً فى الحاضر ، لأن كل التفكير الحاضر بالضرورة نسبى . إنه شىء ما زال بغير اكتمال ، وفى حالة صيرورة . شىء فى المستقبل الذى نتجه إليه ، وتبدأ معالمه فى الانضاح كلما اتجهنا إليه ، وعلى ضوئه

---

(١) « بترفيلد » Butterfield فى كتابه : (تفسير الأحرار الهويج للتاريخ) The Whig Interpretation of History (سنة ١٩٣١) — ص ٥٨ .
قارن البيان الأكثر تعقيداً المذكور لـ A von Martin فى كتاب :
The Sociology of rhe Renaissance (علم اجتماع عصر النهضة) (الترجمة الإنجليزية ١٩٤٥) الفصل الأول : إن التصور الذاتى للحركة الإستاتيكية والديناميكية هى مقولات رئيسية تبدأ بها أى نظرة اجتماعيه إلى التاريخ . والتاريخ يعرف التصور الذاتى بمعنى نسبى فحسب . والسؤال الحاسم ، هو : أيهما يسود التصور الذاتى أو التغير . إن التغير هو الإيجابى والمطلق ، والتصور الذاتى هو العنصر الذاتى والنسبى فى التاريخ

نشكل تدريجياً تفسيرنا للماضي، كلما تقدمنا للأمام . وهذه هي الحقيقة الدنيوية الكامنة وراء الأسطورة الدينيـــة القائلة، بأن معنى التاريخ سينكشف في يوم القيامة . إن معيارنا ومحكنا ليس مطلقاً بالمعنى الثابت (الاستاتيكي) لشيء يبقى كما هو في الأمس واليوم وإلى الأبد . فلا يتفق مثل هذا المطلق مع طبيعة التاريخ، ولكنه مطلق بالنظر إلى تفسيرنا للماضي . فهو يرفض النظرة النسبية القائلة أن التفسيرات كلها سواء ، أو أن كل تفسير يصدق على زمانه ومكانه . وهو يزودنا بالمحك الذي سيتم الحكم على تفسيرنا وفقاً له . إن هذا الإدراك للاتجاه في التاريخ وحده هو الذي يمكننا من ترتيب أحداث الماضي وتفسيرها — وهـــذه مهمة المؤرخ ، ومن تحرير الطاقات الإنسانية وتنظيمها في الحاضر من أجل المستقبـل ، وهـذه هي مهمة رجل الدولة والاقتصادي والمصلح الاجتماعي . ولكن العملية نفسها تظل تقدمية وديناميكية ، فيخضع إدراكنا للاتجاه وتفسيرنا للمـاضي كلمـا تقدمنا إلى تعـديل وتطور مستمرين .

لقد جعل «هيجل» (مطلقه) في الشكل الغيبي لروح العالم، وارتكب خطأ جسيماً بجعله مجرى التاريخ ينتهي في الحاضر بدلا من أن يمتد إلى المستقبل، واعترف بعملية تطورمستمرة في الماضي، وأنكرها في المستقبل إنكاراً غير مناسب . وقد رأى أولئك الذين تأملوا طبيعة التاريخ ملياً بعد «هيجل»، أنه تأليف للماضي والمستقبل . وبالرغم من أن «توكفيل Tocqueville» لم يستطع التحرر تماماً من الطابع اللاهوتي لزمانه، وجعل لمطلقه مضموناً ضيقاً للغاية، فإنه قد أدرك لب الموضوع . فبعد أن تكلم عن تطور المساواة بوصفها ظاهرة كلية ودائمة، قال :

«لو أن رجال زماننا نشأوا على الاعتقاد بأن التطور التـدريجي والتقدمي للمساواة ، هو ماضي تاريخهم ومستقبله في وقت واحد ، لتيسر

لهذا الاكتشاف الوحيد أن يسبغ على هذا التطور الطابع المقدس لإرادة ربهم وسيدهم »(١).

ويمكن كتابة فصل هام من التاريخ عن هذا الموضوع الذى ما زال غير تام. فإن ماركس الذى اشترك مع هيجل فى جانب من تحريمه النظر إلى المستقبل، واهتم بصفة رئيسية بجعل تعاليمه ممتدة الجذور برسوخ فى تاريخ الماضى، قد كان مضطراً وفقاً لطبيعة موضوعه إلى إبراز منطقه الخاص بالمجتمع اللاطبقى فى المستقبل. ووصف « بيورى » فكرة التقدم بطريقة أكثر غموضاً، وإن كانت ترمى من الواضح إلى نفس الغاية، بأنها «نظرية تتضمن تأليفاً الماضى ونبوءة عن المستقبل(٢)». ويقول « ناميه » فى عبارة محيرة مقصودة، قدمها للتوضيح اعتماداً على محصوله الجيد المعهود من الأمثلة « إن المؤرخين يتخيلون الماضى ويتذكرون المستقبل (٣) ». والمستقبل وحده هو الذى يأتى بمفتاح تفسير الماضى. وبهذا المعنى فقط نستطيع أن نتكلم عن موضوعية نهائية فى التاريخ. إن إلقاء الماضى ضوءاً على المستقبل، وإلقاء المستقبل ضوءاً على الماضى هما اللذان يبرزان التاريخ، ويفسرانه فى نفس الوقت.

فما الذى نعنيه إذن عند ما نثنى على مؤرخ؟ أو نذكر أن مؤرخاً أكثر موضوعية من آخر؟ من الواضح أن هذا ليس لأنه قد حصل على وقائعه بطريقة صحيحة، بل لأنه اختار الوقائع الصحيحة، أو بعبارة أخرى أنه

---

(١) توكفيل De Tocqueville مقدمة لكتابه « الديمقراطية فى أمريكا » Democracy in America

(٢) «بيورى» فى كتابه (فكرة التقدم) The Idea of Progress ص ٥ سنة ١٩٢٠.

(٣) ناميه Namier فى كتابه «صراعات» Conflicts ١٩٤٢ ص ٧

استخدم المعيار الصحيح للأهمية . وعند ما نصف مؤرخاً بأنه موضوعى ، فإننا نعنى كما أظن شيئين :

أولا — نعنى أن لديه قدرة على التسامى فوق الرؤية المحددة لموقفه فى المجتمع وفى التاريخ ، وهى قدرة — كما ذكرت فى محاضرة سابقة — تعتمد من جانب على قدرته على إدراك مدى احتوائه فى هذا الموقف وإدراكه ، كما يصح القول استحالة الموضوعية الكاملة .

ثانياً — نحن نعنى أن لديه القدرة أكثر من أولئك المؤرخين الذين ترتبط نظرتهم بموقفهم المباشر على إبراز رؤيته للمستقبل ، بطريقة تمنحه نفاذاً للماضى أشد عمقاً وأعظم دواما . ولن يردد أى مؤرخ اليوم الثقة التى أولاها « اكتون » لمطلبه الخاص « بالتاريخ النهائى » ، ولكن بعض المؤرخين يكتبون تاريخاً أكثر بقاء ، ويتصم بهذا الطابع الموضوعى والنهائى أكثر من الآخرين . وهؤلاء المؤرخون هم الذين يتوفر لديهم ما أستطيع أن أسميه بالرؤية البعيدة المدى للماضى والمستقبل . ومؤرخ الماضى يستطيع أن يقترب من الموضوعية فقط عند ما يقترب من فهم المستقبل .

ومن ثم عندما تكلمت عن التاريخ فى محاضرة سابقة ، باعتباره حواراً بين الماضى والحاضر ، كان الواجب أن أسميه بالأحرى حواراً بين أحداث الماضى وغايات المستقبل المنبثقة تقدمياً . ويتطور تفسير المؤرخ للماضى وانتقاؤه لما هو هام ووثيق الصلة ، مع الانبثاق التقدمى لغايات جديدة . ولنذكر أبسط الأمثلة بأسرها . فعندما بدا أن الغاية الرئيسية هى تنظيم الحريات الدستورية والحقوق السياسية ، قام المؤرخون بتفسير الماضى وفقاً لهذه الغاية ، وعندما بدأت الغايات الاقتصادية والاجتماعية تحل محل الغايات الدستورية والسياسية ، تحول المؤرخون إلى التفسيرات الاقتصادية والاجتماعية للماضى. وفقاً لذلك، من المحتمل أن يزعم المتشككون

أن التفسير الجديد ليس أصدق من القديم ، وأن كل تفسير صادق بالنسبة لعصره . وبرغم ذلك فإنه نظراً لأن اتباع غايات اقتصادية واجتماعية يمثل طوراً أكثر اتساعاً وتقدماً فى التطور الإنسانى ، من اتباع غايات سياسية ودستورية ، فلذا يمكن القول بأن التفسير الاقتصادى والاجتماعى للتاريخ يمثل طوراً أكثر تقدماً من التفسير المقتصر على السياسة . والتفسير القديم لا يستبعد، ولكن الجديد يتضمنة ويحل محله معاً. فكتابة التاريخ علم تقدمى ، بمعنى أنها تحاول الإتيان باستبصارات دائمة الاتساع والتعمق فى مجرى التاريخ الذى هو نفسه تقدم ، وهذا ما سوف أعنيه بالقول بأننا فى حاجة إلى نظرة بناءة للماضى. لقد تمت كتابة التاريخ خلال القرنين الماضيين فى ظل هذا الإعتقاد المزدوج فى التقدم، ولن تستطيع أن تحيا بدونه، لأن هذا الإعتقاد هو الذى يزودها بمعيارها الخاص بالأهمية ومحكها فى التفرقة بين الحقيقى والعرضى . وقد قام جوته فى حديث له قاطع ، بحل عقدة جورديان * قرابة نهاية حياته ، عندما قال :

« عندما تكون العصور فى طريقها إلى التدهور ، تصبح الاتجاهات جميعها ذاتية ، ومن ناحية أخرى عندما تنضج الأمور وتكون مهيأة لعهد جديد تصبح الاتجاهات بأسرها موضوعية (١) » .

لا أحد مرغم على الاعتقاد فى مستقبل التاريخ أو فى مستقبل المجتمع . فمن المستطاع أن يتم تحطيم مجتمعنا أو هلاكه بفعل الاضمحلال البطىء ، وأن

---

* عقدة جمة التعقيد فى سرج « جورديوس » Gorduis ملك « فريجيا » Phrygja قطعها الملك الإسكندر بسيفه عندما سمع نبوءة أحد الحكماء ، بأن من ينجح فى حلها سوف يملك إمبراطورية آسيا .

(١) اقتبسها «هويتسجا» فى كتاب Men & Ideas (رجال وأفكار) (سنة ١٩٥٩) — ص ٥٠ .

ينتكس التاريخ إلى علم لاهوت ، أى إلى دراسة الغايات الآلهية ، وليس الانجازات الإنسانية ، أو إلى أدب ، أى رواية قصص وخرافات بلا غاية أو أهمية ، ولكن هذا لن يكون تاريخا بالمعنى الذى عرفناه خلال المائتى سنة الأخيرة .

مازال من الواجب أن أبحث الاعتراض المألوف والمعروف الموجه لأى نظرية ترى أن المحك النهائى للحكم التاريخى فى المستقبل . ويقال إن مثل هذه النظرية تتضمن القول بأن النجاح هو المعيار النهائى للحكم ، وإذا لم يكن الأمر كذلك أصبح أى شىء يحدث أو سيحدث حقا . وخلال المائتى سنة الماضية ، لم يفترض أكثر المؤرخين اتجاها يتبعه التاريخ فحسب ، ولكنهم اعتقدوا ـ بوعى أو بغير وعى ـ أن هذا الاتجاه بصفة كلية ، كان الاتجاه الصحيح ، وأن الجنس البشرى يتحرك من حالة أسوأ إلى حالة أفضل ، ومن مرتبة أدنى إلى مرتبة أعلى . فالمؤرخ لم يعترف بهذا الاتجاه فقط ، بل أقره ، ولم يكن محك الأهمية الذى استخدمه فى اتجاهه نحو الماضى ، هو إدراك المجرى الذى يتحرك فيه التاريخ فحسب ، بل إدراكه لمشاركته الاخلاقية فى هذا المجرى . وبذا تمت تسوية الانقسام الثنائى المزعوم ، بين ما هو كائن وما ينبغى أن يكون ، وبين الواقعة والقيمة . لقد كانت نظرة متفائلة نتجت عن عصر يفيض ثقة بالمستقبل . فقد ظل الاحرار والأحرار القدماء (الهويجيون) ـ الهيجليون والماركسيون ـ اللاهوتيون والعقليون يعتنقون هذا الرأى اعتناقا راسخا . ويعبرون عنه بدرجات متفاوتة من البلاغة ، وكان من الممكن وصف هذا الرأى لمدة مائتى سنة بغير أية مبالغة كبرى بأنه الاجابة المقبولة والتى لاشك فيها على السؤال ، ما هو التاريخ ؟ وجاء رد الفعل ضده مع حالة التشاؤم والخوف السائدة التى تركت الميدان فسيحا أمام اللاهوتيين الذين يسعون وراء معنى للتاريخ خارجه ، وللمتشككين الذين لا يرون للتاريخ أى معنى على الإطلاق . وقد أكدت لنا جميع المصادر وبأقصى درجة من التأكيد أن القسمة الثنائية بين ما هو كائن ، وما ينبغى أن يكون مطلقه ، لا يمكن تسويتها ، وأن القيم

لا يمكن أن تستمد من الوقائع . وفى ظنى أن هذا سبيل باطل . ولنحاول أن نرى ما الذى رآه قلة من المؤرخين أو من الكتاب عن التاريخ - قد اختيروا جزافاً إلى حد كبير أو يسير - فى هذه المسألة .

يبرر « جيبون » اتساع الحيز الذى خصصه للكلام عن انتصارات الإسلام، على أساس أن زمام الحكم ما زال بيد أنصار محمد من الناحيتين الدنيوية والدينية فى العالم الشرقى ، غير أنه أضاف أن جحافل البرابرة التى نزحت من سهول « سقسيا » بين القرنين السابع والثانى عشر، قد لا تستحق نفس العناية ، بالنظر إلى أن جلال العرش البيزانطى قد استطاع صدها (١) ، واستمر بقاؤه بعد هذه الهجمات غير النظامية . إن هذا لا يبدو غير معقول فالتاريخ بصفة عامة هو سجل لما قام به الناس ، وليس لما عجزوا عن القيام به ، فإلى هذا الحد لا مفر من أن يكون قصة نجاح . وقد لاحظ الأستاذ « تاونى » Tawney ، أن المؤرخين يسبغون على أى نظام « مظهراً من الحتمية » وذلك بإبرازهم القوى التى انتصرت ، وإغفالهم القوى التى سحقت» (٢) ولكن أليس هذا بمعنى ما هو جوهر ما يقوم به المؤرخ ؟ فمن واجب المؤرخ ألا يقلل من شأن القوة المعترضة ، وألا يمثل النصر انتصارا هينا ، إن كان الموقف متأرجحا . فنى بعض الأحيان كان إسهام أولئك الذين أخفقوا لتحقيق الغرض النهائى من جلال الشأن، بحيث يعادل ما قام به المنتصرون. وهذه قواعد مألوفة لدى جميع المؤرخين . ولكن بصفة عامة ، يعنى المؤرخ بأولئك الذين أنجزوا شيئا ما سواء كانوا منتصرين أو منهزمين ، وإننى لست من المتخصصين فى تاريخ لعبة الكريكت ، ولكن من المسلم به أن صفحاته مرصعة بأسماء أولئك الذين فازوا فى مائة لعبة أكثر من أولئك الذين لم يحصلوا على شيء ، وقد انتقد بحق قول « هيجل » الشهير : إنه فى التاريخ

(١) جيبون Gibbon فى « تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » The Decline and fall of the Roman Empire الفصل الرابع .

(٢) تاونى R. H. Tawney المشكلة الزراعية فى القرن السادس عشر The Agrarian Problem in the Sixteenth Century ص١٧٧ - سنة ١٩١٢

يمكن أن يقع انتباهنا فقط على الذين قاموا بإنشاء دولة »(١) ، لأنها لم تدع قيمة لغير صورة واحدة من التنظيم الاجتماعى ، ومهدت الطريق إلى عبادة الدولة الذميمة ، ولكن من حيث المبدأ ما أراد هيجل قوله صحيح ، ويعكس التفرقة المألوفة بين ما قبل التاريخ ، والتاريخ ، فإن الشعوب التى حققت نجاحاً فى تنظيم مجتمعها إلى حد ما ، هى التى لا تعد شعوباً همجية وتدخل التاريخ . وقد وصف « كارلايل » فى كتابه « الثورة الفرنسية » الملك لويس الخامس عشر بأنه « أفضل مثل للانحراف المتجسد فى العالم » . وكان من الواضح إعجابه بهذه العبارة ، لأنه قد نسج على منوالها فيما بعد ، فى فقرة أطول ، عند ما قال :

« أية حركة عالمية جديدة دوارة هذه ، من نظم ، وتنظيمات اجتماعية ، وعقول فردية ، كانت فيما مضى تعمل متعاونة ، واليوم تدور وتسحق فى صدام غائب عن وعيه ؟ .. لقد كان لا مفر من ذلك . إنه تدهور انحراف عالمى قد تضعضع فى النهاية » (٢) .

إن المحك مرة أخرى تاريخى : فما كان ملائماً لعهد ، أصبح انحرافاً فى عهد آخر ، واستنكر لهذا السبب . ويبدو أن سير «إيزيا برلين» قد اهتدى إلى هذه النظرية أيضاً ، عند ما نزل من علياء تجريداته الفلسفية ، ونظر إلى المواقف التاريخية المشخصة . فقد امتدح ـ فى حديث إذاعى له بعد نشر مقاله عن « الحتمية التاريخية » بفترة ما ـ بسمارك بالرغم من نقائصه الأخلاقية «بوصفه عبقرياً » ، وأعظم مثال فى القرن الأخير ، لسياسى يتمتع

---

(١) « هيجل » Lectures on the Philosophy of History الترجمة الإنجليزية سنة ١٨٨٤ ص ٤٠ (محاضرات فى فلسفة التاريخ)

(٢) «كارلايل» فى كتابه الثورة الفرنسية The French Revolution الجزء الأول ـ الفصل الرابع ـ الفصل السابع .

بأعلى قدرة على التبصر السياسي» . وقد قارنه فى هذا السبيل مقارنة لصالحه، برجال من أمثال الملك جوزيف الثانى ملك النمسا وروبسبير ولينين وهتلر الذين أخفقوا فى إدراك «غاياتهم الإيجابية» . وأنا أرى هذا الرأى غريبا ، ولكن ما يهمنى هذه اللحظة هو معيار الحكم . لقد قال سير «ليزيا» إن بسمارك قد فهم المادة التى كان يعمل بها ، أما الآخرون فقد ساقتهم نظريات مجردة عجزت عن العمل . والمغزى هو أن «الإخفاق يأتى من جراء مقاومة ما يؤدى إلى نتيجة أكثر فاعليـــة ، وتفضيل منهج مذهبى أو قاعدة تدعى الصحة الكلية» (١) . وبعبارة أخرى أن محك الحكم فى التاريخ ليس قاعدة تدعى الصحة الكلية ، بل ما يؤدى إلى نتيجة أكثر فاعلية .

ولست بحاجة إلى القول أننا لا نستشهد فقط بهذا المحك الخاص «بما يؤدى إلى نتيجة أفضل» ، عند ما نقوم بتحليل الماضى . فلو أن أحداً أخبرك أنه يظن أن اتحاد بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية ، فى دولة واحدة، تحت حكومة مفردة، فى هذه الأزمة الحالية ، مرغوب فيه ، فإنك قد تتفق معه على أن هذا الرأى معقول للغاية . وإذا استمر فى القول ، بأنه من ناحية الحكم ، الملكية الدستورية أفضل من الديمقراطية الرياسية ، فإنك قد تتفق معه كذلك ، على اعتبار أن هذا معقول . ولكن انفرض أنه أخبرك بعد ذلك أنه ارتأى أن يهب نفسه لتزعم حملة ترمى إلى إعادة الوحدة بين الدولتين تحت ظل التاج البريطانى ، من المحتمل أنك سوف ترد عليه بأنه يضيع وقته هباء . وإذا حاولت أن تفسر السبب لوجب عليك أن تذكره ، أنه ينبغى مناقشة المسائل التى من هذا النوع على أساس ما يمكن

---

(١) أذيع فى محاضرة بعنوان (الحكم السياسى) Politica Judgement فى البرنامج الثالث لمحطة الإذاعة البريطانية ، فى ١٩ يونية سنة ١٩٥٧ .

أن يؤدى إلى نتيجة فى الأحوال التاريخية المعطاة ، وليس اعتماداً على مبدأ يطبق تطبيقاً عاما . وربما ارتكبت الخطيئة الكبرى بالكلام عن التاريخ بالحرف الكبير ، وذكرت له أن التاريخ ليس فى صفه . إن مهمة السياسى ليست النظر فيما هو مرغوب أخلاقياً أو نظرياً فحسب ، بل فى القوى الكامنة فى العالم كذلك ، وكيف يمكن توجيهها أو ممارستها من أجل تحقيق قد يكون من المحتمل جزئياً لغاية منظورة . وبتنا فى المسائل السياسية الذى نقوم به على ضوء تفسيرنا للتاريخ ترجع أصوله إلى هـــذا الحل الوسيط ، وينبع كذلك تفسيرنا للتاريخ من نفس هذا الحل الوسيط . فليس هناك شيء أشد بطلاناً من إقامة معيار افتراضى مجرد لما هو مرغوب، وإدانة الماضى على ضوئه . فلنحاول بكافة الوسائل الاستعاضة عن الكلمة « نجاح» ، التى أصبح لها مفاهيم منفرة بالعبارة المعقولة « ما يؤدى إلى نتيجة أكثر فاعلية» . وما دمت قد شاركت سير «إيزيا» فى الرأى فى عدة مناسبات خلال هـذه المحاضرات ، فإننى على أية حال أشعر بسعادة ، لأننى أستطيع إنهاء هذا البيان بهذا القدر من الاتفاق .

غير أن قبول المعيار الخاص « بما يؤدى إلى نتيجة أكثر فاعلية » لا يجعل تطبيقه سهلا أو واضحاً فى ذاته . فهو ليس بالمعيار الذى يشجع على اتخاذ قرارات خاطفة ، أو الذى ينحنى أمام الرأى القائل : إن كل ما هو كائن على صواب . فالإخفاقات الحافلة بالمعانى الهامة ليست غير معروفة فى التاريخ ويعترف التاريخ بما أستطيع أن أسميه « الإنجازات المتأخرة» . وربما أدت إخفاقات اليوم الظاهرية ، إلى الإسهام مساهمة حيوية فى إنجازات الغد ، مثل الأنبياء الذين ولدوا قبل زمانهم . ومن بين ما يمتاز به هذا المعيار الخاص بمبدأ يفترض قيامه وعالميته ، أنه قد يدعونا إلى إرجاء حكمنا ، أو تعديله على ضوء الأشياء التى لم يتم حدوثها . وقد غفر «برودون» Proudhon الذى تكلم بحرية باسم المبادىء الأخلاقية المجردة لنابليون الثالث « الانقلاب

السياسى « coup d' état الذى قام به بعد أن نجح . واتهم « ماركس » الذى رفض معيار المبادىء الأخلاقية المجردة « برودون » لتسامحه معه . ونحن إذا نظرنا إلى الوراء بعد نظرة تاريخية طويلة ، فمن المحتمل أننا سوف نتفق على أن « برودون » كان مخطئاً ، وأن ماركس كان على صواب . وتهىء إنجازات بسمارك نقطة بدء ممتازة لبحث هذه المشكلة الخاصة بالحكم التاريخى. وفى الوقت الذى أقبل فيه معيار سير «إيزيا» عن « ما يؤدى إلى نتيجة أكثر فاعلية » فإنى ما زلت أشعر بحيرة للحدود الضيقة والقصيرة المدى التى من الواضح أنه يقنع فى تطبيقه عليها ، فهل حقق ما فعله بسمارك حقيقة نتائج طيبة ؟ إننى أعتقد أنه قد أدى إلى كارثة عظمى . وهذا لا يعنى أننى أسعى لإدانة بسمارك الذى خلق الرايخ الألمانى ، أو جموع الألمان التى طالبت به ، أو ساعدت على خلقه ، ولكن ما زال لدى بوصفى مؤرخاً عدة أسئلة لكى أسألها . هل حدثت النكبة المترقبة بسبب وجود بعض التصدعات الخفية فى بناء الرايخ ؟ أو أن شيئاً ما فى الأحوال الداخلية التى أدت إلى مولده قد قضت بأن يصير فارضاً لذاته وميالا للاعتداء ؟ . . أو لأنه عندما خلق الرايخ كان المسرح الأوربى أو العالمى مزدحماً فعلا ، وكانت الميول التوسعية بين الدول العظمى القائمة قوية للغاية ، حتى إنه كان يكفى إنبعاث دولة قوية توسعية عظمى أخرى لإحداث صدام كبير ، وإلى انهيار النظام بأسره؟ وبناء على الفرض الأخير ، قد يكون من الخطأ اعتبار بسمارك والشعب الألمانى مسئولين أو المسئولين الوحيدين عن النكبة . فأنت لا تستطيع أن توجه اللوم فعلا إلى (القشة) الأخيرة . ولكن الحكم الموضوعى على إنجازات «بسمارك» وكيف أحدثت أثرها ، من المسائل التى تنتظر إجابة من المؤرخ . ولست واثقاً أنه قد أصبح بعد فى موقف يساعده على الإجابة عنها كلها إجابة قاطعة . وما أود أن أقول هو أن المؤرخ فى عشرينيات هذا القرن كان أقرب إلى الحكم الموضوعى من المؤرخ فى ثمانينيات القرن الماضى ، وأن المؤرخ اليوم أقرب من مؤرخ عشرينيات هذا القرن ، وأن

مؤرخ سنة ٢٠٠٠ سوف يكون أكثر قرباً ، وهذا يبين أن رأيي الخاص هو أن الموضوعية فى التاريخ ، لا تعتمد ، ولا يمكن أن تعتمد على معيار ثابت ، وغير قابل للتحرك للحكم، موجود هنا والآن .. ولكنها تعتمد فقط على معيار قد وضع فى المستقبل ويتطور كلما تقـــدم مجرى التاريخ ، ويكتسب التاريخ معنى وموضوعية فقط ، عند ما يؤسس صلة متماسكة بين الماضى والمستقبل .

والآن فلنحاول أن نلقى نظرة أخرى إلى هذا الانقسام الثنائى المزعوم بين الواقعة والقيمة . فالقيم لا يمكن أن تستمد من الوقائع . وهذه القضية صادقة صدقاً جزئياً ، ولكنها باطلة بطلاناً جزئياً كذلك . فما عليك إلا أن تقوم بفحص أى نسق من القيم السائدة فى أى عصر ، أو أية دولة لكى تدرك مقدار ما اختلط منها بوقائع البيئـة ، وقد لفت الانتباه فى محاضرة سابقة إلى المضمون التاريخى المتغير للكلمات المعبرة عن القيمة ، مثل: حرية ومساواة وعدالة . أو انظر إلى الكنيسة المسيحية باعتبارها نظاماً يعنى عناية كبرى بنشر القيم الأخلاقيـة ، وقارن قيم المسيحية الأولى بقيم العصور الوسطى البابوية ، أو قارن قيم العصور الوسطى البابوية بالقيم الخاصة بالكنائس البروتستانتية فى القرن التاسع عشر . أو قارن القيم التى تقوم بنشرها الكنيسة المسيحية فى أسبانيا حالياً ـ على سبيل المثال ـ بالقيم التى قامت الكنائس المسيحية بنشرها فى الولايات المتحدة . إن هـــذه الاختلافات فى القيم قد نبعت من اختلافات الوقائع التاريخية . أو تأمل الوقائع التاريخية التى سببت اعتبار الرق ، أو عدم المساواة العنصرية أو استغلال عمل الأطفال فى القرن ونصف القرن الماضيين بصفـة عامة أشياء غير أخلاقية ، وكانت مقبولة كلها يوماً ما بسبب أنها غير محددة

من الناحية الاخلاقية وشائعة . . وقد يكون أقل وصف للقضية القائلة إن القيم لا يمكن أن تستمد من الوقائع ، إنها من جانب واحد ومضللة . أو لنحاول أن نعكس القضية لكى تكون الوقائع لا يمكن أن تستمد من القيم . هذه القضية صادقة جزئياً ، ولكنها قد تكون كذلك مضللة وفى حاجة إلى تحديد . فنحن عند ما نسعى لمعرفة الوقائع فإن ما يسير الأسئلة التى نسألها ، ومن ثم الإجابات التى نحصل عليها هو مذهبنا فى القيم .

إن الصورة التى نكونها عن وقائع بيئتنا مختلطة بقيمنا ، أى بالمقولات التى نبحث الوقائع من خلالها ، هذا يعنى أن من أهم الوقائع التى يجب أن نراعيها هى هذه الصورة . فالقيم تشارك فى الوقائع ، وهى جانب ضرورى منها ، وقيمنا جانب ضرورى من عدتنا بوصفنا كائنات إنسانية . فاعتمادا على قيمنا تتحقق قدرتنا على تكييف أنفسنا مع بيئتنا ، وعلى تكييف بيئتنا مع أنفسنا ، وعلى اكتساب تلك السيادة على البيئة التى جعلت التاريخ سجلا للتقدم . ولكن لا تحاول عندما تصور صراع الإنسان مع بيئته فى صورة روائية أن تقيم تعارضا باطلا وانفصالا باطلا بين الوقائع والقيم . فالتقدم فى التاريخ يتم عن طريق الاعتماد المتبادل والتفاعل المتبادل بين الوقائع والقيم . والمؤرخ الموضوعى هو المؤرخ الذى ينفذ نفاذا أكثر عمقا فى هذه العملية المتبادلة .

ويتم الحصول على مفتاح لهذه المشكلة الخاصة بالوقائع والقيم عند استخدامنا المعتاد لكلمة «حقيقة» ، وهى كلمة تخلق فجوة بين عالمى الواقعة والقيمة ، وتتألف من عنصرين مأخوذين عن كليهما . والكلمة ليست من لوازم اللغة الإنجليزية . فالكل الكلمات الدالة على الحقيقة فى اللغات اللاتينية ، والكلمة

الألمانية Wahrheit والكلمة الروسية(١) Pravda هذا الطابع المزدوج. ويبدو أن كل لغة فى حاجة إلى هذه الكلمة من أجل حقيقة ليست تقريراً لواقعة فحسب أو حكما بقيمة فحسب، بل تضم العنصرين معا. فقد يكون ذهابى إلى لندن فى الاسبوع الماضى واقعة، ولكن لا يمكن تسميته وفقا لما جرت عليه العادة «بحقيقة»، فهى خالية من أى مضمون خاص بالقيمة. ومن ناحية أخرى عندما أشار المنشئون الأوائل للولايات المتحدة فى إعلان الاستقلال إلى الحقيقة البينة فى ذاتها بأن كل الناس قد خلقوا احرارا فإنك قد تشعر بأن المضمون الخاص بالقيمة فى القضية له نصيب أكبر من المضمون الخاص بالواقعة. وقد لا تقر وفقا لذلك حقها فى أن تعتبر حقيقة. ويكمن عالم الحقيـــقة التاريخية فى مكان ما بين هذين القطبين: قطب الوقائع التى لا قيمة لها، وقطب أحكام القيمة التى ما زالت تكافح لتحويل نفسها إلى وقائع. ويقف المؤرخ – كما ذكرت فى محاضرتى الأولى – بين الواقعة والتفسير وبين الواقعة والقيمة موقفا متزنا، فهو لا يستطيع فصلهما. وفى عالم ثابت، ربما أمكن أن تكون مرغما على إعلان الانفصال بين الواقعة والقيمة، ولكن التاريخ بلا معنى فى عالم ثابت. فالتاريخ فى جوهره تغير وحركة، أو هو متقدم إذا لم تعترض على الكلمة غير المسايرة للزمن.

أعود بذلك فى النهاية إلى وصف «أكتون» للتقدم «بأنه الفرض العلمى الذى يكتب التاريخ وفقا له»، وأنت قادر إذا رغبت أن تحول التاريخ إلى لاهوت، بأن تجعل معنى الماضى يعتمد على قوة خارج التاريخ أو قوة فوق

---

(١) إن مسألة Pravda لها أهمية خاصة لوجود كلمة روسية قديمة للحقيقة هى istina، ولكن التفرقة ليست بين الحقيقة باعتبارها واقعة، لحقيقة من ناحية أنها قيمة، فإن Pravda هى الحقيقة الإنسانية فى كلتا الناحيتين، istina هى الحقيقة الإلهية فى كلتا الناحيتين، الحقيقة المتعلقة بالله، الحقيقة كما يكشفها الله.

العقل ، وأنت قادر إذا أردت أن تحوله إلى آدب ، أى مجموعة من القصص والخرافات الخاصة بالماضى ، ليس لها معنى أو أهمية. ولا يستطيع أن يقوم بكتابة التاريخ بالمعنى الصحيح له سوى أولئك الذين يعثرون على معنى للاتجاه فى التاريخ ذاته ويقبلونه ، ويرتبط الاعتقاد الخاص بأننا قد جئنا من مكان ما ارتباطا وثيقا ، بالاعتقاد بأننا متجهون إلى جهة ما . والمجتمع الذى يفقد اعتماده فى قدرته على التقدم فى المستقبل، سيتوقف بسرعة عن العناية بتقدمه فى الماضى . وكما ذكرت فى بداية محاضرتى الأولى: أن نظرتنا للتاريخ تعكس نظرتنا للمجتمع . وأعود الآن إلى نقطة بدايتى بتأكيد إيمانى بمستقبل المجتمع ومستقبل التاريخ .

٦ ــ الأفق المتسع

يبدو أن التصور الذى قدمته فى هذه المحاضرات للتاريخ، باعتباره عملية دائمة التحرك ، وأن المؤرخ يتحرك معها ، قد أدى بى إلى بعض التأملات المستخلصة عن موقف التاريخ والمؤرخ فى زماننا . ونحن نحيا فى عصر تلوح فيه فى الجو — ليس لأول مرة فى التاريخ — تنبؤات كارثة عالمية آتية ، ويشعر الجميع بوطأتها . وهذه التنبؤات لا يمكن إثباتها أو نفيها ، غير أنها على أية حال أقل يقيناً من النبوءة الخاصة بأننا جميعاً سنموت . وبالنظر إلى أن التيقن من صحة هذه النبوءة لا يحول دون قيامنا بوضع خطط مستقبلنا ، لذلك فإننى سأتابع مناقشة حاضر مجتمعنا ومستقبله ، على فرض أن هذه البلاد * — أو إن لم تكن هذه البلاد ، فأى جزء كبير من العالم — سوف يحيا بعد الأخطار التى تهددنا ، وأن التاريخ سيستمر .

صادفت السنون المتوسطة من القرن العشرين العالم فى حالة تغير من المحتمل أن يكون أعمق وأكثر اكتساحاً من أى تغير قد لحق به منذ انهيار العصور الوسطى إلى أنقاض ، ووضع أساس العالم الحديث فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وليس من شك فى أن التغير فى النهاية هو نتيجة للاكتشافات والاختراعات العلمية ، والتطبيقات الدائمة الانتشار وللتنميات المنبعثة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة منها . وأكثر ناحية واضحة للتغير هى ثورة اجتماعية يمكن مقارنتها بالثورة التى حدثت فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وترتب عليها بزوغ سطوة طبقة جديدة ترتكز على المال والتجارة ، وبعد ذلك على الصناعة . وقد ترك التكوين الجديد لصناعتنا وتكوين مجتمعنا الجديد مشكلات لا أستطيع

---

* يقصد انجلترا .

أن أعالجها هنا لاتساعها الكبير . ولكن للتغير ناحيتين متصلتين اتصالا مباشراً بموضوعى ، وهما ما أسميهما : التغير فى العمق ، والتغير فى الامتداد الجغرافى ، وسأحاول أن ألمس كليهما باختصار .

يبدأ التاريخ عند ما يبدأ الناس فى التفكير فى مرور الزمن، لا فى صورة طبيعية ، مثل دورة الفصول وزمان الحياة الإنسانية ، بل فى صورة سلسلة من الأحداث الخاصة التى يتأثرون بها تأثرا واعيا ، ويشاركون فيها ويستطيعون التأثير فيها تأثيرا واعيا . ويقول « بوركار » : « إن التاريخ هو الانقطاع عن الطبيعة ، الذى تحدثه إفاقة الوعى »(١) والتاريخ هو كفاح الإنسان الطويل مستخدما عقله لفهم بيئته والتأثير عليها . ولقد أحدث العصر الحديث ثورة فى اتساع مجال الكفاح . فالإنسان الآن يحاول أن يفهم ، وأن يكون فعالا ، لا مع بيئته فحسب، بل مع نفسه كذلك . ويمكن القول إن هذا قد أضاف مبدأ جديداً للعقل ، ومبدأ جديداً للتاريخ. فالعصر الحديث هو أكثر العصور وعيا للتاريخ . فلدى الإنسان الحديث وعى بالذات لم يسبق له مثيل، ومن ثم فإن لديه وعيا بالتاريخ؛ فالإنسان يرنو متلهفا إلى الوراء ، إلى الغسق الذى جاء منه مؤملا أن تضىء أشعته الخافتة الغموض الذى يسير نحوه . ومن ناحيـــة مقابلة فإن تطلعه إلى الطريق الممتد أمامه ولهفته ، يحولان بصيرته فى سرعة إلى ما يكمن فى الوراء . إن الماضى والحاضر والمستقبل فى اتصال معا فى سلسلة التاريخ التى لا نهاية لها .

ويمكن القول إن التغير فى العالم الحديث ، الذى يتضمن تقدم وعى الإنسان بذاته ، قد بدأ بديكارت الذى دعم مكانة الإنسان بوصفه كائنا غير قادر على التفكير فحسب ، بل مفكرا فى تفكيره ، وقادرا على مشاهدة نفسه

---

(١) «بوركهارت» J. Burckhardt «تأملات فى التاريخ» Reflections on History ١٩٥٩ ص ٣١

فى أثناء فعل المشاهدة . بذا يكون الإنسان ذاتا وموضوعا للتفكير والمشاهدة فى نفس الوقت . ولكن التقدم لم يصبح واضحا تماما إلا فى القسم الأخير من القرن الثامن عشر ، عندما كشف « روسو » أعماقا جديدة لفهم الإنسان لذاته وللوعى الذاتى، وزود الإنسان بنظرة جديدة إلى عالم الطبيعة والحضارة التقليدية . قال « توكفيل » Tocqueville لقد كانت الثورة الفرنسية ملهمة « بالاعتقاد بأن الشىء المطلوب هو إحلال قواعد أولية مستمدة من ممارسة العقل، ومن القانون الطبيعى، محل العادات التقليدية المعقدة، التى كانت تتحكم فى النظام الاجتماعى فى هذا الوقت » (١) وكتب « اكتون » فى إحدى ملاحظاته المخطوطة « لم يسع الناس نحو الحرية ، أو عرفوا مايسعون إليه حتى ذلك الوقت » (٢) وقد كانت الحرية ، والعقل عند « أكتون » ، وكذلك عند « هيجل » شيئين غير منفصلين أبداً ، وارتبطت الثورة الأمريكية بالثورة الفرنسية .

« منذ سبع وثمانين سنة مضت : جاء آباؤنا لهذه القارة بأمة جديدة ، ولدت فى الحرية ، وكرست حياتها للقضية القائلة : إن كل الناس قد خلقوا متساوين » .

إنه لحادث فذ ، كما توحى كلمات لنكولن. فلأول مرة فى التاريخ يقوم الناس بتكوين أمة من أنفسهم ، بوعى وبقصد، ثم يقومون بوعى وبقصد بإعداد رجال آخرين للاندماج فيها . وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، أصبح الإنسان بالفعل على وعى تام بالعالم المحيط به وبقوانينه . ولم تعد هذه

---

(١) « دى توكفيل » De Tocqueville الفصل الأول من كتاب « النظام القديم » L'ancien Régime

(٢) مكتبة جامعة كامبردج Add . M . SS 4870

القوانين سننا غامضة لعناية إلهية مبهمة ، بل قوانين يفهمها العقل ، غير أنها كانت قوانين يخضع لها الإنسان وليست من صنعه . وفى المرحلة التالية تيسر للإنسان أن يصبح على وعى تام بسيطرته على بيئته وعلى نفسه وبحقه فى صنع القوانين التى سوف يحيا فى ظلالها .

ولقد كان الانتقال من القرن الثامن عشر إلى العصر الحديث طويلا وتدريجا . والفيلسوفان اللذان يمثلان هذه الفترة هما « هيجل » و « ماركس » ، وكلاهما يحيط به الإبهام ، وتمتد جذور « هيجل » إلى فكرة قوانين العناية الإلهية التى تحولت إلى قوانين للعقل . وتمسك روح العالم عند « هيجل » بالعناية الإلهية بقوة بيد ، وبالعقل باليد الأخرى . وهـو يردد ما قاله آدم سميث « إن الأفراد يشبعون رغباتهم ، ولكن شيئا أكثر يتحقق من جراء ذلك ، وهو كامن فى فعلهم وإن لم يكن حاضرا فى وعيهم » . ويكتب عن الغرض العقلى لروح العالم ، أن الناس « فيما يفعلون لإدراكه ، ينتهزون الفرصة لإشباع رغباتهم التى تكون فحواها مختلفة عن هذه الغاية » . وهذا هو ببساطة توافق الأغراض مترجما إلى لغة الفلسفة الألمانية (١) . ويماثل تعبير «اليد الخفية» لـ«سميث» تعبير « هيجل » الشهير « مكر العقل » الذى يدفع الناس لتحقيق غايات لا يشعرون بها . ولكن مع ذلك فـ « هيجل » هو فيلسوف الثورة الفرنسية ، وأول فيلسوف يرى ماهية الواقع فى التغيير التاريخى وفى تقدم وعى الإنسان بذاته ، فقد كان معنى التقدم فى التاريخ هو التقدم نحو تصور الحرية . وبعد سنة ١٨١٥ انتهى ما ألهمته الثورة الفرنسية نهاية محزنة من جراء فتور عصر الاستعادة Restoration ، وكان «هيجل» هلوعا من الناحية السياسية للغاية ، وفى سنواته الأخيرة ظل محتميا بنظم عصره إلى حد حال دون تقدمه بأى معنى مشخص لقضاياه الميتافيزيقية ، ولقــد كان وصف «هرتسن»

---

(١) هذه العبارات مأخوذة عن كتاب هيجل « فلسفة التاريخ » .

Herzen لآراء « هيجل » بأنها « جبر الثورة » بارها فذا . فقد أتى « هيجل » بالرموز ، ولكنه لم يجعل لها أى مضمون عملى وترك لـ « ماركس » كتابة الأرقام فى معادلات « هيجل » الجبرية .

وبدأ ماركس وهـــو يتبع كلا من آدم سميث وهيجل فى تصور عالم تنظمه القوانين العقلية للطبيعة ، وقام مثل «هيجل» ـ وإن كان هذه المرة فى صورة عملية ومشخصة ـ بالانتقال إلى تصور عالم تنظمه قوانين متطورة خلال عملية عقلية، استجابة للمبادىء الثورية للإنسان. لقد كان معنى التاريخ فى التأليف Synthesis النهائى لماركس ثلاثة أشياء لا تنفصل بعضها عن بعض، وتشكل كلا متماسكا وعقليا فى حركة الأحداث التى تتبع قوانين موضوعية، كانت فى البداية قوانين اقتصادية ، وفى التقدم المطابق للفكر خلال عملية ديالكتيكية ، والعمل المطابق فى صورة صراع طبقى يوفق بين نظرية الثورة وممارستها ويوحد بينها . وما يقدمه ماركس هو تأليف للقوانين الموضوعية وللعمل الواعى اللذين يترجمان إلى لغة الحياة العملية بما يدعى أحيانا بالجبرية والاختيارية ، (وإن كانت هذه الترجمة مضللة) ويكتب ماركس باستمرار عن قوانين قد خضع لها الناس حتى ذلك الوقت دون أن يشعروا بها ، وقد لفت النظر أكثر من مرة إلى ما أسماه «الوعى الباطل» لأولئك الذين وقعوا فى شباك الاقتصاد الرأسمالى والمجتمع الرأسمالى: «إن التصورات التى يتصورها من قاموا بالإنتاج والتداول فى أذهانهم عن قوانين الإنتاج ، ستختلف اختلافا واسعا عن القوانين الحقيقية(١) ولكن المرء يصادف فى كتابات ماركس أمثلة تدعو إلى الدهشة لنداءات داعية إلى الفعل الثورى الواعى . ففى رسالته الشهيرة عن « فوירباخ » Feurbach قال « لقد قام الفلاسفة بتفسير العالم تفسيرا مختلفا ، ولكن المهم هو تغييره » . وصرح البيان الشيوعى « بأن

---

(١) « Capital » رأس المـــال الترجمة الإنجليزية ١٩٠٩ الجزء الثالث ص ٣٦٩

الطبقة الكادحة «البروليتاريا» ستستخدم سلطتها السياسية لتجريد الطبقة البورجوازية خطوة فخطوة من كل رأس المال، وتركيز جميع وسائل الإنتاج فى أيدى الدولة. وفى كتابه The Eighteenth Brumaire of Louis Bonaparte تحدث ماركس عن وعى المثقفين الذاتى، الذى سيذيب فى مدى قرن كل الأفكار التقليدية». لقد كانت البروليتاريا هى التى ستقوم بإذابة الوعى الباطل للمجتمع الرأسمالى، وتقديم الوعى الحقيقى المجتمع اللاطبقى، ولكن إخفاق ثورات سنة ١٨٤٨ كان ارتداداً فاجعاً للتطورات التى بدت مشيمة عند ما بدأ ماركس العمل. ولقد مر القسم الأخير من القرن التاسع عشر فى جو كان فيه الرخاء والطمأنينة ما زالا سائدين.

ولم يتيسر لنا — إلا بعد انقضاء القرن المنصرم — الانتقال إلى الفترة المعاصرة للتاريخ، حيث لم تعد المهمة الأولى للعقل هى فهم القوانين الموضوعية المتحكمة فى سلوك الإنسان فى المجتمع، بل أصبحت بالأحرى إعادة تشكيل المجتمع والأفراد الذين يكونونه اعتماداً على العقل الواعى. و«الطبقة» عند «ماركس» - وإن كانت لم تعرف تعريفاً دقيقاً - قد ظلت بصفة عامة تصوراً موضوعياً، يدعمه التحليل الاقتصادى. وانتقل الاهتمام عند «لينين» من الطبقة إلى الحزب الذى يعد طليعة الطبقة، ويبث فيها عنصر الوعى الطبقى الضرورى». والأيديولوجية» عند ماركس كلمة سلبية، نتجت عن تفسير زائف للنظام الرأسمالى للمجتمع، وأصبحت كلمة «أيديولوجية» عند «لينين» لا تتبع أى معسكر أو إيجابية — وتعنى الاعتقاد الذى تغرسه صفوة من القادة، لديها وعى طبقى فى جمع من العمال الذين لديهم وعى طبقى كامن. ولم يعد تشكيل الوعى الطبقى عملية آلية، بل واجباً يباشر القيام به.

والمفكر العظيم الآخر الذى أضاف بعداً جديداً إلى العقل فى عصرنا،

هو « فرويد Freud » ولا يزال « فرويد » اليوم شخصية « ملغزة » بعض الشيء . فهو بحكم تعلمه ونشأته من أحرار القرن التاسع عشر الفرديين ، وقد قبل بغير جدال الافتراض الشائع - وإن كان مضللا - الخاص بقيام تعارض جوهرى بين الفرد والمجتمع . وجنح فرويد فى نظرته إلى الإنسان بوصفه كائناً بيولوجياً أكثر منه كائناً اجتماعياً ، إلى اعتبار البيئة الاجتماعية شيئاً قدمه لنا التاريخ ، أكثر منها شيئاً يمر بعملية خلق وتحول مستمرين يقوم بهما الإنسان نفسه . وقد هاجمه الماركسيون على الدوام لمعالجة المشكلات التى هى فى الحقيقة اجتماعية من وجهة نظر الفرد ؛ واتهم بالرجعية بسبب ذلك . وكان هذا الاتهام الذى كان صحيحاً جزئياً فقط فيما يختص بفرويد نفسه أكثر ارتكاناً إلى ما يبرره بالنسبة إلى المدرسة الفرويدية الجديدة السائدة فى الولايات المتحدة ، التى تفترض أن عدم التوافق فطرى فى الفرد ، ولا يرجع إلى بناء المجتمع ، والتى تنظر إلى توافق الفرد مع المجتمع بوصفه مهمة أساسية لعلم النفس . والاتهام الآخر المشهور الموجه لفرويد الخاص بأنه قد توسع فى دور اللاعقلى فى الأمور الإنسانية ، باطل تماماً ، وهو يعتمد على خلط فج بين الاعتراف بعنصر لا عقلى فى السلوك الإنسانى ، وبين الاعتقاد فى اللاعقلى . وأما أن هناك اعتقاداً موجوداً فى البلاد الناطقة بالإنجليزية فى اللاعقلى خاصة فى صورة حط من إنجازات العقل وإمكانياته ، فهو — مما يؤسف له — حقيقى . إنه جانب من موجة التشاؤم السائدة ، ومن النزعة المحافظة المتطرفة التى سأتكلم عنها فيما بعد ، ولكن هذا الرأى لم ينحدر عن طريق فرويد ، الذى كان عقلياً غير متمكن ، وبالأحرى عقلياً بدائياً . والذى قام به فرويد هو أنه قد وسع مدى معرفتنا وفهمنا ، بأن كشف النقاب عن جذور السلوك الإنسانى اللاواعية ، للوعى ، وللبحث العقلى . ومعنى هذا هو امتداد نطاق العقل ، وازدياد قدرة الإنسان على فهم نفسه والسيطرة عليها ، ويترتب عليه فهمه لبيئته ، ويمثل إنجازاً ثورياً وتقدمياً . وفى هذا المقام

يكمل فرويد ماركس ولا يتعارض مع ما قام به . وهو ينتمى إلى العالم المعاصر ، بمعنى أنه بالرغم من أنه لم يستطع الهروب تمــاماً من تصور ثابت لا يتغير للطبيعة الإنسانية ، فإنه قد جاء بوسائل فهم أعمق لجذور السلوك الإنسانى ، يترتب عليها تعديل لوعيه بوساطة العمليات العقليـة .

وأهمية فرويد للمؤرخ مزدوجة . فأولا : قد دق فرويد آخر مسمار فى نعش الوهم العتيق، القائل: إن الدوافع التى يزعمها الناس لأفعالهم ، أو يظنون أنهم قاموا بأفعالهم من أجلها ، غير كافية فى الواقع لتفسير فعلهم ، وهذه نتيجة سلبية على جانب من الأهميـة ، وإن كان من الواجب النظر باحتياط إلى الادعاء الإيجابى لبعض المتحمسين الذين يسعون نحو إلقاء ضوء على سلوك عظماء الرجال فى التاريخ باتباع وسائل التحليل النفسى . فإن مايجرى فى التحليل النفسى يعتمد على استجواب المريض الذى تبحث حالته، وأنت لا تستطيع استجواب الميت. ثانياً : إن فرويد مدعماً ما قام به ماركس ، قد حث المؤرخ على فحص نفسه وموقفه فى التاريخ والدوافع - ربما الدوافع الخفية التى ساقته إلى اختيار موضـوعه ، أو العصر الذى يدرسه ، وانتقائه للوقائع وتفسيرها ، والأساس القومى والاجتماعى الذى حدد زاوية رؤيته ، وتصور المستقبل الذى شكل تصوره للمـــاضى . ومنذ كتب « ماركس » « وفرويد » لم يعد للمؤرخ أى عذر لكى يظن نفسه فرداً منعزلا يقف خارج المجتمع وخارج التاريخ . إن هـذا هو عصر الوعى بالذات . والمؤرخ يستطيع وينبغى عليه أن يعرف ما يقوم به .

هذا الانتقال إلى ما دعوته بالعالم المعاصر — أى امتداد مجالات جديدة لمهمة العقل وقدرته — لم يكتمل بعد ، إنه جانب من التغير الثورى

الذى يجتازه عالم القرن العشرين . وأود أن أخص بعض العلامات الرئيسية لهذا الانتقال .

فلأبدأ بالاقتصاد . لم يكن هناك إلى سنة ١٩١٤ اعتراض من الناحية العملية على الاعتقاد فى قوانين اقتصادية موضوعية تتحكم فى السلوك الاقتصادى للناس وللأمم ، ويضرّ بهم تحديها . وكانت هذه القوانين هى التى تقرر دورات التجارة وتقلبات الأسعار والبطالة . وظل هذا الرأى سائداً إلى سنة ١٩٣٠ ، عند ما بدأ الكساد الكبير ، وتغيرت الأمور عقب ذلك بسرعة . وفى ثلاثينيات هذا القرن بدأ الناس يتحدثون عن نهاية الرجل الاقتصادى أى الإنسان الذى يتابع مصالحه الاقتصادية اتباعاً يتفق مع القوانين الاقتصادية، ومنذ ذلك الحين لم يعتقد أحد سوى قلائل من بقايا أصحاب الأفكار البالية Rip van Wiukle من القرن التاسع عشر فى القوانين الاقتصادية بهذا المعنى . واليوم قد غدا الاقتصاد إما سلسلة من المعادلات الرياضية النظرية، وإما دراسة عملية لكيف يدفع بعض الناس البعض الآخر إلى الأمام ولقد كان التغير بصفة رئيسية نتيجة للانتقال من رأسمالية فردية إلى رأسمالية على نطاق واسع . فما دام صاحب العمل الفرد أو التاجر مهيمناً ،لم يبد أن أحداً يقوم بتوجيه الاقتصاد ، أو يكون قادراً على التأثير عليه بأية صورة لها أهميتها ، وبقى الوهم الخاص بقوانين وإجراءات لاشخصية، حتى إنه اعتقد أن بنك انجلترا فى أوج سطوته ليس مجرد عميل ماهر ومدبر ، بل مسجل موضوعى شبه آلى للاتجاهات الاقتصادية . ولكن الوهم قد تبدد بعد الانتقال من الاقتصاد الحر Laissez—faire إلى الاقتصاد الموجه، سواء أكان اقتصاداً رأسمالياً موجهاً ، أم اقتصاداً اشتراكياً ،وسواء قام بالتوجيه نظام رأسمالى على نطاق واسع — فردى من الناحية الاسمية — أو الدولة . وأصبح واضحاً أن بعض الناس يتخذون قرارات معينة من أجل غايات معينة،وأن هذه القرارات تحدد لنا خط سيرنا الاقتصادى. واليوم

يعرف كل فرد أن أسعار الزيت والصابون لا تتغير ، استجابة لبعض القوانين الموضوعية للعرض والطلب ، ويعرف كل فرد ، أو يظن أنه يعرف أن التدهورات الاقتصادية والبطالة من صنع الإنسان وتعترف الحكومات ، وتدعى بحق أنها تعرف كيف تعالجها . لقد تم الانتقال من الاقتصاد الحر Laissez faire إلى التخطيط ، ومن اللاوعى إلى الوعى بالذات ، ومن الاعتقاد فى قوانين اقتصادية موضوعية إلى اعتقاد فى أن الإنسان يستطيع اعتمادا على عمله أن يسيطر على مصيره الاقتصادى . وسارت السياسة الاجتماعية جنبا إلى جنب مع السياسة الاقتصادية، وضمنت السياسة الاقتصادية بحق فى السياسة الاجتماعية . ولأقتبس من المجلد الأخير من تاريخ كامبردج الحديث الأول Cambridge Modern History الذى نشر سنة ١٩١٠ تعقيبا يدل على الإدراك الواسع من كاتب يتبع أى اتجاه ماعدا الماركسية ، ومن المحتمل ألا يكون قد سمع عن لينين :

« إن الاعتقاد فى إمكان الإصلاح الاجتماعى، اعتمادا على الجهد الواعى هو التيار السائد للعقل الأوربى . لقد حل محل الاعتقاد فى الحرية باعتبارها الترياق الوحيد ، وإن انتشاره فى الحاضر لهو هام وخصب مثل الاعتقاد فى حقوق الإنسان فى أثناء الثورة الفرنسية » .

واليوم بعد خمسين سنة من كتابة هذه الفقرة ، وبعد أكثر من أربعين سنة من الثورة الروسية ، وبعد ثلاثين سنة من النكسة الكبرى ، قد أصبح هذا الاعتقاد شائعا . ويبدو لى الانتقال من الخضوع للقوانين الاقتصادية الموضوعية - التى وإن كان يفترض أنها عقلية ،إلا أنها غير خاضعة للسيطرة الاقتصادية - إلى الاعتقاد فى قدرة الإنسان على السيطرة على مصيره الاقتصادى بوساطة العقل الواعى ، دليلا على التقدم فى تطبيق العقل على الأمور الإنسانية ، وقدرة متزايدة لدى الإنسان على فهم نفسه وبيئته والسيطرة عليهما . وهذا ما أنا على استعداد لتسميته إذا اقتضت الضرورة بالكلمة العتيقة « تقدم » .

يضيق المقام أمامى لكى ألمس تفصيليا العمليات المشابهة التى جرت فى المجالات الأخرى -فالعلم- كما رأينايعنى بالمثل الآن بإنشاءفروض فعالة يستطاع بوساطتها توجيه الطبيعة لغاية ، وتغيير البيئة ، أكثر من عنايته ببحث قوانين موضوعية للطبيعة وإنشائها . وأكثر من ذلك أهمية ، أن الإنسان معتمدا على الممارسة الواعية للعقل ، أصبح لا يكتفى بتغيير بيئته ، بل يعمل على تغيير نفسه . وفى نهاية القرن الثامن عشر ، حاول « مالتوس » فى مؤلف يعد من الأحداث الهامة لذلك العصر إنشاء قوانين موضوعية للسكان ، تعمل مثل قوانين السوق لآدم سميث ، دون أن يعى أحد بعملها . واليوم لم يعد أحد يعتقد فى مثل هذه القوانين الموضوعية ، ولكن التحكم فى السكان قد أصبح مسألة سياسية اجتماعية عقلية وواعية . وقد رأينا فى زماننا إطالة مدى الحياة الإنسانية ، وتغيير نسب الأجيال فى سكاننا اعتمادا على الجهد الإنسانى ، وسمعنا عن عقاقير تستخدم استخداما واعيا للتأثير فى السلوك الإنسانى ، وعن عمليات جراحية تجرى لتغيير خصال الإنسان . لقد تغير كل من الإنسان والمجتمع ، وتم التغيير أمام أعيننا بوساطة الجهد الإنسانى الواعى . ولكن من المحتمل أن يكون أكثر هذه التغيرات أهمية قد جاء نتيجة لتقدم الوسائل الحديثة للإقناع والتثقيف واستخدامها . فاليوم أصبح المعلمون فى كل المستويات يعنون عناية أكثر وعيا بالإسهام فى تشكيل المجتمع فى قالب معين ، وفى غرس الاتجاهات والولاء والآراء المناسبة لهذا النمط من المجتمع فى الجيل الصاعد . فالسياسة التعليمية هى جانب متكامل مع أى سياسة اجتماعية ، تتبع تخطيطا عقليا . ولم تعد المهمة الأولى للعقل كما يستخدمه الإنسان فى المجتمع هى مجرد البحث ، بل القيام بالتغيير . ويبدو لى أن هذا الازدياد فى الوعى بقدرة الإنسان على الارتقاء ، بتنظيم الأمور الاجتماعية والاقتصادية والسياسية باتباع وسائل عقلية ، إحدى النواحى العظيمة لثورة القرن العشرين .

وهذا التوسع فى استخدام العقل ، هو جانب واحد من العملية التى

أسميتها فى محاضرة سابقة بالتفرد Individualization — أى التنوع فى المهارات الفردية والمهن والفرص ـ الذى يلازم الحضارة المتقدمة ، وربما كان أبعد آثار العواقب الاجتماعية للثورة الصناعية هو الازدياد المستمر فى عدد الذين تعلموا التفكير واستخدام عقولهم . وفى بريطانيا قد بلغ تعلقنا بالتدرج حدا جعل من الصعب فى بعض الأحيان إدراك حركة التقدم . فقد توقفنا عند التعليم الأولى الشامل معظم هذا القرن ، ولم نتقدم بعيدا بعد ، أو بسرعة نحو تعليم عال شامل . ولم يكن لهذا أى أثر عندما كنا نقود العالم ، ولكن قد غدا له أثر أكبر بعد أن تخطانا آخرون ممن هم فى عجلة أكثر منا ، وبعد أن ازدادت خطوة التقدم فى كل مكان بفعل التغير العلمى الفنى (التكنولوجى) ؛ لأن الثورة الاجتماعية والثورة (التكنولوجية) والثورة العلمية ، روح التقدم وحياته . وإذا أردت مثلا أكاديميا للتفرد ، فتأمل التنوع الكبير فى السنوات الخمسين الماضية ، أو الستين ، فى التاريخ أو العلم أو أى علم معين وإلى التنوعات المتعددة والمتزايدة للتخصص الفردى الذى يقدمه . ولكن لدى مثلا أعظم تأثيرا للتقدم فى مستوى مختلف . فمنذ أكثر من ثلاثين سنة مضت استمع ضابط عسكرى ألمانى عظيم ، كان يزور الاتحاد السوفيتى إلى ملحوظات توضيحية من ضابط سوفيتى قائم بإنشاء القوة الجوية الحمراء ، وقال الضابط السوفيتى :

« نحن الروس علينا أن نعمل اعتمادا على أناس مازالوا فى حالة بدائية . ونحن مرغمون على تكييف الآلة الطائرة لكى تلائم الطيار الذى لدينا . وسوف يتم التقدم (الفنى والتكنيكى) للمادة المستعملة كذلك ، بقدر نجاحنا فى تطوير نوع جديد من الناس ، فكل من العاملين يقرر الآخر . فلا يمكن أن يوضع رجال بدائيون فى آلات معقدة . » (١)

(١) Vierteljahrshefte für Zeitgeshichte طبعة ميونخ ١٩٥٣ — ص ٣٨

واليوم بعد جيل فقط: قد عرفنا أن الآلات الروسية لم تعد بدائية، وأن ملايين من الرجال الروس والنساء، الذين يقومون بالتخطيط والإنشاء وتشغيل هذه الآلات، لم يعودوا بدائيين كذلك . وبوصفي مؤرخاً فإنني أكثر اهتماماً بهذه الظاهرة الأخيرة . واتباع الوسائل العقلية في الإنتاج يعني شيئاً أكثر أهمية ، وهو اتباع الإنسان للعقل . والبدائيون اليوم في كل أنحاء العالم يتعلمون استخدام الآلات المعقدة ، وهم عند قيامهم بذلك يتعلمون التفكير واستخدام عقولهم . والثورة التي قد نسميها بحق ثورة اجتماعية ، ولكني سوف أسميها في هذا المقام ثورة اتساع العقل ، لم تكد تبدأ وهي تتقدم بخطى مترنحة لكي تكون في مستوى التقدم التكنولوجي المتعثر للجيل السابق ، وتبدو لي أنها أحد الجوانب الكبيرة لثورتنا في القرن العشرين .

وسيدعوني بعض متشائمينا ومتشككينا بالتأكيد للعودة إلى الصواب، إذا أخفقت في هذه النقطة في ملاحظة الأخطار والنواحي المبهمة المترتبة على الدور المخصص للعقل في العالم المعاصر . لقد أشرت في محاضرة سابقة إلى أن ازدياد التفرد بالمعنى الذي وصف ، لا يتضمن أي إضعاف للتأثير الاجتماعي الذي يؤدي إلى المطابقة والاطراد. وهذا بحق هو أحد الجوانب المحيرة لمجتمعنا المعقد المعاصر. فالتعليم الذي هو أداة ضرورية وقوية للارتقاء باتساع القدرات الفردية وفرصها، ومن ثم ازدياد التفرد، هو كذلك أداة قوية في أيدي الطوائف التي يهمها ارتقاء الاطراد الاجتماعي . وتوجه الاحتجاجات التي كثيراً ما تسمع للمطالبة بإذاعة وتليفزيون أو صحافة أكثر إدراكاً للمسئولية ، أولا ضد ظواهر سلبية معينة من السهل إدانتها ، ولكن هذه الاحتجاجات سرعان ما تصبح مبررات لاستخدام هذه الأدوات القوية، للتأثير الجماعي، لفرض ميول مرغوبة وآراء مرغوبة. ويصبح مقياس الأذواق والآراء المعقولة ، هو استساغة المجتمع لها . إن مثل هذه الحملات للدعاية في أيدي أولئك الذين يروجونها هي عمليات

واعية وعقلية ، تهدف إلى تشكيل المجتمع عن طريق تشكيل أفراده في صورة مرغوبة . ويعد المعلن التجارى والداعية السياسى أمثلة أخرى ساطعة لهذه الأخطار ، وتستخدم الأحزاب والمرشحون معلنين محترفين بغية التأثير بصورة مكشوفة ، فى الولايات المتحدة، وفى صورة أكثر حياء ببريطانيا. وحقيق أنه يضطلع بهذين الدورين فئتان، والإجراءان وإن كانا فى البداية متمايزين إلا أنهما متشابهان بدرجة ملحوظة . فإن المعلنين المحترفين ورءوس هيئات الدعاية فى الأحزاب السياسية الكبرى رجال أذكياء ذكاء مفرطا ، فهم يستفيدون بملكات العقل كافة فى تأدية مهمتهم. ويستخدم العقل كما فى الأمثلة الأخرى التى قمنا بفحصها ليس لمجرد الاستكشاف ، بل لأغراض بناءة واستخداما ديناميكيا وليس استخداما ثابتا (استاتيكيا) والوقائع القائمة لا تعنى المعلنين المحترفين ومنظمى الحملات الدعائية أى عناية أولية ، والذى يهمهم هو ما يعتقده المستهلك أو الناخب الآن .وهم يهتمون بالأحداث فقط بقدر إسهامها فى الغاية الأخيرة ، أى ما الذى يمكن باتباع وسيلة ماهرة إغراء المرشح أو الناخب على اعتقاده أو طلبه . وأكثر من ذلك أن دراستهم لسيكلوجية الجماعات قد أوضحت لهم أن مخاطبة العنصر اللاعقلى فى تكوين المستهلك والناخب هى أسرع الوسائل لضمان قبول وجهات نظرهم . ويترتب على ذلك أن الموقف الذى يواجهنا هو موقف نخبة من الصناعيين المحترفين أو زعماء الأحزاب الذى يحققون غاياتهم باتباع وسائل عقلية أكثر تقدما من أى وقت مضى ،وذلك بفهم النواحى اللاعقلية للجماعات والاستفادة منها . وهذه المخاطبة ليست موجهة فى البداية إلى العقل إنها موجهة بصفة رئيسية بالطريقة التى وصفها « أوسكار وايلد » بقوله : إنها تثير المواضع الوضيعة فى النفس . لقد بالغت فى تصوير الصورة بعض الشىء حتى لا يقال لأننى أقلل من تقدير (١) الخطر

---

(١) انظر من أجل مناقشة أكثر اكتمالا إلى كتاب المؤلف The Open Society & its Enemies (المجتمع المفتوح وأعداؤه) الفصل الرابع سنة ١٩٥١

ولكنها صحيحة للغاية، ويمكن تطبيقها فى مجالات أخرى بسهولة. ففى كل مجتمع تتخذ إجراءات إرغامية بوساطة الجماعات الحاكمة بطريقة أو بأخرى لتنظيم الرأى الجماعى وتوجيهه . وهذه الوسيلة تبدو أسوأ من الوسائل الأخرى لأنها تقوم على إساءة استخدام العقل .

لدى حجتان للإجابة عن هذا الاتهام الجدى الذى يعتمد على أساس سليم . الحجة الأولى هى الحجة المألوفة الخاصة بأن كل اختراع وكل تجديد وكل فن (تكنيكى) اكتشف فى مجرى التاريخ ، كان له جوانبه السلبية كما كان له جوانبه الإيجابية . وكان على البعض دائما تحمل الثمن. وإننى لا أعرف كم مضى من الزمن بعد اختراع الطباعة إلى أن بدأ النقاد يشيرون إلى أنها قد سهلت انتشار الآراء الخاطئة. واليوم قد أصبح التوجع شائعا بسبب حوادث الموت فى الطرق التى تسببها أخطار السيارات . وبالمثل فإن بعض العلماء نادمون لاكتشافهم وسائل إطلاق الطاقة الذرية وأساليبها بسبب الاستعمالات المهلكة التى استخدمت وقد تستخدم من أجلها . إن مثل هذه الاعتراضات لم تجد فى الماضى ، ويبدو أنها لن تجدى فى المستقبل فى إيقاف تقدم الاختراعات والاكتشافات الجديدة وإن ما تعلمناه من فنون الدعاية الجماعية وإمكانياتها لا يمكن إزالته بوساطة . فالعودة إلى ديمقراطية « لوك » الفردية التى على نطاق ضيق ، أو نظرية مذهب الأحرار التى أدركت إدراكا جزئيا فى بريطانيا فى السنوات المتوسطة من القرن التاسع عشر ، ليست أكثر إمكانية من العودة إلى استخدام الحصان أو (الدوكار) أو الرأسمالية الأولى (مبدأ حرية العمل) Laissez—faire ولكن الإجابة الصحيحة هى أن هذه الشرور تحمل فى طياتها كذلك وسائل تصحيحها . والعلاج لا يكمن فى الاعتقاد فى اللاعقلية أو نبذ الدور المتسع للعقل فى المجتمع الجديد ، بل فى تنمية الوعى الخاص بالدور الذى يمكن للعقل أن يلعبه فى النواحى العليا ، وكذلك فى النواحى السفلى . إن هذا ليس حلما طوبيا فى وقت ازداد فيه استخدام

العقل فى مستويات المجتمع كافة ، بفضل إرغام الثورات الفنية (التكنولوجية) والعلمية لنا .. فهذا التقدم مثل كل تقدم آخر فى التاريخ له مغانمه ومغارمه التى يجب دفعها ، وأخطاره التى يجب أن تواجه ، غير أنى لن أخجل فى النظر إليه بوصفه مثلا يدل على التقدم فى التاريخ رغما عن المتشككين والكلبيين المستخذين والمتنبئين بالدمار ، خاصة بين المثقفين فى الدول التى تزعزعت مكانتها المميزة السابقة . وربما كان ذلك هو أكثر الظواهر تأثيرا أو ثورية فى زماننا .

الناحية الثانية من الثورة التقدمية التى نمر بها هى تغير شكل العالم . وقد اتسم العصر العظيم للقرنين الخامس عشر والسادس عشر الذى انهار خلاله عالم العصور الوسطى فى النهـــاية إلى أنقاض ، ووضعت فيه دعائم العالم الحديث باكتشاف قارات جديدة ، بانتقال مركز ثقل العالم من شواطىء البحر المتوسط إلى شواطىء الأطلسى ، وكان كذلك للثورة الفرنسية بنتائجها الأقل تأثيراً ، عواقبها الجغرافية الداعية إلى إصلاح ميزان العالم القديم . ولكن التغييرات التى حققتها ثورة القرن العشرين قد كانت أكثر اكتساحا من أى شىء حدث منذ القرن السادس عشر : فبعد مايقرب من أربعمائة سنة انتقل مركز ثقل العالم بصورة قاطعة من أوربا الغربية ، فقد أصبحت أوربا الغربية والأجزاء الأخرى خارج بريطانيا من البلاد الناطقة بالإنجليزية توابع لقارة أمريكا الشمالية ، أو إذا رغبت أنها أصبحت كتلة مكدسة تقوم الولايات المتحدة فيها بدور محطة القوى الكهربائية وبرج المراقبة معا ، غير أن هذا التغير ليس بالتغير الوحيد أو ربما الأكثر أهمية . فليس واضحا بأية وسيلة من الوسائل أن مركز ثقل العالم سيستقر الآن فى البلاد الناطقة بالإنجليزية ودولها الغربية الملحقة بها ، أو أنه سيستمر فى الاستقرار فيها . فيبدو أن الصوت المسموع اليوم فى شئون العالم هو صوت مساحة الأرض الكبيرة الممتدة فى أوربا الشرقية وآسيا ، بالإضافة

إلى امتدادها فى أفريقيا ، وأصبح القول: «الشرق الذى لايتغـــير ، اليوم كايشيها غربيا باليا» .

فلنلق نظرة سريعة إلى ما حدث فى آسيا فى القرن الحالى . والقصة تبدأ بالتحالف الإنجليزى اليابانى سنة ١٩٠٢ عندما سمح لأول مرة لدولة آسيوية بدخول دائرة القوى العظمى الأوربية السحرية ، وربما كان محض مصادفة أن تدل اليابان على تقدمها بتحدى روسيا وهزيمتها ، وعندما قامت بذلك أوقدت أول شرارة أشعلت بها ثورة القرن العشرين . لقد وجدت الثورتان الفرنسيتان سنة ١٨٧٩ ، ١٨٤٨ مقلدين لهما فى أوربا ، ولم يكن للثورة الروسية سنة ١٩٠٥ أى صدى فى أوربا ، ولكنها صادفت مقلدين لها فى آسيا . فى السنوات القليلة التالية نشبت ثورات فى إيران وتركيا والصين . ولم تكن الحرب العالمية الأولى حربا عالمية بمعنى الكلمة، بل حربا أوربية أهلية ، مع افتراض وجود حقيقة تسمى أوربا ، وترتب عليها نتائج عالمية واسعة حدثت فى نفس الوقت ، تضمنت حدوث تقدم صناعى فى عدة دول آسيوية، والشعور المعادى للأجانب فى الصين ، والقومية الهندية وميلاد القومية العربية. وجاءت الثورة الروسية ١٩١٧ بقوة دافعة أخرى. والشىء المهم هنا هو أن زعماءها قد توقعوا بإصرار مقلدين فى أوربا ، ولكن بغير جدوى . وأخيراً صادفوهم فى آسيا . لقد أصبحت أوربا هى «التى لا تتغير» وآسيا هى التى تتحرك . لن أتابع هذه القصة المألوفة إلى الوقت الحالى . فالمؤرخ لم يعد فى موقف يساعده على تقدير مدى الثورتين الآسيوية والإفريقية وأهميتهما . ولكن انتشار الفنون العلمية الحديثة والصناعة ، وبداية التعليم والوعى السياسى للملايين من سكان آسيا وإفريقيا سيغير شكل هذه القارات . وفى الوقت الذى لا أستطيع فيه أن أطل بعينى فى المستقبل، فإننى لا أعرف أى مقياس للحكم يبيح لى أن أنظر إلى هذه الأشياء إلا باعتبارها تطورا تقدميا فى مجال التاريخ العالمى . وقد جاء مع

تغير شكل العالم الذى نجم من هذه الأحداث تدهور نسبي فى تأثير انجلترا، وربما الدول الناطقة بالإنجليزية بأسرها على الشئون العـــالمية . ولكن التدهور النسبي ليس تدهورا مطلقا . ومايقلقنى ويزعجنى ليس سير التقدم فى آسيا وإفريقيا . بل هو اتجاه الطوائف الحاكمة فى بريطانيا، وربما فى أى مكان آخر، للنظر إلى هذه التطورات بعين كفيفة أو غير واعية . واتخاذها اتجاها يتردد بين الازدراء المستريب والتلطف الوديع والاستغراق فى حنين إلى الماضى يشل الحركة .

وإن ما دعوته باتساع العقل فى ثورتنا فى القرن العشرين له عواقب معينة للمؤرخ ، لأن اتساع العقل يعنى بصفة جوهرية بزوغ جماعات وطبقات وشعوب وقارات فى التاريخ ، كانت إلى هذا الوقت خارجه . وفى محاضرتى الأولى رأيت أن اتجاه مؤرخى القرون الوسطى للنظر إلى مجتمعهم من خلال منظار الدين ، كان يرجع إلى الطابع الضيق لمصادرهم ، وإنى أود أن أتابع هذا التفسير قليلا. لقد قيل وأظنه صواباً، وإن كان بغير شك ببعض المبالغة : إن الكنيسة المسيحية كانت النظام العقلى الوحيد فى القرون الوسطى* (١) . وبوصفها النظام العقلى الوحيد ، فإنها كانت النظام التاريخى الوحيد ، فهى وحدها كانت خاضعة لاتجاه تقدمى يمكن أن يفهمه المؤرخ . لقد كان المجتمع الدنيوى مختلطاً بالكنيسة ومنظما بوساطتها ولم يكن له حياة عقلية خاصة به . وكانت جموع الشعب مثل شعوب ما قبل التاريخ تتبع الطبيعة أكثر من تبعيتها للتاريخ . وبدأ التاريخ الحديث عندما تمتعت

---

* يقصد فى أوربا .

(١) مارتين The Sociology of the Renaissance A. von Martin (علم اجتماع عصر النهضة) الترجمة الإنجليزية ١٩٤٠ — ص ١٨

Cambridge Modern History— its سنة ١٩٠٧

شعوب أكثر فأكثر بالوعى الاجتماعى والسياسى ، وأصبحت على علم بطوائفها التى تنتسب إليها باعتبارها حقائق تاريخية لها ماض ومستقبل وتدخل بأكملها فى التاريخ . ولم يبدأ الوعى الاجتماعى والسياسى والتاريخى ينتشر حتى فى قليل من البلاد المتقدمة ، بين ما يقرب من أغلبية السكان إلا فى السنوات المائتين الأخيرة على الأكثر . واليوم فقط قد غدا ممكناً لأول مرة حتى تخيل عالم يتكون من شعوب قد دخلت التاريخ بأكمل معنى ، ولم تعد موضع عناية الحاكم الإدارى والاستعمارى ، أو عالم الأنثروبولوجى فحسب ، بل موضع عناية المؤرخ .

إنها لثورة فى تصورنا للتاريخ . فنى القرن الثامن عشر كان التاريخ ما يزال تاريخ الصفوة . وفى القرن التاسع عشر بدأ المؤرخون الإنجليز يتقدمون بتردد وعصبية نحو نظرة إلى التاريخ باعتباره تاريخاً للمجتمع القومى بأسره . واكتسب « جرين » G. R. Green — وهو مؤرخ يفتقر إلى حد كبير إلى الخيال — الشهرة بكتابة أول تاريخ للشعب الإنجليزى تحت عنوان History of the English People وفى القرن العشرين يحاول كل مؤرخ تملق هذا الرأى . وبالرغم من أن المزاعم شىء والتنفيذ شىء آخر فإننى سوف لا أعنى بهذا الفشل ، لأننى أكثر عناية بإخفاقنا بوصفنا مؤرخين فى مراعاة الأفق المتسع للتاريخ خارج هذه الدولة وخارج أوربا الغربية . وقد وصف « أكتون » فى تقريره سنة ١٨٩٦ التاريخ العالمى بأنه « التاريخ المتمايز عن التاريخ المجمع من كل دولة » وأضاف :

« إنه يسير فى نظام تعاقبى تقوم فيه الأمم بدور ثانوى . وسوف تذكر قصة هذه الأمم لا لذاتها ، بل فى صلتها وتبعيتها لسلاسل أعلى وفقا للزمن والقدر الذى أسهمت به من أجل مستقبل العنصر الإنسانى (١) » .

---

(١) ص ١٤ من (تاريخ كامبردج الحديث — أصله وتأليفه وإنتاجه)

لقد فات « أكتون » القول إن التاريخ العالمى كما أدركه ، هو ما يعنى به أى مؤرخ جاد . فما الذى نقوم به اليوم لتسهيل الاقتراب من التاريخ العالمى بهذا المعنى ؟

لم أقصد فى هذه المحاضرات أن أمس دراسة التاريخ فى هذه الجامعة . ولكن هذه الدراسة تزودنى بأمثلة تدعو إلى الدهشة لما أحاول أن أقوله . حتى إن تجنب قطف الأزهار الشائكة يعد جبنا . فى السنوات الأربعين الماضية قد جعلنا لتاريخ الولايات المتحدة مكانة رئيسية فى مناهجنا . لقد كان هذا تقدما هاماً ، ولكنه كان يحمل فى طياته خطراً معيناً خاصا بتدعيم ضيق أفق التاريخ الإنجليزى الذى يجثم على مناهجنا مثل الجثة الهامدة ، بالاشتراك مع تاريخ الشعوب الناطقة بالإنجليزية الأكثر مخاتلة والذى يتساوى معه فى عقمه الخطير . إن تاريخ الشعوب الناطقة بالإنجليزية فى السنوات الأربعمائة الأخيرة كان بغير جدال عصراً تاريخيا عظيما . ولكن النظر إليه على أنه محور التاريخ العالمى ، وأن كل شىء آخر يحيط به ، هو تشويه غير موفق للنظرة . وواجب الجامعة هو تصحيح مثل هذا المسخ المشهور . ويبدو لى أن مدرسة التاريخ الحديث فى هذه الجامعة مقصرة فى القيام بهذه المهمة . ومن المؤكد أنه من الخطأ أن يسمح لأى ممتحن اجتياز امتحان فى التاريخ فى جامعة كبرى ، دون معرفة كافية بأية لغة حديثة أخرى خلاف الإنجليزية . فلنأخذ العبرة بما حدث فى أكسفورد فى التعليم القديم الموقر للفلسفة ، عندما انتهى القائمون إلى النتيجة الخاصة بأنهم يستطيعون تأدية كل شىء بإجادة تامة باستعمال لغة الحياة اليومية الإنجليزية . ومن المؤكد أنه من الخطأ ألا تقدم للممتحن عند دراسة التاريخ الحديث لأية دولة أوربية أية تيسيرات تزيد على مستوى الكتب التعليمية . إن لدى الممتحن الذى له بعض العلم بشئون آسيا وإفريقيا أو أمريكا اللاتينية فى الوقت الحاضر فرصة ضئيلة لإظهار هذا العلم ، فى اختبار يدعى وفقاً لمظاهر القرن التاسع عشر الموقر باسم

«اتساع أوربا»، والعنوان يلائم لسوء الحظ الفحوى ، فإن الممتحن ليس مدعواً لأن يعرف أى شىء حتى عن دول لها تاريخ هام يعتمد على وثائق طيبة مثل الصين أو إيران ، باستثناء ما حدث عند ما حاول الأوربيون السيطرة عليهما . ولقد قيل لى إن هناك محاضرات تلقى عن تاريخ روسيا وإيران والصين ، ولكنها لا تقدم بوساطة أساتذة من كلية التاريخ . ولاقى الاعتقاد الذى عبر عنه أستاذ اللغة الصينية فى محاضرته الافتتاحية ، منذ خمس سنوات مضت بقوله : « إن الصين لا يمكن أن تعد خارج المجرى الرئيسى للتاريخ الإنسانى(١) » آذاناً صماء لدى مؤرخى كامبردج . وإن ما قد يعد فى المستقبل أعظم مؤلف تاريخى ظهر فى كامبردج خلال السنين الماضية، قد كتب بأسره خارج قسم التاريخ ودون معونة منه ، وأنا أشير إلى كتاب(العلم والحضارة فى الصين) Science & Civilization In China تأليف دكتور نيدهام Needham . هذا رأى قصد به الإيقاظ . وما كنت أعرض هذه الندوب الداخلية لأنظار الجماهير ، لولا الحقيقة الخاصة بأنى أعتقد أنها متماثلة فى أغلب الجامعات البريطانية الأخرى ، ولدى المثقفين البريطانيين بصفة عامة ، فى منتصف القرن العشرين . لقد أصبحت العبارات الدالة على السخرية العتيقة من العزلة ، الفيكتورية مثل (عواصف فى القنال الإنجليزى) ، « القارة المنعزلة » نغمة غير مقبولة فى الأحاديث اليوم ، والعواصف تعصف مرة أخرى فى العالم وراءنا . وفى الوقت الذى نتوارى فيه معا فى الدول الناطقة بالإنجليزية ،ونذكر لأنفسنا باللغة الإنجليزية العامية ، أن الدول الأخرى منعزلة من جراء سلوكها غير العادى عن نعم حضارتنا وبركاتها ؛ فإنه يبدو أحياناً وكأننا قد عزلنا أنفسنا عما يجرى فعلا بعجزنا وعدم رغبتنا فى الفهم .

---

(١) « بوليبلانك » E . G . Pulleyblank (التاريخ الصينى والتاريخ العالمى) Chinese History & World History سنة ١٩٥٥ ص٢٦

لقد وجهت الانتباه فى العبارات الافتتاحية من محاضرتى الأولى، إلى اختلاف وجهات النظر الحاد الذى يفصل بين السنوات المتوسطة من القرن العشرين وبين السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر. وإننى أود فى النهاية التوسع فى الكلام عن هذا التباين. وإذا استخدمت فى هذا السياق كلمات مثل: « حر » أو « محافظ » ، فينبغى أن يفهم على الفور أننى لا أستخدمهما باعتبارهما دالتين على الحزبين السياسيين البريطانيين. وعندما تكلم « اكتون » عن التقدم ، فإنه لم يقصد المعنى الشائع لكلمة « تدرج » لدى الإنجليز ، فقد ذكر فى رسالة ترجع إلى سنة ١٨٨٧ فى عبارة خلابة: « الثورة أو كما نقول الحرية » ؛ وقال فى محاضرة عن التاريخ الحديث بعد عشر سنوات من ذلك الوقت: « إن طريقة التقدم الحديث كانت هى الثورة » . وفى محاضرة أخرى تحدث عن حلول الأفكار العامة التى نسميها « ثورة » . وقد شرح ذلك فى إحدى ملاحظاته المخطوطة التى لم تنشر بقوله: « لقد حكم الأحرار الهويج بوساطة الحلول الوسط ، وبدأ الأحرار حكم الأفكار(١) » . واعتقد « أكتون » أن « حكم الأفكار » يعنى

(١) انظر من أجل هذه الفقرات فى (مختارات من خطابات أكتون) Acton Selections from Correspondence (١٩١٧) ص ٢٧٨ و(محاضرات فى التاريخ الحديث) Lectures on Modern History (١٩٠٦) صفحات ٤ — ٣٢ وكذلك فى مكتبة جامعة كامبردج Add Ms . S 4949 وقد اعتبر أكتون فى خطاب ١٨٨٧ اقتبس فيما سبق أن التغير من الهويج القديم إلى الهويج الحديث يعنى الأحرار — هو اكتشاف للضمير. ومن الواضح أن الضمير هنا ارتبط بتطور الوعى (انظر كذلك صفحة ١٧٥ السابقة ويطابق حكم الأفكار وقسم « ستابس » Stubbs التاريخ الحديث كذلك إلى عصور تفصلها الثورة ، والعصر الثانى هو تاريخ حلت فيه الأفكار محل كل من الحقوق والنظم . انظر كتاب ستابس Sevente en Lectures on The Study of Medieval. & Modern History (الطبعة الثالثة سنة ١٩٠٠ ص٢٣٩) (سبع عشرة محاضرة فى دراسة تاريخ العصرين الوسيط والحديث)

« الحرية » ، وأن الحرية تعنى الثورة . وعندما كان « أكتون » على قيد الحياة لم تكن ثورة مذهب الأحرار ، باعتبارها قوة حركية (ديناميكية) للتغير الاجتماعى قد استنفدت . وفى الوقت الحالى فإن ما تبقى من المذهب الحر قد أصبح عاملا محافظاً فى المجتمع فى كل مكان . والدعوة إلى العودة إلى «أكتون» قد تكون بلا معنى فى الوقت الحاضر . ولكن المؤرخ يعنى أولا بإثبات أين وقف « أكتون» . وثانياً : مقارنة موقفه بموقف المفكرين المعاصرين . وثالثاً : أن يبحث عن عناصر موقفه التى ما زالت صحيحة إلى الآن . وقد عانى جيل «أكتون» بغير شك من الاندفاع فى الثقة بالنفس والتفاؤل ، ولم يستطع أن يدرك إدراكاً كافياً الطبيعة المزعزعة للبناء الذى اعتمد عليه إيمانه ، ولكنه كان يتمتع بشيئين نحن فى مسيس الحاجة إلى كل منهما اليوم . أولهما الشعور بالتغير بوصفه عاملا تقدمياً فى التاريخ والاعتقاد فى العقل باعتبار أنه يقوم بإرشادنا لفهم تعقيدات التاريخ .

فلنحاول الآن أن نصغى إلى بعض أصوات تنتمى إلى خمسينيات هذا القرن . لقد اقتبست فى محاضرة سابقة تعبير سير لويس «ناميه» عن الرضا ، لأنه فى الوقت الذى يتم البحث فيه عن « حلول عملية » « للمشكلات المشخصة » قد نسى كل من الحزبين البرامج والمثل العليا ، ووصفه هذه الحالة بأنها دلالة على النضج القوى (١) وإننى لست مولعا بتمثيل أطوار حياة الأفراد بحياة الأمم . ولو قبل هذا التمثيل فإنه من المغرى للمرء أن يسأل ما الذى سيجىء بعد أن نجتاز مرحلة « النضج » . ولكن مايهمنى هو التباين الحاد الذى أقيم بين العملى والمشخص اللذين امتدحا ، وبين البرامج والمثل اللتين استنكرتا . إن إعلاء شأن الممارسة العملية علـى الإنشاء المثالى للنظريات هو بالطبع طابع مذهب المحافظين ، وهو يمثل فى فكر « ناميه »

---

(١) انظر صفحة ٥٣ السابقة

صوت القرن الثامن عشر لانجلترا عند ارتقاء جورج الثالث الذى يحتج على الهجمات التهديدية لثورة أكتون ، وعلى حكم الأفكار ، غير أن نفس التعبير المألوف الذى يجعل للمحافظين ـ بغير تحفظ ـ صورة التجريبية بغير تحفظ ، قد أصبح شائعا لدرجة عظيمة فى أيامنا هذه وربما أمكن العثور عليه فى أكثر صوره شعبية فى ملاحظة الأستاذ تريفور روبر Trevor Roper بأنه عندما يصيح المتطرفون أن النصر بغير شك من نصيبهم ، فإن المحافظين العقلاء يضربونهم على أنوفهم (١) ويقدم الأستاذ أوكيشوت لنا رواية أكثر تعقيداً لهذه البدعة التجريبية ، فهو يذكر لنا أننا فى مصالحنا السياسية نبحر فى بحار غير محدودة وغير معروف قاعها ، حيث لا نقطة بداية ولا غاية محدودة ، وحيث غايتنا الوحيدة هى أن نظل طافين على أى قاعدة مركب مسطحة (٢) ، ولست بحاجة إلى متابعة قائمة الكتاب المحدثين الذين نبذوا الطوبيات السياسية والرسالات المنسيحية ، وقد أصبحت هذه هى اصطلاحات الانتقاص والرزانة الشائقة التى توجه إلى الأفكار المتطرفة البعيدة المنال عن مستقبل المجتمع ، كما أننى لن أحاول مناقشة الاتجاهات المعاصرة فى الولايات المتحدة ، فهناك المؤرخون والنظريون السياسيون أقـل خضوعا للمحرمات من زملائهم فى بريطانيا . وسأقتبس ملاحظة واحدة لأحـد المؤرخين المحافظين الأمريكيين الممتازين والأكثر اعتدالا ، وهو الأستاذ صمويل موريسون Samuel Morrison من جامعة هارفارد الأمريكية ، الذى ظن فى محاضرته الرياسية فى الجمعية التاريخية الأمريكية فى ديسمبر سنة ١٩٥٠ أن الوقت قد حان من أجل رد فعل مقابل

---

(١) مجلة Encounter ص ١٧ من عدد رقم ٦ فى يونية سنة ١٩٥٧

(٢) أوكيشوت Oakeshott (تربية سياسية) Political Education ص ٢٢ سنة ١٩٥١

لما أسماه اتجاه « جيفرسون جاكسون ، فرانكلين روزفلت » وتمنى أن يكون للولايات المتحدة تاريخ قد كتب من وجهة نظر محافظة سليمة (١) .

ولكن الأستاذ بوبر على أية حال هو الذى عبر فى بريطانيا مرة أخرى عن هذه النظرة المحافظة الحذرة فى أوضح صورها وأكثرها صلابة ، فقد هاجم مرددا رفض « ناميبه » للبرامج والمثل « السياسات التى تزعم أنها ترمى إلى إعادة تشكيل المجتمع بأسره وفقا لخطة محددة » وأثنى على ما أسماه « الهندسة الاجتماعية » (بالقطعة) ولكنه لم يحجم إحجاما حينما وجه إلى رأيه الاتهام بأنه يشبه « إصلاح الأوانى بالقطعة » أو أنه يعنى التخبط والتعبيث . وينبغى أن أشيد بحق بفضل الأستاذ بوبر فى نقطة واحدة ، فقد ظل مدافعا قويا عن العقل ولم يتبع أية انحرافات من الماضى أو الحاضر مؤدية إلى اللاعقلية ، لكننا إذا تأملنا وصفته الخاصة « الهندسة الاجتماعية بالقطعة » فإننا سنرى ضآلة الدور الذى خصصه للعقل . وبالرغم من أن اصطلاحه « هندسة اجتماعية بالقطعة » ليس دقيقا تماما فإنه قد أخبرنا بجلاء أنه قد استثنى نقد الغايات ، كما أن الأمثلة التى اختارها بحذر لإيضاح أفعال العقل المشروعة ، مثل الإصلاح الدستورى والاتجاه نحو مساواة أعظم للدخل ، تبين بجلاء أنه قد قصد بها العمل فى نطاق الافتراضات الخاصة بمجتمعنا القائم . إن مكانة العقل فى النسق الذى نظم فيه الأستاذ بوبر الأشياء لتشبه فى الواقع إلى حد كبير دور الموظف الحكومى البريطانى المؤهل للقيام بتنفيذ سياسات الحكومة صاحبة السلطة ، ولاقتراح تحسينات عملية كذلك تساعد على قيامها بعملها بطريقة أفضل ، ولكن دون أى تساءل عن افتراضاتها السابقة أو غاياتها النهائية . وهذا عمل نافع ، فقد كنت

---

(١) مجلة (المجلة التاريخية الأمريكية) American Historical Review عدد رقم ٥٦ (يناير سنة ١٩٥١) صفحات ٢٧٢ — ٢٧٣

كذلك موظفا حكوميا يوما ما. ولكن يبدو لى فى آخر المطاف أن إخضاع العقل إلى افتراضات النظام القائم غير مقبول تماما. ولم تكن هذه هى الطريقة التى فكر بها أكتون فى العقل عندما ذكر معادلة الثورة بالمذهب الحر وبحكم الأفكار. لقد جاء التقدم فى الأمور الإنسانية سواء فى العلم أو التاريخ أو المجتمع عن طريق استعداد الناس، لا إلى الاقتصار على تحسين الوسائل التى تؤدى بها الأشياء (بالقطعة) ، بل عن طريق تقديم تحديات رئيسية باسم العقل، إلى الوسيلة الشائعة للقيام بتنفيذ الأشياء وإلى الافتراضات المجاهر بها أو الخفية التى تعتمد عليها. وإننى أتطلع إلى الأمام إلى الوقت الذى يستعيد فيه المؤرخون وعلماء الاجتماع والمفكرون السياسيون فى البلاد الناطقة بالإنجليزية شجاعتهم للقيام بهذه المهمة.

ومع ذلك فإن ما يقلقنى ليس هو وهن الإيمان فى العقل بين المثقفين والمفكرين السياسيين فى البلاد الناطقة بالإنجليزية، بل هو فقد الإدراك النفاذ لعالم فى حركة دائبة. إن هذا يبدو للوهلة الأولى محيرا. فلم يسبق إلا فيما ندر الاستماع إلى مثل هذه الأحاديث الوفيرة السطحية عن التغيرات التى تدور حولنا. غير أن الشىء المهم هو أن التغير لم يعد ينظر إليه باعتباره عملا عظيما أو فرصة أو تقدما بل موضوع مخاوف. وعندما يقوم جهابذة السياسة والاقتصاد بالتطبيب فإنهم لا يقدمون لنا شيئا سوى تحذيرات داعية إلى سوء الظن بالأفكار المتطرفة وبعيدة المنال، ودعوة إلى الإعراض عن أى شىء تشتم منه رائحة الثورة أو التقدم. وفيما يتعلق بالتقدم — إذا كان ليس منه بد — فليكن ذلك بتريث وحذر بقدر استطاعتنا. وفى اللحظة التى يغير فيها العالم شكله بسرعة وتطرف أكثر من أى وقت مضى خلال السنوات الأربعمائة الماضية، يبدو لى هذا حمقا فريدا فى نوعه. وهذا يؤدى إلى الخوف لا من توقف حركة العالم الواسعة، بل من تخلف هذه الدولة — وربما تخلف دول ناطقة بالإنجليزية أخرى — عن ركب التقدم العام،

وانتكاسها ، عاجزة بلا شكوى إلى تعلق بالوطن مريض وعقيم . وفيما يتعلق بى فإننى سأظل متفائلا ، وعندما يحذرنى سير « لويس ناميه » أن أحيد عن البرامج والمثل ، ويخبرنى الأستاذ « أوكيشوت » أننا سائرون إلى غير غاية معينة ، وأن كل ما يهم هو ألا يهز أحد القارب . أو ينهج الأستاذ « بوبر » على منوال نظام فورد القديم العزيز بوساطة نظام الهندسة الاجتماعية (بالقطعة) ، أو يضرب الأستاذ « تريفور روبر » المتطرفين الصارخين على أنوفهم ، ويقيم الأستاذ موريسون الحجج لتدعيم التاريخ المكتوب بروح محافظة سليمة ، فإننى سوف أنظر إلى عالم فى حرج وعالم فى ضنك ، وسأجيب بالعبارة الكثيرة الاستعمال لعالم عظيم ، « ومع ذلك فإنها تتحرك » .

مطبعة الكيلانى الصغير

٢٨ شارع البستان — باب اللوق
ت ٣٣١٥٨ — القاهرة